

رفق
عبد الرحمن النجدي
الدكتور وهيب طنوس
مدرس الأدب العربي بجامعة حلب . وكيل كلية الآداب

في الشعر العربي

الموطن

من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي

١٩٧٥ - ١٩٧٦

الطبعة الأولى



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

إني مدين للكثير في اخراج انتاجي العلمي الى المكتبة العربية ،
ولا يسعني بهذه المناسبة الا أن أشكر معهد الدراسات الشرقية بلمنغراد
التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية الذي أتاح لي فرصة تحضير نواد عملي ،
وجميع المستشرقين ، والاختصاصيين ، والباحثين بقسم اللغة العربية في
المعهد المذكور الذين قدموا لي العون ، وفتحوا لي جميع المجالات التي
يمكن أن تساعدني ، وهيموا لي جو الصداقة الانساني والتوجيه العلمي
المسؤول فكانوا - بما فيهم الدكتور أنس خالدوف - خير معيننا
وأفضل رديفاً .

أتقدم بشكري الجزيل الى البروفيسور ف . إ . ييلاييف رئيس
قسم اللغة العربية في جامعة لينغراد الحكومية ولجميع اعضاء القسم الذين
استرشدت بملاحظاتهم وتعليماتهم الايجابية ، كما أشكر دكتورة العلوم في
علوم فقه اللغة ب . يا . شدفار ، ودكتورة علوم فقه اللغة أ . أ . دوايننا
لتقييمها الموضوعي العلمي لعملنا هذا .

شكري الخالص أتقدم به الى وطني الذي هباً لي امكانية متابعة
الدراسة ، آملاً أن أكون قد وفقت في خدمة تراث أمي العربية
العريقة ، بتبيان جانب من جوانبه الا وهو « حب الوطن » .

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
السيد الشيخ الفزوقي

« تَقْرِيم »

ان الظروف المعصية التي تمر بها الأمة العربية ، والتكالب الاستعماري الصهيوني على نهب خيراتها ومقدراتها ، كل هذا يدفع بنا - نحن العرب - الى الوقوف ، وبمزية وصدق ، حيال كل التحديات التي تواجهنا ، جاهدين للاستفادة من نتاج العلم الحديث ، آخذين العبرة والعظة من ماضي نضال أمتنا المريق ، لنعمل سوية ، وبوعي وصدق ، على بناء المجتمع العربي الجديد . مجتمع الوحدة والحرية والاشتراكية .

من أهم مقومات النضال في عصرنا تربية النشء العربي تربية قومية ثورية ، وغرس الروح الوطنية ، ومنذ الصغر في نفوس الناشئة . من هذه الزاوية بالذات كان اختيارنا لموضوعنا (الوطن في الشعر العربي) يرضي آمالنا في خدمة الأمة ، ساعين جهدنا أن ندرس تطور هذا هذا المفهوم منذ الجاهلية ولنهاية القرن الثاني عشر ، آملين أن يكون بحثنا هذا أولى الحلقات في أبحاث لنا مقبلة ، نستمر في دراسة تطور مفهوم « الوطن ، الوطنية » حتى أيامنا هذه ، راجين أن تساهم دراستنا هذه ، وبتواضع ، في كشف جانب من جوانب ثقافتنا ، ومضامين شعرنا العربي .

ان موضوع « حب الوطن » قد نال تجسيداً شعرياً في الانتاج

الفني الادبي لكافة الشعوب في كافة الأزمنة ، وبالرغم من أن هذا الموضوع قد وجد في الشعر العربي القديم ، وظهر بصور تعبيرية مختلفة متنوعة ، فانه لم يحظ حتى الآن باهتمام الباحثين الخاص . من امباب ذلك غزارة المادة العلمية ، وتوزعها وصعوبة جمعها . أما الآن فبين ايدينا اصدار المرجع الأدبي الاول « المختارات الشعرية » للشاعر العربي السوري، الذي عاش في القرن الثاني عشر (لأسامة بن منقذ) « كتاب المنازل والديار » . ان المخطوطة الفريدة الوحيدة لهذا الكتاب محفوظة في معهد الدراسات الشرقية في ليننغراد ، التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية ، تحت رقم (C35) .

لقد وصف المستشرق السوفياتي الشهير الأكاديمك إي . كراتشكوفسكي هذه المخطوطة ، وكتب عنها مقالات قيمة ، وفي عام ١٩٦١ قام المستشرق السوفياتي أنس بكييفيتش خالدوف بتصويرها ، ونشرها مع مقدمة باللغة الروسية ، وفهارس الأعلام والقوافي والأمكنة وغيرها .

أما إصدار المخطوطة في كتاب مطبوع فقد ظهر فيما بعد في دمشق وبيروت والقاهرة .

لقد قام أسامة بن منقذ في كتابه هذا بجمع مقتطفات من أشعار المعاصرين له والسابقين ، وكذلك أشعاره الخاصة ، حيث تردد فيها ألحان فقدان الأقرباء والأهل ، الحنين الى الوطن المهجور ، حزن الفراق مع الأحبه ، تذكر السعادة القديمة على أرض الوطن في مجتمع الأهل

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المدخل

سورية وفلسطين منذ نهاية القرن الحادي عشر إلى نهاية الثاني عشر XI-XII .

« مميزات العصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية »

لقد كان القرنان الحادي عشر والثاني عشر بالنسبة لسورية وفلسطين فترة حروب غير منقطعة ، وهزات سياسية عنيفة ، ففي الستينات من القرن الحادي عشر زحفت جيوش البداة الاثراك برئاسة السلاطين السلاجقة إلى سورية وفلسطين الموزعتين بين سلطنة الفاطميين ، والبيزنطيين ، والسلالات الصغيرة ، كالقليديين والمرداسيين . لقد كان على السلاجقة أن يبروا بمرحلة نضال طويلة ، بصورة خاصة مع الفاطميين ، لأجل الاستيلاء على المدن الغنية في المنطقة . ففي عام ١٠٧٠م استولى السلاجقة على بيت المقدس (١) وبعد خمس سنوات على دمشق (٢) . ثم إن مجموعة أخرى من المناطق والمدن قد أصبحت تحت سيطرتهم وضمن مناطق نفوذهم . ومن أجل الحفاظ على هذه الممتلكات ، وتوطيد السيطرة عليها كان على السلاجقة وعلى قوادهم العسكريين التحارب فيما بينهم ، بعضهم مع بعض ، وضد الحكام المجاورين . أما فاطميو مصر فقد سموا جاهدين ايضاً لاسترجاع قواعدهم المفقودة ؛ وهكذا في عام ١٠٩٨ . م تمكنوا من استرجاع بيت المقدس ، وذلك قبل استيلاء الصليبيين عليه بعام ، وكذلك استرجعوا عدداً من المدن الساحلية الاخرى في سورية .

ونظراً لعدم تمكن السلاجقة من امتلاك نظام مركزي قوي في جمع الضرائب وتأمين حاجات الجيش ، فقد كانوا مضطرين أن يقيموا في سورية

١ - ابن الاثير . ج I ، ص ٤٧

٢ - ابن الاثير . ج I ، ص ٦٨

ذلك النظام الذي كانوا قد استخدموه في إيران ، والذي ينطوي على إعطاء « البيكوات » الأتراك (وقواد الجيش الآخرين) الحق في جمع الضرائب من مقاطعه ما ، لتأمين حاجات الجيش ومتطلباته ، وهؤلاء بدورهم قاموا بتقسيم وتوزيع المقاطعه بين الأتباع ، فقاد هذا النظام من جهة أولى إلى الاستغلال الظالم بدون رحمة لسكان المقاطعة ، وإلى تقسيم وتجزئة المقاطعات المعطاة بشكل (إقطاع) ، ومن جهة أخرى فقد أضعف من تبعية « البيكوات » والأمراء للسلطان ، وكان مبيهاً في الحروب المستمرة على حدود الملكية .

أما في بعض المدن فقد استطاع بعض الإقطاعيين العرب أن يحتفظوا بسلطتهم ويوطدوها معترفين بذات الوقت بتبعيتهم للسلطين السلاجقة .

لقد أصبحت سورية مقسمة مبعثرة ، لم تعد فقط كل مدينة كبيرة أو صغيرة مع الأراضي التابعة لها ملكية وراثية لأمر عربي أو تركي مستقل ، بل إن كثيراً من المناطق السكنية الصغيرة كانت مناطق نفوذ للإقطاعيين ، حيث سعى كل منهم ، وبجهد ، لتأسيس سلالة محلية مستقلة . ولقد كان بنو منقذ - أهل أسامه في عداد هؤلاء الإقطاعيين المننفذين السوريين الذين يملكون كفاية متوسطة ، وتأثيراً سياسياً كبيراً .

أما سلطة الخلفاء في هذا الوقت - حتى في مجال ممثليهم الشخصية في العراق - فقد كانت محدودة بشكل واضح : الخليفة

[لا يتعدى كلامه بابه ولا يتجاوز جنباه]^(١) .

إضافة الى الحكومات الاسلامية الكثيرة ، والسلالات الصغيره فقد زاحمت بيزنطة على السيطرة والسلطة في سورية وفلسطين ، بيزنطة التي لم تقوَ بأي شكل من الأشكال على الصبر لفقد ممتلكاتها (أماكن سيطرتها) في آسيا وشمال افريقيا . وفي نهاية القرن الحادي عشر ظهرت قوة سياسية عسكرية جديدة ساهمت وشاركت في حوادث سورية وفلسطين العاصفة في ذلك الوقت ، إنها اتحاد فرسان أقطار غرب أوروبا ، ذلك الاتحاد الذي كانت من نتيجته الحملات الصليبية لأجل تحرير (الأرض المقدسة) و (قبر السيد) من (عديمي التقوى) المسلمين^(٢) . على امتداد قرنين من الزمن تقريباً (لقد امتدت الحروب الصليبية مع فترات سامية متقطعة من ١٠٩٦ حتى ١٢٧٠) سعت مجموعات هائلة من سكان أوروبا الغربية بتحريض وأوامر البابا إلى غزو الشرق .

لقد تركزت أسباب هذه الحملات الصليبية أول ما تركزت في التغييرات التي حدثت حتى نهاية القرن الحادي عشر في أوضاع الطبقات الاجتماعية في الغرب ، هذه التغييرات التي كانت نتيجة للازمات والتطورات الاقتصادية . إذ في القرن الحادي عشر قاد القحط والجوع إلى : « أن عدداً كبيراً من القرى بقيت بدون عمال في الارض (بدون فلاحين) »^(٣).

١ - ابن دحية . النبراس . ص ٤٤ ؛ انظر أيضاً ابن جبير . الرحلة.

ص ٢٢٧ ؛ الطاهر ، أ . ج . الشعر . ص ٤٦ .

٢ - الكلمات بين قوسين من خطاب البابا أوربان الثاني .

٣ - زبوروف ، م . أ . الحملات الصليبية . ص ١٤

الفلاح الاوربي المستبد به الذي يقاسي من الفقر والعوز ، والتابع بشكل أعمى إجباري للاقطاعي كان في ذلك الوقت مذلاً مهاناً يعيش تحت وطأة الظلام الفكري^(١) .

على امتداد عشرات السنوات التي سبقت بداية الحملات الصليبية الى الشرق أخذ بعض متنفذي الكنيسة الكاثوليكية « أصحاب المركز العالمي الكبير للنظام الاقطاعي^(٢) » ، بتعبير حرفي ، بحسون نبض طرق حل المسألة الأساسية التي وضعت أمامهم : إبعاد صدامات الاقطاعيين الكبار والتجمعات الاقطاعية فيما بينهم ، ولهذا ليس من العجيب أن نرى فرسان البلدان الأوربية ، الجاهدين لاستغلال الشعوب والأراضي الجديدة ، والطبقة المظلومة التي وعدت بحياة غنية هادئة في الشرق بعد احتلال الأراضي الخصبة الرائعة في سورية وفلسطين^(٣) وتحرير الفلاحين المحليين^(٤) ، قد

١ - لينين ، ف . إ . مؤلفات مختارة . ج III ، ص ١٨٥ .

٢ - ماركس ، ك . وانجلز ، ف . مؤلفات مختارة . ج II ، ص ٩٣ .

٣ - حسب كلام البابا أوربان الثاني : « فان الأرض في الشرق تقطّر عسلاً ولبناً [خيرات] ؛ « مدينة بيت المقدس - إنها سيدة الدنيا ، الأرض [فيها] ، حرفياً ، جنة ثانية » . انظر :

بيلي . م . حياة صلاح الدين . ص ، ٥٢ ؛ وزبورون ، م . أ . الحملات الصليبية . ص ٥٢ - ٥٣ .

٤ - في الحقيقة ، إن مسيحي الشرق ، وبشكل خاص في فلسطين ، قد عاشوا في ظروف معاشية متساوية مع المسلمين ، على أقل تقدير ، في العلاقات الدينية . انظر :

Michoud, Histoire, vol. I, p. 41, والدهان . س . الناصر صلاح الدين .

ساروا كلهم نحو الشرق مجتمعين تحت راية الكنيسة .

أما في سورية في تلك الأثناء فقد كانت صراعات الأمراء مستمرة دون انقطاع تقريباً ، حيث لم تتوقف حتى بظهور الصليبيين . وانتقلت المدن والمناطق عدداً من المرات من يد الى أخرى . كل حصار حربي كان معناه نهب السكان وإفقارهم ودب البؤس فيهم ، وبالنسبة لعامة الشعب البسيطة ، فلاحين كانوا أم مدنيين ، لم تكن أسماء الأسياد ذات معنى - أكانوا سلاجقة ، أم أتراكاً ، أم عرباً ، أم صليبيين . تبدل الأسياد الاقطاعيين ليس بندي معنى بالنسبة لهم ، ذلك لأن هذا التبدل لم يجر وراءه أية تغييرات البتة في أوضاعهم المعقدة القاسية .

لهذا نال الصليبيون في الحملة الأولى نجاحاً باهراً ساعدهم في ذلك الانقسام والتشتت والنزاع الداخلي بين الامراء ، الذين لا يملكون آمالاً ومطامح موحدة . إذ معنى كل امير جاهداً - وسلاحه بيده - لتحطيم جاره ، ودافع فقط عن مطامحه ورغباته غير مهتم بمصير الوطن .

ولذا حتى ١١٠٩ شكّل الصليبيون في الشرق ولاية الرها ، وإمارة انطاكية ، ومملكة بيت المقدس ، وولاية طرابلس .

إن نضال الشرق ضد الصليبيين تزعمته سلالتان ملكتا السلطة الواحدة تلو الأخرى ؛ الزنكيون الذين كان أشهرهم عماد الدين ونور الدين ، والأيوبيون الذين خرج من بينهم صلاح الدين الشير . ولقد لعب هؤلاء السلاطين الثلاثة دوراً هاماً كبيراً في تاريخ الشرق في تلك الأثناء ، وشارك معهم امامة بن منقذ ، بنشاط وجراًة في النضال ضد الصليبيين .

لقد تميزت الحالة السيامية في الشرق في بداية القرن الثاني عشر بعدم الاستقرار المدهش ، وبالسريعة الفائقة في تغيير «الخارطة» السياسية . فعلى أرض غير كبيرة - نسبياً - في اتصال وثيق مستمر ، سلماً وحرباً، عاش أهل سورية ، والبداة الذين غادروا هضاب آسيا الوسطى منذ وقت قريب . المسيحيون والمسلمون كانوا في كلا المعسكرين المتحاربين ، لكن الرغبات والمصالح الطبقية فوقت كلا المعسكرين أكثر مما فرقها المعتقد الديني .

في هذه الظروف كان من الضروري على الزنكيين ، مترئسي النضال ضد الصليبيين ، أن يؤسسوا وحدة فكرية في معسكرهم ، فالسلاجوقيون من قبل قد بدؤوا باضطهاد الشيعة ، لكن النضال من أجل توحيد المعتقد ؛ توحيد المسلمين فكراً ، لا يمكن إطلاقاً كسبه فقط بالقوة (وبالمناسبة فإن نظام الملك - وزير السلاجقة ، وهو ساعٍ لرفع مكانة الثقافة السنية ، بنى المساجد والمدارس من أجل تعاليم أبناء المسلمين القرآن والحديث وعلوم الثقافة العامة)^(١) . لقد سميت هذه المدارس « بالنظامية » . ولهذا فقد بنى نور الدين ، ومن بعده صلاح الدين المدارس التي تنهج النهج السني ، وتدعم هذه الطائفة وثقافتها وفكرها . ولقد سميت هذه المدارس بـ « النورية ، والصلاحية » . ولا بد من الإشارة إلى أن الأثر الأكبر والقيمة العظيمة في توسيع المعارف والثقافة في هذا الوقت يعودان إلى « دار الحكمة » في بغداد ، و « دار العلم » في القاهرة ، و « دار المعرفة » في طرابلس .

لقد ازداد الحب للكتب وجمعها حتى إن الخلفاء، السلاطين، والأمرأ قد بنوا في بيوتهم المكتبات التي كان لها أهمية ليست بالقليلة في تنمية مدارك ومعارف الأجيال اللاحقة ، مثلاً : مكتبة القصر الفاطمي في القاهرة (بلغ تعداد كتبها كما يقال ، مليوني كتاب)^(١) . و « مكتبة نظامية بغداد » و « مكتبة آمد » . ولقد ملك أسامه ابن منقذ أيضاً مكتبة خاصة ، تحتوي على ما يقارب ٤٠٠٠ / كتاب .

يرى فيليب حتي « أن جمع الكتب والاهتمام بها كان عند المسلمين التسليم الوحيد لأن حياتهم لم تكن تألف المحافل السياسية ومسارح التمثيل المعروفة منذ القدم في بلاد اليونان وروما مما اقتضى أن تكون الكتب وحدها تقريباً السبيل إلى تحصيل المعرفة وهي التنفيس الذي يضمنونه آراءهم وكوامن أفكارهم »^(٢) .

في القرن الثاني عشر ، في الشرق الأدنى لم تتصادم فقط قوتان سياسيتان، بل وثقافتان أيضاً ، وبالمناسبة ففي أكثر العلاقات كانت الثقافة المحلية أقوى وأرفع ، وأثرت تأثيراً بليغاً على الصليبيين . طبعاً ، إن تقدم الفلسفة والفلك قليلاً مالاقي اهتمام الفرسان الاوربيين ، لكنهم بشك واضح لمساو تفوق مستوى الحياة في الشرق ، حتى إنهم في الجبل الثاني قد تقاربوا بمظاهر الحياة مع الاقطاعيين المسلمين .

١ - أبو شامه > - ١ ، ص ٢٠٠ . عن هذه المكتبة كتب أسامه في كتاب المعصا . انظر :

Derenbourg H., Le Vie d'Ousama, p,563

Hitty, ph., History of the Arabs, p. 563

هذا كان بالضبط ذلك الوقت الذي بدأ فيه أسامة بن منقذ حياة نشيطة في الأمور السياسية . في مؤلفاته - كما سنرى فيما بعد - سنعثر على الكثير من المعلومات الثميرة التي تحدد وتصف العلاقة بين المسلمين والصليبيين ، وتلك الروح الصبورة نسبياً ، التي وجدت فيما بينهم بغض النظر عن الحرب المستمرة . عن هذه الروح الصبورة قد كتب مؤلف إسلامي آخر ، معاصر لأسامة وهو (ابن جبير ٥٣٩-٦١٤/١١٤٤-١٢١٧) :

(« وكل من وفقه الله بهذه الحيات من الغرباء الانفراد يلتزم، إن أحب، ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال ، وينشال الخبز عليه من أهل الضيعة ويلتزم الامامه أو التعليم أو ما شاء ، ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي فيلقى بها المرادين المنقطعين إلى الله ، عز وجل » ، فيقيم معهم ما شاء ، وينصرف إلى حيث شاء . » « ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ، ويقولون : هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل » فتجب مشاركتهم ... وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض . » « واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك . وتجار النصارى لا يمنع أحد منهم ولا يعترض . ولانصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم من الأمانة على غاية . وتجار النصارى يؤدون في بلاد المسلمين على مسلمهم ، والافتاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال ، وأهل الحرب يشتغلون بحربهم والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب . » « وخرجنا نحن إلى بلاد الافرنج وسببهم يدخل بلاد المسلمين ونأهيك عن هذا الاعتدال في السياسة . » « ورحلنا من

[تبنين] ، دمرها الله ، سحر يوم الاثنين ، وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلهم مسلمون . وهم مع الافرنج على حالة ترفيه ...» (١) .

وهذا فان العصر الذي عاش فيه أسامه إنما هو عصر الظلم الاقطاعي ، والاستغلال الوحشي للطبقة الكادحة ، عصر المنازعات الاقطاعية والحملات الصليبية . لقد لعب هذا كله دوراً ليس بالقليل في تكوين المجتمع الثقافي والسياسي والشعور الوطني والقومي ، ومفاهيم عدة كمفهوم «الوطن» ، «نحن» و «هم» ، «جيشنا» و «جيش أجنبي» و «أرضنا» و «أرض غريبة» ، و «شرق» و «غرب» . في هذه الظروف وفي هذا الجو والوسط نشأ أسامة وترعرع في هذا الواقع العاصف الذي أعطاه إمكانية التعرف على أنواع مختلفة من البشر ، وحدد أفاقه الواسع ، وتقممه وشمول نظراته التي لا تعتمد على معطيات مسبقة وأحكام ذاتية غير مستندة الى الواقع . بهذا الشمول وبهذه النظرة الواقعية الصحيحة تميزت جميع مؤلفاته .

أدب هذا العصر - عصر الحروب الصليبية - لم يدرس بالشكل الكافي وبصورة خاصة في سورية ومصر لأن اهتمامات البحاثة المعاصرين ، بما فيهم العرب ، كانت موجهة بشكل رئيسي للعصرين الاموي والعباسي ، [العصر الذهبي للادب العربي] .

١ - ابن جبير ، الرحلة ، ص : ٢٣٧ ، ٢٨٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ .

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الجزء الأول

حياة أسامة وآثاره الأدبية

٤٨٨ - ٥٨٤ / ١٠٩٥ - ١١٨٨

الفصل الأول

حياة أسامة بن منقذ :

أسامة بن منقذ فارس وقائد حربي ، رجل سياسة وحكم ،
شاعر وعالم عاش حياة طويلة مملوءة بالاحداث الثيرة ، وكان المسئل للطايقة
الاقطاعية الحاكمة في سورية . أثر في الوضع السياسي المعقد للشرق الأدنى
في القرن الثاني عشر ، هذا الوضع الذي حاولنا تحديد مميزاته في «المدخل».

عادة ، في حالات دراسة الحياة الخاصة للناس الذين عاشوا في
عصور قديمة تواجه الباحث صعوبة عدم كفاية مادة الدراسة ، لكننا مع
أسامة تقع على حالة جداً موفقة ومسيعة ، ذلك ان اسامة على مصدر
حياته كان قد شغل بال المؤلفات الأدبية ، وأخرج للوجود فكرتين موفقتين:
جمع في مؤلف واحد « في ديوانه » تقريباً جميع أشعاره ، وكتب - من
أجل إعطاء العظه للاجقين - كتاباً من تجربته الحياتية الخاصة . لقد
حفظ كلا الكتابين الى وقتنا الحالي واصدرا ، كما أنه يمكننا العثور في

مؤلفاته الأخرى على نبذ من حياته الخاصة ، إضافة إلى هذا فإن نشاطه السياسي والعسكري والحربي ، انعكس في السجلات التاريخية لذلك الوقت كما أن آثاره الأدبية لم تغفل من قبل الناقدين وواضعي المجموعات المختارات .

ولذا ، وبصورة أساسية ، بفضل هذه الأوضاع - (شهرة شخصيته ، وغزارة المادة) - كانت قد غدت مسيرة حياة أسامة في أيامنا مادة لمجموعة من الدراسات والبحوث .

لقد كان المستشرق الفرنسي الكبير (أواخر القرن التاسع عشر) هرتوفينغ درنبورغ الباحث الأساسي الأول لأسامة وآثاره الأدبية إذ قد طبع عدة أبحاث ومقالات ونبذ عن حياته . والأعمال اللاحقة عن أسامة - ترجمات بعض مؤلفاته إلى اللغات الأوروبية ، ومقالات ودراسات عنه قد اعتمدت كلها على أعمال درنبورغ . أما في الاتحاد السوفياتي فقد طبع المستشرق الكبير الأكاديمك كراتشكوفسكي إ . ي . أعمالاً قيمة جداً عن أسامة : مقدمة وخاتمة للترجمة الروسية ، لسيرة حياة أسامة « الاعتبار » ومقالة عن كتاب « المنازل والديار » وغيرها .

ولقد صدرت في البلاد العربية مجموعة من النبذ والمقالات عن أسامة إذ كان أول عمل عن شبرز وآل منقذ مقالة ط . النمساني ، التي قرئت في الجمع العلمي العربي بدمشق وطبعت في عام ١٩٢٩ حيث اعتمد النمساني على مصادر العصور الوسطى العربية فقط . ويفهم من هذا أنه لم يكن مطلعاً على أعمال درنبورغ (هذا ما يدل عليه فقدان الاقتباس والاستشهاد من مؤلفاته) .

ثم إن ف . حتي - العالم ذا المنشأ العربي قد اشتغل مع
مذكرات أسامة : ففي عام ١٩٢٩ ترجم كتاب « الاعتبار » إلى الانكليزية ،
وبعد عام ، في ١٩٣٠ ، وبالاقتدار على مخطوطة كتاب « الاعتبار » الموجودة
في الاوسكريال في اسبانيا أصدر مجدداً النص العربي للمخطوط . لقد
تعرض فيليب حتي في المقدمة لعمليه العالميين هذين للحياة العامة لأسامة ،
ولأمم الحوادث في حياته (المقدمتان بالمضمون متشابهتان) . وبعد عدة
سنوات بديء في الوطن العربي باصدار مؤلفات أسامة .

كان أ . شاكر أول من اصدر كتابه « لباب الآداب » في القاهرة
عام ١٩٣٥ . وفي عام ١٩٤٦ ، وفي القاهرة ظهرت دراسة ل : م . أ .
حسين عن حياة أسامة هذه الدراسة التي تحتوي على استشهادات من
أعمال درنبورغ ، لكن بالمقارنة معها تعطي شيئاً جديداً قليلاً . فيها بعد ،
عام ١٩٥٣ أيضاً في القاهرة أصدر أ . بدوي وح . عبدالمجيد « ديوان
أسامة » ، وبعد سبعة أعوام من هذا ، في ١٩٦٠ أصدر « كتاب
البديع » ، وفي المقدمة لهذه الاصدارات كان قد أعطي من قبل المؤلفين
مختصر عن حياة أسامة . وازافة إلى هذا فإن أ . بدوي في عام
١٩٥٤ في عمله « الحياة الادبية .. » و ع . م . بلشا في أطروحته
للدكتوراه « أدب الدول المتابعة » كانا قد خصصا مقالين منفصلين مختصرين
لاعطاء الصبغات العامة لحياة أسامة كشاعر من شعراء القرن الثاني عشر .
أما آخر الاعمال العلمية العربية عن أسامة فتعود إلى عام ١٩٦٨ . هذه
الاعمال تعيد المعلومات العامة المعروفة عن سير حياة أسامة في الدراسات
السابقة حتى انها لا تورد حقائق جديدة عن حياته - وكمثال على هذه

الاعمال يمكن الاشارة إلى عمل أ . زكي في « سلسلة أعلام العرب »
وأم . حجازي في مقدمته لكتاب « المنازل والديار » الذي قام بتحقيقه .
إن معظم هذه الاعمال مرتبطة بإصدارات مؤلفات أسامة ولهذا فانه يشار
إليها حكماً في نهاية هذا الفصل . ومن الطبيعي أنها جميعها قد دخلت
عندنا في الفهرست التابع لهذا العمل .

ان الاهتمام الاساسي في دراستنا موجه إلى نشوء وتطور الشاعر
الوطنية في الشعر العربي بالاعتماد على كتاب « المنازل والديار » لأسامة
بن منقذ ، وتبيان مستوى مفهوم الوطن عنده ، كما أننا نهتم بدراسة
أسامة الممثل للشعر والنثر [من خلال شعره ونثره] في أواخر النصف
الثاني من العصر العباسي .

سيرة حياة أسامة في عملنا ليست هدفاً وحيداً ، أو بحثاً مستقلاً
لكن تجاوزها - في رأينا - غير ممكن ولا وارد . ولهذا سنحاول
بشكل عام دراسة وتحليل حياة وآثار أسامة بجدة وحدائمه معتمدين من
أجل تحقيق هذا الهدف - لأول مرة بهذا الحجم - ديوانه ، وعدد من
المصادر القديمة التي لم تستعمل بشكل كافٍ . وفي طريقنا ، وفي طريقنا
وبعد تعرفنا على جميع الاعمال الادبية عن أسامة ، قد استطعنا ،
وبشكل دقيق مجدّد أن نجيب على عدد من الاسئلة التي بقيت طيلة المدة
السابقة بدون جواب ، وان نشير الى عدد من اخطاء الدارسين في أحكامهم
ونتائجهم ، وإلى العدد من المعلومات الخاطئة التي أوردوها ، وأن نكتشف
حقائق جديدة عن حياة أسامة . كما حاولنا جاهدين في دراستنا أن
نوضح علاقة أسامة بالوطن ، وتصوره عنه ، ومستوى مفهومه عنده .

أسامة ونسبه :

لقد سماوا أب أسامة ، مرشداً ، وجده ، علياً أما جده البعيد
فمنقذاً ، ولهذا فقد دعوا أسامة غالباً : أسامة بن منقذ ، وللتسهيل :
ابن منقذ . وكل عشيرته : بني منقذ ، أو المنقذيين . أما تسميته الكاملة
فهي أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الى انتهاء
نسبه الى كنانه [الكناني] ، وفيما بعد الى الجد الاساسي لجميع القبائل
العربية الجنوبية - الى قحطان ومنه الى الاب الاول - آدم^(١) . نسب
آل منقذ وبني كنانه (شجرة العائلة) توجد في المصادر المختلفة مع
اختلافات غير اساسية^(٢) لا نرى ضرورة للتطرق لها في دراستنا .

أشهر كنية لأسامة - أبو المظفر (ابن بهذا الاسم - على ما يبدو - لم يكن عنده)،
هذه الكنية موجود عند ياقوت وفي مصادر أخرى. ويوردون أيضاً - أبا الحارث^(٣)،

١ - عماد الدين الاصفهاني ، الجريدة ، طبعة درتبورغ > XIX

ص ٢

٢ - انظر مثلاً ياقوت . معجم الادباء . > II ص ١٧٣ - ١٧٤ ؛

ابن خلكان ، وفيات الاعيان . > III ص ٨٨ - ٨٩ ؛ ابن

الصابوني . تكملة . ص - ١٧٧ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ؛ الذهبي ، سير

أعلام النبلاء . ص ٩٠٢ . العاملي ، اعيان الشيعة > XI

ص ٧ - ٢٦ .

٣ - النيمي ، الدارس في تاريخ المدارس .

وأبا الفوارس (١) ، وأبا أسامة (٢) ، ومن ألقابه يذكر الذهبي وأبن أبي بوني :
« مؤيد الدولة » وياقوت : « مجد الدولة » وابن الجوزي (٥) : « مؤيد الدين » .
ف . حتي في « تاريخ بيروت » وجد لقب لأسامة « عز الدين » ، والذهبي
يدعوه « مجد الدين » أما ابن خالكان فيورد نسب أسامة - الكناني ،
الكبي والشيزري ، ولا بد من الإشارة الى ان هذه الانساب منفردة أو
مجتمعة يثر عليها في مصادر أخرى .

١ - احمد محمد شاكر ، مصدر كتاب « لباب الآداب » ، وجد هذه
الكنية على صفحة العنوان لكتاب أسامة « البديع في نقد الشعر » ،
الذي مستكلم عنه فيما بعد ، من الممكن انهم قد نسبوا له كنية
أبيه (انظر فيما بعد) .

٢ - هذه الكنية واردة عند ياقوت ، ربما خطأ ، حيث ليس من
عادات العرب الآن إعادة الكنية باسم ذات الشخص .

٣ - مرآة الزمان ص ٢٤١ .

- شيزر وبنو منقذ -

لقد ظهر بنو منقذ على الساحة التاريخية ، وسما مجدهم في فترة وجودهم القصيرة ، حتى إنهم تمكنوا أن يؤسسوا سلالة حاكمة متقلة لم تدم طويلا ، وذلك بسبب (تراجيديا) وفاتهم وفنائهم جميعاً في الكارثة المؤلة التي ألت بشيزر ودمرتها ولم تبق منها إلا آثارها وأطلالها ، التي لا تزال شاحخة تذكر بمجدها الغابر . ولقد كانت فترة سيادة بني منقذ في شيزر أشهر مرحلة من مراحل حياتها وتاريخها ، ولاعجب بعد ذلك أن تقرن شيزر ببني منقذ وأن يقرنوا هم بها ، حيث كان لشيزر وبني منقذ الدور البارز في تاريخ البلد ومواطنيه في هذه الحقبة العvisية من حقب صراع الغرب والشرق .

وبحق ٦ يعدون شيزر من مدن سورية القديمة . إنها تذكر في النصوص المصرية القديمة باسم «سنزار» و «سنزارا» وسماها الاغريق «سنزارا» أما البيزنطيون «فيزار» . ويصادفنا اسم المدينة في صيغة «شيزر» في أشعار الشعراء العرب الجاهليين مثلاً في أشعار امرئ القيس ، وعبيد الله بن قيس

الرفيات (١) ، أما المؤلفون اللاتينيون فقد خلطوا بين «شيزر» و «تسيزريا»
وسماها مؤرخو الحملات الصليبية « تسيزاريا » أو « قيصرية » حيث من
هذه التسمية الاخيرة تشتق التسمية العربية الثانية « قيصرية » (٢) .

١ - يا قوت ، معجم البلدان . ح ١١١ ص ٣٥٣ (ليزينغ) (١٩٦٨) .
قال امرؤ القيس :

تقطع أسباب اللبانه والهوى	عشية جاورنا حماة وشيزرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه	وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما	تحاول ملكاً أو تموت فتعذرا

وقال ابن قيس الرقيات :

قفوا وانظروا بي نحو قومي نظرة	فلم يقف الحادي بنا وتغشمرا
فوا حزنا إذ فارقونا وجاوروا	سوى قومهم أعلى حماة وشيزرا
بلاد تعول الناس لم يولدوا بها	وقد غنيت منها معاناً ومحضراً

٢ - درنبورغ وزكي أحمد ومصطفى حجازي يرون أن الآثار الباقية
من حصن شيزر مشهورة تحت تسمية « ميجر » ، لكن في عام
١٩٧١ بزيارة المدينة وبقايا الحصن تأكدت من أنها تسمى «شيزر»
وقد عاودت الزيارة في عامي ١٩٧٣ ، ١٩٧٥ .

تعد شيزر بين الحصون المبنية على ضفاف نهر (أورنت) ،
(الأرند) أي العاصي ذلك النهر الذي ينبع من جبال بعلبك في لبنان
ويتابع مسيره شرقاً ثم شمالاً في الاراضي السورية ماراً بعلبك وحصن
وحماه وشيزر والمضيق وأقاميا^(١) . تقع شيزر إلى الشمال الغربي من حماه
على بعد ٢٨ كم على تلة مطلة على الشاطئ الجنوبي الغربي لنهر العاصي
حيث يسير النهر هنا من الشرق الى الغرب . التلة الصخرية مع القلعة
(الحصن) المحيطان بالنهر من ثلاث جهات يذكران بشبه جزيرة متصلة
من الجهة الشمالية - حيث تقع الطريق المؤدية من حماه إلى أقاميا - بجسر
حجري متين وطيد . الحصن على أعلى التلة يشبه « عرف الديك » وعند
عدد من المؤرخين العرب هذا التشبيه استعمال مكان التسمية^(٢) .

لقد كان حصن شيزر في تلك الاثناء صعب المنال . حسب قول
أحد آل منقذ : « نظرت الى هذا الحصن فرأيت أنه يتسع لثلاثة آلاف
رجل بالاهل والمال ويمكن ان تمسكه خمس نسو » .

لقد تألفت شيزر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من الحصن
الخاص أو « القلعة » يتصل به « البلد » ومن مدينة « الجسر » على
ضفة النهر .

كان للقلعة ثلاث بوابات : شمالية ، تقود إلى الجسر ، وغربية كان

١ - مصطفى حجازي (ص ٣٢) خطأ عد أقاميا والمضيق حصناً واحداً .

٢ - محمد الدمشقي ، النص العربي ، ص (٢٠٥) ، الترجمة الفرنسية ،

ص (٢٧٩) .

استعملها اكثر وذلك لانها تتوجه الى المدينة ، وبوابة متصلة بالدهليز تحت الارض الذي يقود إلى النهر حيث بواسطتها كان السكان يجلبون ماء الشرب ، وفي بعض الاحيان استعملت في الاوقات الحربية والصدام كما يخبر عن ذلك أسامة (١) .

الارض المجاورة لشيزر ، والمتصلة بها ، خصبة ، صالحة للاعمال الزراعية ، ولعمل السكان ، وقد أعطت انتاجاً من الحبوب والفواكه أمن للمدينة حياة اقتصادية مستقلة ، وانتشر عليها عدد من المناطق السكنية والقرى ، من بينها : كفر نبوذا ، وبندرقنـين في الشمال ، ومعرزف في الجنوب .

لقد كان دور شيزر في القرون الثلاثة الاولى - على ما يبدو - قليل الاهمية لانها تذكر في المصادر العربية بشكل نادر جداً . أما في

١ - أسامة ، الاعتبار ، اصدار درنورغ . ص ٦٨ - ٦٩ ؛ الترجمة الروسية ص ١٦١ ؛ اصدار حتي ص ٩١ . قال أسامة : « شاهدت من لطف الله تعالى وحسن دفاعه أن الافرنج ، لعنهم الله ، زلوا علينا بالفارس والراجل ، وبيننا وبينهم العاصي وهو زائد زيادة عظيمة لا يمكنهم ان يجوزوا إلينا ولا نقدر نحن نجوز إليهم ، فنزلوا على الجبل بخيامهم ونزل منهم قوم إلى البساتين ، وهي من جانبهم فتجرد شباب من رجالة شيزر وخلصوا ثيابهم وأخذوا سيوفهم وسبحوا إلى أولئك النيام فقتلوا بعضهم ، وتكاثروا على أصحابنا فرموا نفوسهم الى الماء وجازوا .. » .

الرابع الهجري / العاشر الميلادي فقد كانت منطقة شيزر مسرحاً للصدامات المستمرة بين الحمانيين والبيزنطيين ، وأيضاً الفاطميين ، وذلك بسبب أهمية موقعها الجغرافي الاستراتيجي ، إذ كانت شيزر مفتاحاً إلى قلب سورية ، وكان حكمها سجالاً بين العرب والبيزنطيين إلى أن استولى عليها الامبراطور قاسيلي الثاني في ٣٩٠ / ٩٩٩ ، فبقيت تحت سلطة بيزنطة إلى عام ٤٧٤ / ١٠٨١ .

لقد استولى بنو منقذ على شيزر في عام ٤٧٤ / ١٠٨١ وأسسوا فيها إمارة مستقلة امتد نفوذها لعام ٥٥٢ / ١١٥٧ ، وتمكنوا من المحافظة على امتلاك المدينة بغض النظر عن أن جيرانهم الاقوياء : الحكام المسلمين ، والفرنجة كانوا يحاولون باستمرار الاستيلاء عليها وضمها إلى ملكيتهم . وقام بنو منقذ في مدة حكمهم بجموعة من التحصينات الدفاعية حول شيزر . وهكذا - حتى قبل استيلائهم على المدينة - كانوا قد بنوا بوابة حصينة على الضفة الغربية للماضي مقابل جسر شيزر ، وسميت « بحصن شيزر » . والجسر بذاته دعي فيما بعد « جسر بني منقذ » رغم أنه - ربما - كان فقط مدعماً ومصلحاً في أيامهم . كما أقيمت التدديمات أيضاً من جهة المدينة وعلى موازاة الجسر ؛ ومن الخلف ، من جهة القلعة ، في الجنوب الغربي كان قد حفر خندق في الصخر للدفاع عن شيزر . وعلى ما يبدو فإن « مدينة الجسر » كانت قد بنيت بشكل كامل في أيام بني منقذ (١).

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، ص ١٠٩ ، إصدار حتي ، ص ١٢٩ : « ومن إقدام النساء أن جماعة من الافرنج الحجاج حجوا وعادوا إلى ريفية وكانت ذلك الوقت لهم . وخرجوا منها يريدون أفامية . فتأهوا في الليل وجاءوا إلى شيزر وهي إذ ذاك بغير سور » .

المصادر تصمت ولا تعطي شيئاً من المعلومات عن البناء ضمن البلد والحصن ، لكن ماكس برشم - فقط - كتب عن الآثار الإسلامية (الارخيتكتورا) في شيزر (١) . ولذا يمكن الافتراض بأن هذه الآثار عائدة الى أيام بني منقذ .

في عام ١١٥٧/٥٥٢ كانت شيزر قد تهدمت من الزلازل التي اصابته القسم الشمالي من سورية . ورغم ان نور الدين الزنكي حاول اعادة بنائها في نفس العام لكن المدينة لم تنهض ثانية . إذ إننا لا نجد الآن منها إلا خراباتها الباقية فقط . وفي عام ١٩٢٩ وجد طاهر النعساني نقوداً وكتابات عربية على أحد جدران القلعة (٢) ، ووصفها هكذا :

« كانت في عهد بني منقذ عامرة بقطانها ومحصولاتها الزراعية وفواكهها الطيبة ، يخرج منها خمسة آلاف مقاتل ، وهي اليوم لا يكاد يوجد فيها خمسون مزارعاً ، موبوءة ، أمراضها فتاكه يضرب بها المثل لهوائها الفاسد فيقال : « أوخم من شيزر » ، ويقال : « تفعل كذا ، وتنال كذا ، وتقول شيزر وخمة » (٣) .

أما في عام ١٩٧١ فقد بدت لنا شيزر هكذا : الحصن القديم (القلعة) حيث لا يعيش هناك احد (يمكن رؤية مشهده في الصورة رقم ١) ، في القسم السفلي الغربي من القلعة ، وعلى الطريق السائرة من حماه الى أفلamia تقع قرية حديثة متصلة بسهل فسيح أصبح من أخصب

١ - N. Elisseeff , Nur ad — Din , P. 223 — 224 .

٢ - في عام ١٩٧١ لم أتمكن من العثور على هذه الكتابات .

٣ - النعساني ، أسامة ، ص ٧ .

المناطق الزراعية المنتجة في سورية ، وذلك بعد تجفيف مستنقع الغاب الذي كان بؤرة الامراض والاوبئة ، وفي هذه القرية مدرسة ابتدائية يبنائها الحديث .

بعد عام ١٩٥٨ طبق هناك الاصلاح الزراعي فأتمت الاراضي التابعة لآل الكيلاني ووزعت على الفلاحين . أما وراء القلعة ، وعلى بعد قليل ، على نهر العاصي ، فيقع سد محردة الذي يمتلك أهمية اقتصادية كبيرة ، حيث يروي معظم سهل الغاب المجفف .



امتهرك آل منقذ شيزر

إن المصادر تعطينا روايتين عن امتلاك آل منقذ شيزر ، وللنظرة الأولى تبدو أن متناقضتين . الرواية الأولى أساسها ابن الأنسير ثم اعتمد عليه فيها مؤرخون آخرون (١) وتفيد أن القائد العربي صالح ابن مرداس (٢) الذين استولى على المنطقة بين حلب وعانة قام باقطاع شيزر إلى آل منقذ .

أما الرواية الثانية فترجع في الأصل إلى ابن خلكان الذي يخبر بأن شيزر كانت مأخوذة بالقوة في عام ١٠٨١ وذلك بفضل الرجال الجليليين الاقوياء من بني منقذ الذي حاصروها لمدة طويلة .

والواقع نرى بأن الروايتين متفقتان ، إذ ربما استلم آل منقذ إقطاعهم من ابن مرداس اسمياً ، أما بشكل فعلي فقد كان مع البيزنطيين ، أو منطقة مختلفاً عليها ، ولا بد من الحرب لامتلاكها .

١ - أبو شامة ، I ، ص ١١١

٢ - مؤسس السلالة المرداسية التي انتقلت في بداية القرن الحادي عشر من منطقة الحلة في العراق إلى حلب وشمال سورية ، وقرى كرت هناك من ١٠٢٣/٤١٤ إلى ١٠٧٩/٤٧٢ .

عن المنقذي الاول المشهور تاريخياً - جد جد أسامة - مقلد بن نصر
ابن منقذ يكتب ابن خلسكان ما يلي : « كان رجلاً نبيل القدر ، سائر
الذكر ، رزق السعادة في بنيه وحفدته وكان ينزل في جماعة كبيرة من
مَنْ أَهْل بَيْتِهِ مَقِيمِينَ بِالْقُرْبِ مِنْ قَلْعَةِ شِيزَر ، عِنْدَ جِسْرِ بَنِي مَنْقَذٍ
الْمُنْسُوبِ إِلَيْهِمْ ، وَكَانُوا يَتَرَدَّدُونَ إِلَى حِمَاهِ وَحَلَبٍ وَتِلْكَ النُّوَاحِي ، وَلَهُمْ
بِهَا الدُّورُ النَّفِيسَةُ وَالْأَمْلاكُ الثَّمَنَةُ . وَذَلِكَ كُلُّهُ قَبْلَ أَنْ يَمْلِكُوا قَلْعَةَ شِيزَر .
وَكَانَ مَلُوكُ الشَّامِ بِكُرْمُونِهِمْ وَيَجْلُونَ أَقْدَارَهُمْ ، وَشُعْرَاءُ عَصَرِهِمْ يَقْصِدُونَهُمْ ،
وَيَعِدُّونَهُمْ وَكَانَ فِيهِمْ جَمَاعَةٌ أَعْيَانُ رُؤَسَاءِ أَجْلَاءِ (١) .

لقد كان مقلد زعيم بني منقذ عندما استلموا الاقطاع من المرداسي
الحلي ، ذلك الاقطاع الذي لم تكن مساحته محددة وحدوده معروفة
- على ما يبدو - منذ البداية . وفي نهاية عام ١٠٤١ نجد ان مقلدا قد
وسع سلطته حتى على كفر طاب (القرية الجميلة) الى الشهاب من شيزر
- وربما في عهده قد بني حصن الجسر - رغم ان خلفه أكد بانه هو
الذي بناه (٢) . ويصف أسامة جد جده هذا بانه تمتع بنفوذ كبير في
حلب ، وخدم عنده الطبيب الشهير ابن بطلان ورجف امامه خوفاً

١ - ابن خلسكان ، وفيات الاعيان . ج II ، ص ١٧٣ - ١٧٦ ؛
و ج I ، ص ٥٢٣ - ٥٢٤ .

٢ - انظر فيما بعد .

لقد ملك مقلد المنطفة الواقعة على طرفي العاصي من كفر طاب إلى شيزر ، لكنه لم يتمكن حتى نهاية حياته (مات في عام ١٠٥٨/٤٥٠) من التمرکز في شيزر ذاتها . كما لم يتمكن من ذلك أيضاً ابنه ووريثه علي إلا في أواخر أيام حكمه وحياته . وكان مقلد هذا مخلصاً قوياً سمى جاهدأ للاستقلال السياسي ، وناور بدهاء مع المرديسين والفاطميین (٢)

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دزنبورغ ، النص العربي ، ص ١٣٦ ؛ إصدار حتي ، ص ١٨٤ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٢٧٧ .

قال أسامة : « وكان ابن بطلان ملازماً لخدمة جدي الأكبر أبي المتوج مقلد بن نصر بن منقذ فظهر في جدي أبي الحسن علي بن مقلد بن منقذ - رحمه الله - ، وضع وهو صبي . فأقلق ذلك أباه وأشفق عليه من البرص . فأحضر ابن بطلان وقال له : « ابصر ما قد ظهر في جسم علي » فنظره وقال : « اريد خمسمائة دينار حتى أدأويه وأذهب هذا عنه » فقال له جدي : « لو كنت دأويت علياً ما كنت رضية لك بخمسمائة دينار » . فلما رأى الغضب من جدي قال : « يامولاي ! أنا خادمك وعبدك وفي فضلك . ما قلت ما قلته إلا على سبيل المزح وهذا الذي بعلي بهق الشباب وإذا أدرك زال عنه » .

٢ - لقب « مخلص الدولة » تلقاه من الخليفة الفاطمي كتقدير لمواقفه إلى جانب الجيش الفاطمي في سورية .

في نضالهم لامتلاك سورية . فيه قال الشعراء شعرهم . فابن خلدكان يورد
مرثية ابن أبي حصين التي ألفها في موت مخلص الدولة - مقلد . ثم لا بد
من ذكر اسم الشاعر ابن مننان الخفاجي في عداد الشعراء الذين مدحوه ،
كما أنه قال مرثية في موته وموت أخيه أبي المغيث منقذ بن نصر (مات
عام ٤٣٩/١٠٤٧) .

أما خلفه علي بن مقلد والذي لقب « سيد الملك » فقد تابع
سياسة أبيه إلى أن تمكن في النهاية من امتلاك شيزر والسيطرة عليها .
ولهذا يجب الاعتراف بأنه المؤسس الأساسي لامارة شيزر المستقلة ، ولحكم
سلالة بني منقذ . هذا هو حديثه الشخصي عن حوادث عام ١٠٨١ كما
أورده ابن خلدكان :

« شيزر حماها الله تعالى وقد رزقني عز وجل » من الامتلاء
على هذا المعقل العظيم ما لم يأت الخلق في هذا الزمان . نظرت الى هذا
الحصن فرأيت أنه يتسع لثلاثة آلاف رجل بالأهل والمال ويمسكه خمس
نسوة ، فعمدت الى تل بينه وبين حصن الروم ويعرف بالخراس وأخذته
بالسيف من الروم ومع ذلك فلما أخذت من به من الروم أحسنت اليهم
وأكرمهم ولم أكلفهم الى ما يعجزون عنه وخلطت خنازيرهم بغنمي ،
ونواقيسهم بأصوات الآذان . فرأى أهل شيزر فعلي فأنسوا بي ووصل إلي
قريب نصفهم فبالفت في إكرامهم ووصل اليهم مسلم بن قريش فقتل من
أهل شيزر ، نحو عشرين رجلاً فلما انصرف مسلم عنه سلموا الحصن
إلي » .

أما ابن القلانيسي فيكرر إيراد هذا الحديث ذاته مع بعض العبارات

المغايرة ويضيف في النهاية كلام سديد الملك : «وحضرت فيه ومعى سبعائة رجل من بني عمي ورجالي وأعطيتهم مالا له قدره وقمت باعيادهم ونواقيسهم وصلواتهم وخنازيرهم وسمع بذلك أهل برزية وعين تاب فجاءني رسلهم ورغب كلهم في الضم إلي» (١) .

بهذا الشكل ، في نضال مرير حاد مع البيزنطيين وقواد حلب العسكريين أخذ سديد الملك شيزر مستعملاً الحرب والسياسة ، وتصالح مع أهلها ، وحصل بفضل هداياه المرسلة إلى حلب على اعتراف حكام حلب بامارته في شيزر بعد أن فكوا حصارهم عنها في ٢٨ صفر ١٠٨٢/٥٧٥ . وانشغل طيلة فترة حكمه في نهاية ذلك العام بتنظيم أمور الإمارة التي ضمت وقتها أفاميا ، كفر طاب واللاذقية ..

لقد كان سديد الملك داهية فظناً ، حاد الذكاء ، كما كان أيضاً شاعراً حتى ان ابن خلكان قد أورد في كتابه أحسن بيتين شعريين له (٢) ، وكذلك فانه يمكن العثور على سيرة حياته ومختارات من شعره في خريدة القصر (٣) .

١ - ابن القلانيسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣ .

٢ - ابن خلكان ، ص I ، ص ٥٢٤ .

٣ - الخريدة ، ص I ، ص ٥٥٢ - ٥٥٧

ان اشعاره الخاصة (١) وبعض المصادر (٢) تصف سديد الملك بأنه شخص هادئ صبور ، مترو ، حازم ، ثابت ، وطيد عندما تتعالب الظروف ذلك ، ورجل سياسي ، ذكي ، لطيف ، مقدر للظروف عندما يجب ذلك (٣). وبلغ تلك المرتبة من الجهد والعزة بفضل معرفته وذكائه الحي ؛ وبهذا كان موصوفاً من قبل العديد من الشعراء ، كأبن الخياط (٤) وابن الخفاجي (٥) .

١ - المنازل . ص ٢٣٩ . قال جدي سديد الملك ذو المناقب :

ولست بحيار العزيرة إن جرت عليه رياح الخطب وهي زعازع
يكر على الاوطان طرفاً موزعاً يلين لها طوراً وطوراً يمانع

٢ - انظر مثلاً ، ياقوت ، معجم الأدباء . ج II ، ص ١٨٧ ؛ وابن خلكان . ج I ، ص ٥٢٣ - ٥٢٤

٣ - انظر رقم (٢)

٤ - أبو عبدالله بن محمد بن علي بن يحيى الثعالبي ، المشهور بابن الخياط الدمشقي الكاتب ، شاعر مشهور توفي في دمشق ، عام ٥١٧ هـ .

٥ - الأمير أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن يحيى الخفاجي ، الذي عينه محمود بن مرداس حاكماً على حصن اعزاز وسمه بقطعة خبز بدون ذنب (٥٤٦٦ هـ) لقد تبادل الراملات الشعرية مع علي بن منقذ .

« لم يعرف أسامة جده علي بن مقلد في حياته ، لكنه شمر بانه مرتبط معه برابط روحي داخلي . لقد كانت عند الحفيد تماماً تلك الروح الحية المضطربة ، بآمال ، وتطلعات متنوعة ، وبحب كبير للشعر والأدب (١) .

خلف شديد ألك في حكم شيزر كان ابنه عز الدولة أبوالمهرف نصر ، الذي استطاع باخلاص وحب للسلام أن يحفظ استقلالها في حماة الهزات العنيفة ، والاحداث العاصفة ، والزاعات الاقطاعية المتتالية التي اجتاحت سورية وقتها . وبسبب الاوضاع العصيبة التي وقعت بها سورية كان مضطراً ان يتنازل عن اللاذقية وأقامية وكفر طاب « الى ملك شاه السلاجوقي ، مبتاعاً بذلك سلاماً مؤقتاً . ولما لم يكن عنده وريث من صلبه (ابن) ، كان لا بد من أن يخلفه أخوه مجد الدين أبو سلامة مرشد - أب أسامة (٤٦٠ - ٥٣١ / ١٠٦٨ - ١١٣٧) ، لكنه امتنع عن تسلّم السلطة ، وخلفها إلى أخيه الأصغر - « سلطان » قائلاً : « والله لا وليتها ، ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها » (٢) .

لقد كان والد أسامة ، كما تروي ذلك المصادر ، (٣) تقياً ورعاً ،

١ - Derenbourg, H. Le vie de Ousama, p. 16.

٢ - أبو شامة . I ، ص ١١١

٣ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، ص ١٣٩ وغيرها ، وياقوت معجم الأدباء ، II ، ص ١٩٠ .

لم يرد أن يغير طريقة حياته وعاداته ، فابتعد عن تبعات الرئاسة وأعباء الحكم . خير وصف لحياته قول أسامة : « فأما ما كان بشير [من أخبار الصيد . و . ط] فكان مع الوالد ، رحمه الله . وكان مشغولاً بالصيد لهجاً به وبجميع الجوارح ، وما يستكثر ما يغرمه عليه لفرحته . فانه كان زهته . فليس له شغل سوى الحرب وجهاد الافرنج ونسخ كتاب الله عز وجل عند فراغه من أشغال أصحابه . وهو ، رحمه الله ، صائم الدهر مواظب على تلاوة القرآن . فكان الصيد كما جاء في الخبر « روحوا القلوب تعي الذكر » . فما رأيت قط مثل صيده وتربيته » (١) ويذكر السمعاني أنه رأى مصحفاً بخط والد أسامة كتبه بماء الذهب على الطاق الصوري (٢) ، ويقول عنه ما يلي : « مارأيت ولا أظن أن الرائي رأوا مثله ، فقد جمع إلى فضائله حسن خطه ، وتقدم بحسن تديره على رهطه » (٣) . فليس من العجب ، والحال هذه مع والد أسامة بصفاته وطبيعته ، أن يمتنع عن الامارة ، ويسلمها الى أخيه الاصغر « سلطان » . ويشير أسامة في مذكراته الى شجاعة والده وصلابته وهدوء أعصابه

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبرغ ، النص العربي ، ص ١٣٩ ؛

إصدارحتي ، ص ١٩٢ ؛ الترجمة الروسية ص . ٢٨٤ .

٢ - بمعنى أنه محضر بصور .

٣ - نقل ياقوت عن السمعاني هذه العبارة في معجم الأدباء : > I ،

ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ، في تعريفه بوالد أسامة . [طبعة

دار المأمون ، ١٩٣٦] . أو معجم الأدباء . > II ، ص ١٩٠

(الطبعة المعتمدة من قبلنا) .

وصبره في المارك حيث يقول : « وكان الوالد رحمه الله كثير المباشرة للحرب وفي بدنه جراح هائلة . ومات على فراشه » (١) .

« وكانا [عمه ووالده ، و . ط] ، رحمهما الله من أشجع قومها » (٢) .

لقد كان قوي الجسم ، عتيداً ، يتحمل الألم تحمل الفارس المقاتل : « فظمن ، رحمه الله ، في ذلك اليوم فارساً وأحرف حصانه وثني يده برحمه وجذبه من المطعون . فحدثني قال : « حسست شيئاً قد لدغ زندي ، فظننته من حرارة الجوشن . إلا أن رمحي سقط من يدي ، فردتها فإذا قد طمنت في يدي ، وقد استرخت لقطع شيء من الاعصاب ... » فحضرته ، رحمه الله ، وزيد الجرائحي يداوي جرحه ، وعلى رأسه غلام واقف : فقال : « يا زيدا اخرج هذه الحصاة من الجراح » . فلما كمله الجرائحي . فعاد فقال : « يا زيد إما تبصر هذه الحصاة ؟ ومازيلها من الجرح ؟! » فلما أضجره قال : « أين الحصاة ؟ هذا رأس عصب قد انقطع » وكان بالحقيقة أبيض كأنه حصاة من حصا الفرات » (٣)

-
- ١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٣٨ ؛ إصدار حتي : ص ٥١ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٤ .
 - ١ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، النص العربي . ص ٤١ ؛ إصدار حتي ، ص ٥٥ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٨ .
 - ٣ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٣٩ ؛ حتي ، ص ٥٢ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٥ .

ورغم أن مرشد قد امتنع عن الامارة ، إلا أنه طوال حياته كان الساعد الأمين لأخيه سلطان ، آزره في تسيير أمورها في ذلك الوقت العصيب ، حيث تواتت على شيزر الهجرات الدورية لقبيلة « كلاب » بحلب ، والحشاشين ، والبيزنطيين ، والافرنج . وإضافة الى حذقه ومهارته كان طيب القلب^(١) ، وعلاوة على كل هذا كان عرافاً بالتنجيم والفلك^(٢) . قدم اليه الشعراء من انحاء عدة ليقولوا الشعر في عزه وكرامته ، مفتخرين به ومادحينه . وكان نفسه شاعراً^(٣) ، عبر في شعره عن عاطفته الأبوية

١ - مثلاً : رعى أسرة أحد من قتلهم في لحظة غضب (الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، ص ٨٦) .

٢ - انظر : الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٤١ ؛ إصدار حتي ، ص ٥٦ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٠٩ .
« وكان ، [أب أسامة . و . ط] ، رحمه الله ، له اليد الطولى في النجوم مع ورعه ودينه وصومه الدهر وتلاوة القرآن . وكان يحرضني على معرفة علم النجوم فأبى وامتنع . فيقول : « فاعرف اسماء النجوم : ما يطلع منها ويغرب » . فكان يريني النجوم ويعرفني اسماءها » .

٣ - معجم الادباء ، I ، ص ٢٢٨ - ٢٣٠ : المنازل ، ص ٣٦ .
انظر نموذجاً من شعره . يقول أسامة : قال والدي مرشد :

تجاه أبنائه ، وبخاصة تجاه أسامة . توفي يوم السبت ، رمضان ٥٥٣١ هـ^(١) وبعد وفاته غادر ابناؤه شيزر حسب مشيئة عمهم أبي المساكر سلطان ، ولم يعد معظمهم بعد ذلك إليها .

لقد استلم عز الدين أبو المساكر سلطان إمارة شيزر من عام ١٠٩٨/٥٤٢ الى عام ١١٥٤/٥٤٩ ، وكان رجلاً شجاعاً ، سياسياً ومحارباً عنيفاً ، إذ إن شيزر قد تعرضت في عهده للهجمات الحربية العنيفة كما من جانب اليعزنيين ، كذلك من جانب الصليبيين ، لكن شجاعته ، ودعم جميع بني منقذ له من جهة ، وحذاقته وسياسته من جهة ثانية ، كل هذا ساعده على الدفاع عن شيزر ، وحفظها كامارة مستقلة . لقد كانت علاقاته مع أخيه مرشد وأولاده ، وبصوره خاصة مع أسامة ، جيدة ، حيث كان يرى في أسامة أمير شيزر المقبل . لكن ما أن رزق ولد ذكر حتى تغيرت جميع علاقاته مع أخيه وأولاده ومع أسامة خاصة ، الذي جلبت له نجاحاته وانتصاراته الشهرة والمجد ، وجعلت منه المنافس الاول

→

ظلوم أبت في الظلم إلا التهاديا	وفي الصد والهجران إلا تناهيا
وقلت: أخي يرعى بني وأسرتي	ويحفظ فيهم عهدتي وزماني
فمالك لما أن حنا الدهر صعدتي	ونلم مني صارماً كان ماضياً
تسكرت حتى صار برك قسوة	وقربك منهم جفوة وتناسيا

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٣٩ .

والجدي لأولاد عمه ، والمهدد الوحيد لمستقبلهم .

وكان عز الدين محارباً خبيراً ، تتمتع بالمعرفة والمهارة والروية في حل الامور . يحدثنا أسامة في اعتباره عن حادثة اكتشف فيها عز الدين خبث العدو الحربي ، ونجا من الكمين المدبر له (١) .

أما أيام حكمه في شيزر فتمتبر الفترة الذهبية في تاريخها . ونفسه افتخر بأنه لم يوفر شيئاً من أجل شيزر والدفاع عنها ضد الروم ، والافرنج ، والترك ، والبداءة . ودافع عنها بكلمته ، وبكل شجاعة بسيفه . أما في الفترة الاخيرة من حياته فأخذ يهتم بمصير أبنائه الذين

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٤٢ ؛

حتي ، ص ٥٦، ٥٧ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١١٠

قال أسامة : « رأينا سرية من الافرنج ... جاءوا الى باب المدينة قبل أن يفتح . فقالوا للبواب « أي شيء اسم هذا البلد ؟ » ... قال : « شيزر » . فرموا بنشاب من خلل الباب ورجعوا وخيلهم تحب بهم . فركبنا فكان عمي ، رحمه الله ، أول راكب وأنا معه ... فقلت لعمي : « على أمرك آخذ أصحابنا وأتبعهم وأقلعهم وهم غير بعيدين » . قال : « لا » ، (وكان أخبرني بالحرب) في الشام افرنجي لا يعرف شيزر !! هذه مكيدة ... ودعا فارسين من الجند على فرسين سوابق وقال : امضيا اكشفا تل ملح ، وكان مكمناً للافرنج . فلما شارفاه خرج عليها عسكر انطاكية جميعه !! .

قلق على مستقبلهم ، وخاف عليهم من تجارب الحياة . وكل هذه الصعاب التي قاساها وعاناها في سبيل حفظ السلطة في الامارة ظهرت عنه بتعبيرات شعرية ، حيث قال القصائد في هذا ، وهذا ما يثبت قدرته الشعرية ، وعبقريته الادبيه كفرد من آل منقذ^(١) .

توفي أبو العساكر عام ٥٤٩ / ١١٥٤ ، فخلفه ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد - آخر حكام شيزر من بني منقذ ، حيث في أيام

١ - ابن الأثير ، الكامل . > XI ؛ ص ١٤٥،٢٧ ، هذا ماتؤكده قصيدته التي اخترنا منها ما يلي :

قال عز الدين أبو العساكر سلطان :

أبني لست بعالم ما أصنع بكم أأجمع شملكم أم أصدع
مناطق الارحام جاهلكم بما أبداه بل كبدي بذاك تقطع
أصبحت أعمى بل أصم بكل ما أمسيت أنظر منكم أو أسمع
وأبوكم من ليس ينكر أنه النذب الكمي الألمي الأروع

ذاد الجيوش برأيه وبسيفه عن شيزر فتمزقوا وتصدعوا
قد رد عنها الروم والافرنج والأتراك والأعراب حين تجمعوا

ولايته حدثت الزلازل المدمرة التي دمرت فيما دمرته شيزر فخلّيت وأوحشت وأقفرت بعدها.

نعث في المصادر الادبية والتاريخية على ذكر عدد آخر من رجالات بني منقذ ، الذين عاشوا في بعد عن شيزر ، لكنهم كانوا - أينا وجدوا - من القواد والحكام ، وتركوا آثاراً جيدة وذكرنا حسناً (١) .

فعضد الدولة أبو الفوارس مرهف أحد أبناء أسامة ، بقي على قيد الحياة لفترة متأخرة ، وعاش في مصر أميراً « في أيام حكم الأيوبيين ، وكان مقرباً من صلاح الدين وساعده الايمن حتى « صار جليسه ، ونديه ، وأنيسه » (٢) . التقى به ياقوت عام ٦١٢ / ١٢١٥ حيث كان له من العمر ما يقارب ٩٠ عاماً ، وكان مقعداً لا يقوى على المشي . يصفه ياقوت بأنه شيخ هرم صبور لحد كبير ، جماعة للكتب .

١ - انظر زامباور ، معجم الانساب . > I ، ص ١٠٥ .
(القاهرة - ١٩٥١) ؛ وابن خلكان . > I ص ٥٢٣ -
٥٢٤ ؛ > II ، ص ١٧٣ - ١٧٤ ؛ معجم الادباء ، > II ،
ص ١٩٣ - ١٩٤ .

٢ - ياقوت ، معجم الادباء . > II ، ص ١٧٥ .

ولد أبو الفوارس في عام ٥٢٠ / ١١٢٦ وتوفي ١٢١٦/٦١٣ .
يمكننا القول بشكل عام : أن بني منقذ جميعاً كانوا من السادة
الاجواد ، والفرسان الشجعان والشعراء المباقرة . كان الشعر فيهم سليقة
عند الرجال كما عند النساء .

★ ★ ★

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

أسماء بن منقذ

أيام طفولته وصباه

ولد أسامة يوم الاحد في ٢٧ جمادى الآخرة لسنة ٤٨٨ / ٣ تموز
 عام ١٠٩٥ في شيزر . ساعة ميلاده تبقى على الدوام بالنسبة له الامـل
 البارق ، والبضوء السعيد في حياته ، رغم أنه منذ ميلاده بدأ يقاسي ،
 ويتعذب ، فكانت صفيحة حياته - حسب تعبيره - قناعاً قائماً من الهموم
 والمتاعب تسطع في وسطها ساعة ميلاده براقة مضيئة (١) . ومن الواضح
 بكان أن ولادته كانت مرغوبة ، تلقاها أهله بالفرحة والبهجة ، وعاش
 طفولته بسعادة وفرح . ترعرع وربى في أسرة يسيطر عليها نظام الابوة
 بشكل زائد ، محاطاً برعاية وعناية الاهل والاقرباء والخدم . مربيته
 كانت « لؤلؤة » ، التي خدمت عند جده ، وربت كذلك أباه . د كان
 لجدي سديد الملك أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، رحمه
 الله ، جارية يقال لها لؤلؤة ربت والدي مجد الدين أبا سلامة
 مرشد بن علي ، رحمه الله ، فلما كبر وانتقل عن دار والده انتقلت
 معه . فرزقني فربتي تلك العجوز الى ان كبرت وتزوجت وانتقلت من

١ - أسامة الديوان ، ص ٣٤٧ ، الخريدة ، ص ١٢٤ . قال أسامة
 وهو في سن الاربعين :

قالوا نهته الاربعون عن الصبا	وأخو المشيب يحجور ثمّيتهم تدي
كم ضل في ليل الشباب فدلّه	وضيح المشيب على الطريق الاقصد
وإذا عددت سنيّ ثمّ نقصتها	زمن الهموم فتلك ساعة مولدي

دار والدي ، رحمه الله ، فانتقلت معي . ورزقت الاولاد فربتهم — م .
وكانت من النساء الصالحات صوامة قوامة . . . وعاشت حتى قاربت المائة
سنة (١) .

العائلة الاقطاعية ، بأجيالها الثلاثة ، والتي ملكت بيدها السلطة ،
وحافظت على استقلال المقاطعة غير الكبيرة — شيزر ، اهتمت على الدوام
بتربية وتنشئة ورثتها الذكور بشكل رجولي كي يكون الواحد منهم قادراً
على السلطة والحكم والدفاع عن الامارة . ومن المحتمل — في عداد هذا —
أن أسامة قد ربي كوريث للعرش والسلطة في بني منقذ ، وربي كأمر .
ولهذا فان كلاً من أبيه وعمه قد حاول أن يربي فيه صفات الفروسية :
القوة البدنية ، القدرة على ركوب الخيل بمهارة ، المهارة الفائقة
بأستعمال كافة أنواع الاسلحة [وقتها] ، وبشكل رئيسي ، الرجولة ، البطولة
الصبر ، الحزم ، هدوء الاعصاب ، التروي والتفكير ، وضبط النفس .

في تربية أسامة كرجل وكأمر ساعد والده وعمه مثلهم الشخصي
في البطولة والرجولة ، والشجاعة ، التي كانت حتى من صفات نساء شيزر .
وإضافة إلى هذا فقد ساهم كل من التجربة الحياتية ، والظرف التاريخي
في تربيته تربية الفروسية هذه ولقد هيأت له والدته وجدته وأخوته
جواً خصباً من المحبة والاخلاص والتضحية .

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، ص ١٣٧ ؛ إصدار حتي ،

لقد كان لأيام طفولة أسامة وفتوته - كما يرى هذا من مذكراته
وشعره - الاثر الحاسم في تكون شخصيته ، وصفاته وطباعه ، حتى
إنه دخل الحياة - حياة ذلك العصر - كفارس للإسلام ، أديب ، وشاعر ،
وسياسي مجرب خبير ماهر .

المثل العربي يقول : « الرجال يشبهون عصرهم أكثر مما يشبهون
آباءهم » . والمفارقة بين صفات أسامة وصفات أبيه كانت أقوى من الحوادث
الكبيرة التي تميزت بها بداية القرن الثاني عشر في سورية . مع الاحترام
الكامل للأب ، والاعجاب الشديد به ، قد كسب منه أسامة التسمية
للأعمال الحربية أكثر من التسمية لازهد ؛ لقد كان عدواً للفرنجة أكثر
من كونه خطاطاً ؛ رجل حرب وعمل وتأثير وحزم وثبات ، أكثر من
زاهد وناسخ للقرآن . رباه أبوه تربية حربية قتالية ، وأشبعه بروح البطولة
والرجولة :

« وما رأيت الوالد ، رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركوب
خطر مهما كان يرى في وأرى من اشفافه وإثاره لي » . فركب عمي وأبي ،
رحمهما الله ، ووقفنا ، وكل من يصل إليها قد سيراه من خلفهم [خلف
الفرنجة ، و . ط] ، وجئت أنا ، فقال لي أبي : « اتبعهم بمن معك ،
وارموا أنفسكم عليهم ، واستخلصوا رهائنكم » . فتبعهم وأدركتهم
بعد ركض أكثر النهار ، واستخلصت من كان معهم وأخذت بمض
خيل حمص . وعجبت من قوله : « ارموا نفوسكم

عليهم « (١) .

نعم ! ان الاب لم يمنعه ويوقفه أيضاً عندما أراد قتل أفعى ، رغم أن أسامة كان وقتها صغيراً جداً : « ومرة كنت معه [مع والده.و.ط].. وهو واقف في قاعه داره وإذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على افريز رواق القناطر التي في الدار . فوقف يبصرها . فحملت مسلماً كان في جانب الدار أسندته تحت الحية وصعدت اليها ، وهو يراني فلا ينهاني ، وأخرجت مسكيناً صغيرة من وسطي وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة ، وبين وجهي وبينها دون الذراع ، وجملت أحز رأسها - وأخرجت التفت على يدي - إلى أن قطعت رأسها وألقيتها الى الدار وهي ميتة « (٢) .

والوالد وهو يرني فيه الشجاعة والاقدام ، طلب منه الخذروتماسك الاعصاب ، وهكذا فقد لام أسامة مرة عندما هجم على الاسد في لحظة حرجة : « فهارأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم « (٣) .

لقد ملك الامير الفتي قلباً لطيفاً طيباً ، ورأساً حامية عاصفة . وهو طفل قد آزر ضد الظلم والاحتقار . لكن وجدت حوادث ، انتهت

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٧٦ ؛ إصدار حتي ، ص ١٠٣ ، الترجمة الروسية ، ص ١٧٤ .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دنبورغ ، النص العربي ، ص ٧٦ ؛ حتي ، ص ١٣ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٧٤ .

٣ - انظر . هناك أيضاً .

به فيها هذه الثورة العاصفة إلى القساوة والظلم ، حتى إنه مرة ، لكي يدافع عن غلام مهان ، يخدم في البيت ، قتل خادماً (١) .

لقد كان حيويًا فعالاً منذ الطفولة ٭ يدرس برغبة فائقة وحماس منقطع النظير ، وكان محباً للمعرفة والاطلاع بشكل مدهش عجيب . أخذته أبوه ذات مرة مع أخوته الثلاثة للصيد وطالبهم في الطريق بقراءة القرآن : « فيوم خروجه [خروج أبيه . و . ط] إلى الجبل لصيد الجبل وهو بعيد من الجبل يقول لنا إذا خرج إلى طريق الجبل : « تفرقوا . كل من عاينه قراءة يقرأها » . ونحن أولاده حفظ القرآن . فنفترق ونقرأ حتى يصير إلى مكان الصيد يأمر من يستدعينا فيسألنا كم قرأ كل واحد منّا . فاذا أخبرناه يقول : « أنا قرأت مائة آية أو نحوها » (٢) .

لقد حفظ أسامة عن ظهر قلب ما يقارب (٢٧٠٠٠) بيت من الشعر لشعراء مختلفين .

لا يمكن للاهل أن يكونوا معلمين قساة مع أولادهم ، ولقد وعى والد أسامة هذه الحقيقة ، ولذا حاول ، وبسرعة ، أن يجد لابنه معلمين آخرين . فاستقدم من أجل تربيته الأدبية العالمين الشيخين : أبا

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٧ .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٤٦ ؛

الترجمة الروسية ، ص ٢٩٦ .

عبدالله [ابن المنير] ، وأبا عبدالله [الطليطلي] - عالم القواعد . لقد درس أسامة مع الأخير القواعد لمدة عشر سنوات ، وكتب عنه : « وكان في النحو مسيوبيه (١) زمانه . قرأت عليه النحو نحواً من عشر سنين وكان متولي دار العلم بطرابلس فلما أخذ الافرنج (٢) طرابلس نفذ الوالد والعم ، رحمهما الله ، استخلصا الشيخ أبا عبدالله هذا « ويانس » النامسح . وكان قريب الطلبة في الخط من طريقة ابن البواب (٣) . قدير أسامة واحترم معلمه الطليطلي ، الذي عرف وقتها ، حفظاً عن ظهر قلب ، عدداً من كتب القواعد الشهيرة آنئذٍ . لكن الطليطلي - كما يصفه أسامة في كتابه الاعتبار - كان مشغولاً بنفسه وعلمه أكثر مما كان مشغولاً بطالبه ، في حين أن ابن المنير غنى في أسامة حب الأدب ، والبلاغة ، والبدیع ، والشعر ، وعلاوة على هؤلاء فقد كان بيت آل منقذ مكان التقاء الأدباء والشعراء ، الذين جاؤوا إلى هنا مادحين بيت الأمراء ، طالبين منهم الرعاية والعناية والمؤازرة ، واجدين عندهم ، وعلى الدوام ، كرم الضيافة والهدايا .

-
- ١ - سيبويه : رجل القواعد العربي الشهير [توفي حوالي ٧٩٦] .
 - ٢ - حدث هذا في عام ١٩٠٩م
 - ٣ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٥٣ ؛ حتي ، ص ٢٠٨ لقد أخطأ I. sehen عندما أكد أن أسامة أمضى عشر سنوات في طرابلس دارساً القواعد المربية عند الطليطلي . انظر :

Journal of Semitic studies, Vol. XVII, No 2, 1972, p. 221,

لم يتمكن «سلطان» من إعطاء تربية أسامة - ابن أخيه الكثير من وقته واتباعه ، ذلك لأنه كان مشغولاً بأعماله الحربية الدفاعية ، لكنه رغم هذا - لم يكن مرتاحاً لتضييع أسامة وقته في تدريبات القواعد - قواعد اللغة ، وفي الشعر [وبالمناسبة فإن الشعر بالنسبة لسلطان كان مقبولاً كتسليية بعد المعارك الحربية] ، إن وجود القلم مكان السيف في يدي أي شاب صحيح الجسم معافى من بني منقذ كان بالنسبة للأمير سلطان علامة سقوط الامارة . وبالإضافة إلى هذا فإن طبيعة أسامة الحارة الحركية لم تقتنع وترتوي فقط بتلك «الضربات» التي يضربها زيد لعمر : [المثل القواعدي الكلاسيكي المشهور : ضرب زيد عمراً وغيره] ، وكذلك فإن الصيد ، واهتمام أسامة به ، لم يكن المتنفس الكافي لجميع نشاطه وحيويته .

تقد قرر العم ، وهو عالم بمقدرة أسامة وإمكاناته وطبيعته ، أن يوجهه الوجهة الحربية ويدب في نفسه تعشق هذا الاتجاه . كان أسامة - البطل الفتي محتاجاً وبصورة أسامية إلى النصيحة الهادئة الصبورة . لكنه افتقر إلى إمكانية ضبط نفسه وحماسه ، إلى إمكانية وعي واستيعاب تكتيك انعكاسات هجوم الأعداء . « قلت : كان عمي عز الدين ... يتفقد مني حضور فكري في القتال ، ويمتحنني بالمسألة . فنحن يوماً في بعض الحرب ... فقال لي عمي : وأي شيء « نفذت تقول لي ؟ » قلت : « نفذت أقول لك تقدم بالرجالة فقد كسرناهم » فقال : « مع من نفذت إلي ؟ ؟ قلت : « مع رجب العبد . » قال : « صدقت . ما أراك إلا

كنت حاضر القلب ، ما أدهشك القتال » . (١)

كان عم أسامة سعيداً جداً عندما يتمكن أسامة من ضبط نفسه ،
ومن الهدوء في وقت المعركة والقتال ، قانعاً بالنصائح الحكيمة للكبار .
واستطاع أسامة أن يلين طباعه ، مما كان حكماً في صالحه هو أكثر
من غيره .

إن النسوة المحيطات بأسامة ، ومنذ الصغر ، قد رين فيه الرجولة
والبطولة ، حيث إن أوضاع النساء في شيزر وقتها أعطتهم سلطة كبيرة
في تربية أبنائهن .

أما الزواج فكان يستقبل في شيزر باحتفال كبير ؛ ولادة الأطفال،
وبخاصة الذكور كانت بالنسبة لآل منقذ وكأنها هبة من الله ودلالة على
رضائه ورحمته . عن أمه وجدته كتب أسامة ما يلي : « ولعمري لهن
أمهات الرجال » . وكانت الزوجة مثال الفروسية والبطولة والاحترام
والتقدير ، ومحاطة بكل مظاهر الاهتمام والانتباه . أما أسباب الطلاق في
شيزر فقد اقتضت على السلوك الشاذ وعدم الخصب والانجاب .

وكان الحدث الهام في شيزر عندما تلد الزوجة ولداً ذكراً ،
أكثر من مرة - في أصعب الأوقات وأحرجها - جدة أسامة لأبيه ،

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٧٥ ؛

الترجمة الروسية ، ص ١٧٤ .

البالغة من العمر مئة عام أبعدت عنه الخطورة ، ونجته من الضلال وأعطته الحكمة والعظة . وبعين الحجة الزائدة ، وبحذق ومهارة فتحت عينيه على نوايا عمه تجاهه ، وعلى الأخطار المحيطة به (١) . ولقد فضله ، وعلى الدوام ، على ابنها ، من صلبها - سلطان . أما أمه وأخته فقد شاركتا في الحرب ، كي يرفعا من همة المحاربين ، ويحثاهم ، ويدبا في نفوسهم الشجاعة والاقدام .

بعد واحد من هجوم الاسماعيليين على شيزر عام ١١٠٨ ، عاد

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبرغ ، النص العربي ، ص ٩٣ ؛ إصدار حتي ، ص ١٢٦ .

قال أسامة : « وحملنا الأسد ودخلنا البلد العشاء ، وإذا جديتي لأبي ، رحمها الله ، قد جاءتني في الليل وبين يديها شمعة - وهي عجوز كبيرة قد قاربت من العمر مائة سنة . فلما شككت أنها قد جاءت تهتني بالسلامة وتعرفني مسرتها بما فعلت . فلقيتها وقبلت يدها فقالت بغیظ وغضب : « يا بني ، إيش يحملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك وتكسر سلاحك ويزداد قلب عمك منك وحشة ونفوراً ؟ » . قلت : « يا ستي ، إنما أخطر بنفسي في هذا ومثله لأتقرب إلى قلب عمي » . قالت : « لا ، والله ، ما يقربك هذا منه وإنه يزيدك منه بعداً ويزيده منك وحشة ونفوراً » . فعلمت أنها ، رحمها الله ، نصحتني في قولها وصدقني . ولعمري لمن أمهات الرجال ، .

أسامه إلى البيت ، وهو يبحث عن محاربيه والأسلحة ، ليرى أخته وأمه
يرقبان المعركة من الشرفة . لقد كانت أمه قد صممت أن تلقى ابنتها
من أعلى الشرفة لتموت ، كي لا تراها أسيرة في يد العدو :

« في ذلك اليوم فرقت والدتي ، رحمها الله ، سيوفي وكزاغنداني .
وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن وقالت : « البسي خفك وإزارك » .
فلبست وأخذتها إلى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق
أجلستها عليه وجلست إلى باب الروشن . ونصرنا الله بمبجائه عليهم .
وجئت إلى داري أطلب شيئاً من سلاحي ما وجدت إلا جهازات السيوف
وعيب الكزاغندات . قلت « يا أمي ، أين سلاحي ؟ » . قالت « يا بني ،
أعطيت السلاح لن يقاتل عنا . وما ظننتك سالماً » . قلت : « فأخوتي
أي شيء تعمل هاهنا ؟ » قالت « يا بني ، أجلسها على الروشن وجلست
برأ منها . وإذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتهما رميتها إلى الوادي
فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة » . فشكرتها
على ذلك وشكرتها الأخت وجزتها خيراً . فهذه النخوة أشد من نخوات
الرجال » (١) . « وتلثمت في ذلك اليوم عجزوز من جواري جدي الأمير
أبي الحسن علي ، رحمه الله ، يقال لها فنون . فاخذت سيفاً وخرجت
إلى القتال ومازالت كذلك حتى صعدنا وتكاثرنا عليهم . وما ينكسر

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دنيورغ ، النص العربي ، ص ٩٢ ؛

حتى ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

للنساء الكرام الأنفة والنخوة والاصابة في الرأي» (١) .

حياة النساء هذه ، الموصوفة بأعجاب مدهش من قبل أسامة ، كانت وكأنها انطباعات منذ الطفولة عن الحياة ، مما ترك في ذاته أثراً كبيراً ، ونغى في نفسه التعلق بالأهل ، وبمسقط الرأس (وطنه) في جميع مراحل حياته .

إذا كان نشاط أسامة وحيويته ، طباعه وصفاته ، مستوى تفكيره وإتساعه ، إذا كان كل هذا - في الغالب - قد تطور بتأثير الأب والعم ، فإن قلبه ومنذ الطفولة تنعم بلطافة أشعة حب نساء شيزر له ، وبخاصة لطافة ورقة الأمومة . لقد كانت لأسامة طبيعة حية وثابة ؛ كان يقفز في أيام الطفولة على الجدران ، يتسلقها ، والكل تشابه في الاعتقاد بأنه أكثر الأطفال حيوية ونشاطاً . وكان - غالباً - شاهد عيان للمؤتمرات العائلية التي جلبت له تصورات كبيرة تفوق عمره الزمني .

في عام ١٠٩٩ ، عندما عاد الخيالة من الصيد ، وأخبروا بقرب قدوم الافرنج ، وجلس الجميع من آل منقذ يفكرون بروية في الامر ، فجأة ، في قلب هذا الصمت المفكر صدح صوت أسامة قائلاً ما معناه : دعوا التفكير بهذا ، دعوهم يأتوا فاننا سنقتلهم » .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٩٢ ؛

إصدار حتي ، ص ١٥٢ .

لقد سئم أسامة البقاء مدة طويلة في مكان واحد ، وحاول
الرحيل إلى جهة ما ، لكن شيئاً ما غير معروف كان يشده إلى شيزر
رغم أحلامه بالعيش في أرض جديدة ، وبالتعرف على أناس جدد . نقطة
البداية في عذابه ومشاكله الحياتية كانت تتمثل في امتناع أبيه عن
الامارة ورئاسة شيزر ، وانتقال هذه الامارة إلى عمه وأبناء عمه .
ولذا غدا تابعا لعمه ، وكثيراً ما عانى من هذه التبعية . تعشقه الجهد
وكبرياؤه لم يقتنعا بتلك النجاحات التي كان يحرزها في الصدمات الحربية .
رغم إن هذه الصدمات في الواقع قد أوجدت متنفساً لبعض حيويته ،
التي كانت متجددة على الدوام ، ودفعته ، وبامتداد - رار للطموح
والتوثب .

حاول أسامة أن يملأ الحياة الفارغة في شيزر والوحدة ، بالأعمال
والأبحاث الأدبية ، فلقد وصلت إلينا بعض محاولاته الشعرية الأولى ، التي،
وباهتمام بالغ قد اصطفاه واختارها . اكن الفضل في مجده الأدبي الخالد
إنما يعود لأعماله ومؤلفاته وهو شاب ناضج .

لقد حافظ أسامة على نشاطه وجهه للحياة في كل شيء : في
الصلوات في الحملات الحربية والمعارك ، في التغلب على المصاعب والمقبات ،
على الآلام والمتاعب . وكان قوي النفس والجسم ، نادراً ما مرض (هكذا
في إنتقاله إلى شيزر أصيب بالزكام ومرض)^(١) ، وبسرعة يشفى بعد مرضه .

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دونبورغ ، النص العربي ،

والروح الأيية الشاخة لم تغادره لآخر حياته الطويلة (عاش ٩٣ سنة شمسية) .

أسامة - فارس شيزر الشجاع ، « شمس زمانه الساطعة » (١) ، كان طويل القامة (٢) فارعا ، مستقيم الجسم ، جميل المشية ، رائع القوام. بشرته بيضاء ، رغم وجود ما يشير إلى أن بعض أبناء كنانة كان أسود البشرة (٣) . وبالإضافة إلى هذا لا توجد أدلة على أن أحداً من بني منقذ المنحدرين من كنانة كان أسود البشرة . إن ب . لا جارد يشير في عمله العامي إلى أن أسامة كان رجل نكتة وفكاهة ، كثيراً ما تحضره البديهة ، ويسرع إلى التشبيهات المضحكة ، والنكتة الذكية . (٤) .

هذا هو الجو التربوي الذي أحيط به أسامة ، وترعرع ، وتربى:

-
- ١ - من شعر ابن القيسراني عن أسامة .
 - ٢ - ابن القيسراني يرى أنه كان معتدل القامة .
 - ٣ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٠٧
 - ٤ - درنبورغ يقتبس من Cottingische « من صفات أسامة استقباله اللطيف الرقيق للشيء المضحك » . و « شعور الفكاهة الذي يظهر في الالفاظ المفردة والتراكيب ، وفي الصورة الكاملة » قد لاحظها إ . ي . كراشكوفسكي . انظر . المقدمة لكتاب الاعتبار ، الترجمة الروسية ، الاصدار الثاني ، ص ٣٨ .

من رعاية الأب والعم ، وتربية الأساتذة الذين استقدموا خصيصاً لتنشئته
على عادة الأمراء آنئذٍ ، ومن جو نسائي شجاع كريم بذر فيه بذور
الشجاعة والاقدام ، وخوض المخاطر ، والتفكير بالعواقب ، والعزة والاباء.
أضف إلى كل هذا الجو الأدبي والحربي في شيزر - الذي كان المدرسة
الكبرى والأعم والأشمل التي تخرج منها أسامة ، مدرسة الحياة التي ربت
فيه ، وطورت ، ومنذ الصغر ، الحب إلى الوطن - إلى شيزر .



حياة أسامة في سجن

(١١٣٨ - ١٠٩٥ / ٥٣٣ - ٤٨٨)

التحضير والتمرن على الأعمال الحربية ، الصيد مع الأب على الحيوانات الوحشية المفترسة ، والتعلم ، بكل هذا كانت مقفمة حياة أسامة - « فارس الاسلام » (١) - في شيزر . شارك في المعارك وهو فتى يافع ، ولم يخش مرة الصعاب والمخاطرة . نفسه يتذكر هذا ويسجله قائلاً : « فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولا يؤخره شدة الحذر ، ففي بقائي أوضح معتبر . فكم لقيت من الأهوال ، وتقحمت المخاوف والأخطار ، ولاقيت الفرسان ، وقتلت الأسود ، وضربت بالسيوف ، وطعنت بالرماح ، وجرحت بالسهام والجروح - وأنا من الأجل في حصن حصين - إلى أن بلغت سن التسعين . لقد حاربت من سن الخمسة عشر إلى سن التسعين » (٢)

إننا لا ندري التاريخ الأكيد لمشاركة أسامة في المعارك ضد الصليبيين . ففي مكان من كتابه الاعتبار يكتب : « ومثل ذلك ماجرى لي على أفامية. فإن نجم الدين بن إيلغازي بن أرتق ، رحمه الله ، كسر الأفرنج على البلاط ، وذلك يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثلث عشرة وخمسمائة [١٤ ب ١١١٩ . و . ط] وأفنام وقتل صاحب

١ - أمين . أ . ، فارس كنانة ، ص ١٢ .

٢ - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ج X ، ص ٢٣٠ ؛ الاعتبار ،

إصدار حتي ، ص ١٦٣ .

انطاكية روجار وجميع فرسانه . فسار اليه عمي عز الدين أبو المساكر سلطان ، رحمه الله ، وتخلف والدي ، رحمه الله ، في حصن شيزر ، وقد أوصاه أن يسيرني الى أقمية بمن معي بشيزر من الناس .. وسرت في نفر قليل ما بلحق عشرين فارساً .. ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا وأنا غر في القتال ما حضرت قتالاً قبل ذلك ...^(١)

وفي مكان آخر يقول : « وجاءنا دنكري^(٢) (تانكرد) في عسكر انطاكية ، فقاتلنا عند سور المدينة ، وأنا صبي^(٣) ، وهو أول يوم رأيت فيه القتال »^(٤) .

وربما كان من المحتمل هنا أن أسامة يريد أن يقول بأنه منذ عام ١١١٠ شارك في المارك ، وفي عام ١١١٩ ولأول مرة ترأس

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٢٩ - ٣٠ ؛ إصدار حتي ، ص ٤٠ - ٤١ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٨٨ - ٨٩ .

٢ - تانكرد - ابن أخت ييموند - حكم انطاكية من ١١٠٤-١١١٤ . وييموند أمير نورماندي شارك في الحملة الصليبية الأولى . توفي عام ١١١١ .

٣ - في ربيع ١١١٠ كان عمر أسامة (١٥) عاماً .

٤ - أسامة ، الاعتبار . إصدار حتي ، ص ٦٦ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١٢٥ .

في عام ١١١١/٥٠٥ وأسامه عمره ١٦ سنة كان في عداد (٥٠٠) جندي ، التي خرجت من شيزر ضد تانكرد . لكن درنبورغ يبدى شكوكه في صحة هذا الرقم : « هذه المبالغة العادية للرجل الشرقي لا توافي الواقع . إني أعتقد بأن هذا الرقم لا يتوافق وعدد السكان في شيزر ، لكنه عدد السكان في أسفل الجبل وعلى شواطئ المعاصي (أورونت) (٢) .

إن رأي درنبورغ هنا لا يمكن قبوله دون نقد ، ذلك لأن أسامة مشهور كمؤلف واقعي صادق موثوق ، يقول الحقيقة حتى في تلك الحالات ، عندما لا تكون الحقائق في مصلحته (٣) وزيادة على هذا فقد

١ - هذا ما يؤكد شعره ، حيث يقول أنه ركب حصان الحرب وعمره (١٥) سنة (انظر . الديوان . ص ٢٠٩) :

لخمس عشرة نازلت الكيافة إلى أن شبت فيها ، وخير الخيل ما قرحا

٢ - Derenbourg. H., Le Vie d'Ousama, p. 9

٣ - هذا ما يشير إليه مثلاً في الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ١٥٣ ،
' خسر رفاقه لقلّة خبرته إذ يقول : « وقد جرى لي مرة أخرى
مثل هذا . والسبب فيه نفاذ المشيئة ثم قلّة الخبرة بالحرب ...
وزلوا [الأعداء . و. ط] من الجانب الآخر بالغبينة . وعدنا نحن

أشرنا سابقاً إلى أن علي بن مقلد قال بان سكان شيزر ٣٠٠٠ رجل مع عائلاتهم ، ويدور الحديث عن هذه ثلاثة آلاف الرجل في كتابه إلى الخليفة المقتدي .

بعد عدة شهور من هذه الموقعة أرسل تانكرد إلى بني منقذ فارساً صليبياً كي يقضي بينهم بعض الوقت وهو في طريقه إلى وطنه . وكان هذا الافرنجي معجباً بأسمامة ، بفروسيته ورجولته ، وبمهارته في استعمال السيف والرمح .

عقد أسمامة العزم على زيارة انطاكية بدعوة من تانكرد ، لكن ظروفًا غير منتظرة قد حالت دون تحقيق هذا التصميم .

لقد انقضت فتوة أسمامة بسرعة وكأنها سحاب خفيف قد تلاشى .

وقد قتل منا فارسان وأخذ منا فارسان وأخذ منا ثلثه حصن والقافلة . فهذه تقرير لقلة الخبرة بالحرب » . وفي ص ١٤٤ يورد قصة الضبعة التي آذته . . . وها هو يروي قصة الافرنجي العدو الذي يهزم أربعة مسلمين : « وكان بأفاميّة فارس من كبار فرسانهم [فرسان الافرنج . و . ط] يقال له بدرهوا . . . فالتفت فرأى أربعة منا من ناحيته . . . فحمل عليهم فهزمهم . . . ودخل أولئك نفر إلى البلد فافتضحوا واستخفهم الناس ولا موم وأزروا بهم وقالوا : أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد !!! » انظر . الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

لأنه يتذكر بألم مرير الأيام التي قضاها بدون متعة ، ويأسف لها لأنه
شغل فيها سمياً وراء المعالي والأجناد ، فلم يجمع بها كآثرابه :

وما كنت مغتبطاً بالشباب وهل كان إلا رداء معارا
ولكنني ساءني فقدته فواهاً له ، أيّ همّ أثارا
وما زلت منذ ترديته كخابط ليل أعاني العشارا
أكابد دهرًا يشيب الوليد وهما يشبّ بأحشائي نارا
فوجدني أني فارقت ولم أبل ما يزعمون اختبارا (١)

بعد تأزم الموقف الشديد في العلاقات بين أبي أسامة وعمه توصل
بمساعدة الوسطاء عام ١١٢٠ إلى مصالحة فيما بينهما ؛ وعندئذ أسند العم
« سلطان » إلى أسامة قيادة فرسان شيزر . غدا أسامة قائد الفرسان
واتخذ النسر ذا الرأسين شعاراً له - وربما قلد في هذا البيزنطيين - ،
ومسافر إلى انطاكية ليتعرف العدو عن قرب تعرفاً كاملاً .

لكن تمر الأيام لتوقعه في موقف حرج ، وحالة معقدة ، مع
كثير من المصاعب والمتاعب . ويتلخص الموقف فيما يلي : حاكم حلب

١ - أسامة ، الديوان ، ص ٢٦٨ . [أبلو: أختبر] .

تيمور تاش (١) استعان بمساعدة عمه سلطان ، ليكون وسيطه في الاتفاقية ، التي بوجيها كان على صاحب حلب أن يطلق سراح بلدوين (٢) ، الذي كان في الأسر عنده ، وعلى الأخير ، بالمقابل أن يتخلى لصاحب حلب عن بعض ممتلكاته .

تركزت وساطة سلطان في أن يرسل أسامة وإخوته كرشائن إلى حلب حتى تنفيذ الاتفاقية والوساطة . لكن بلدوين لم ينفذ شروط الاتفاقية . ولهذا فقد بقي أسامة في الأسر مدة ثمانية أشهر إلى أن عمد حاكم حلب الآخر إلى إعطائه حريته وفك أسره (٣) . كتب

١ - خليفه الأرتقي المريني الغزي ، الذي استلم السلطة بعد وفاة بلقي ، حيث كان هناك معتقل بلدوين ؛ لقد حكم منذ ٥١٦ - ٥٤٧ / ١١٢٢ - ١١٥٢ ، انظر : يوسف-سورت ، ص ١٦٦ .

٢ - بلدوين - حاكم (صاحب) عدد من الحصون في منطقة آسيا الصغرى ؛ واحد من جبابرة الصليبيين الأشداء - في عام ١١٢٣ كان قد أمر من قبل نور الدولة بلقي ، وفي عام ١١٢٤ مات قتلاً .

٣ - زكي ، أ . ، في كلامه عن أسامة ، (ص ٦٣) يؤكد خطأ أن أسامة بقي في الأسر إلى أن استولى أتق سنقار على حلب ، وأطلق سراحه . بالمناسبة أتق سنقار كان قد قتل عام ١٠٩٤/٤٨٧ . (انظر . أبو شامة . ج ١ ، ص ٢٦١) ؛ وأسامة كان في الأسر في عام ١١٢٤ .

أسامة بهذه المناسبة أشعاراً يفتخر فيها بذاته ، ويشير إلى أن أعداءه يهابونه ويخشونه وهو أسير ، وأن السجون لا تحقر الرجل الحقيقي الانسان ، القادر على أعمال البطولة والرجولة :

حبسوك والطير النواطق إنما حبست لميزتها على الأنداد
وتهيبوك وأنت مودع سجنهم وكذا السيوف تهاب في الأغمد
ما الحبس دار مهانة لذوي الملا لكنه كالغيل للأساد

ورغم أن عم أسامة قد امتعض من شعر الكبرياء والفخر هذا لكنه سكت على مضض ، ذلك لحاجته إلى أسامة ، وإلى خبرته الحربية في قتاله مع أعدائه . وازداد فتور العلاقة والجفوة بينهما ، فبعدد ما يحرز أسامة انتصارات يخشاه عمه . وبرأينا ، قد لعب الوشاة دوراً كبيراً في زيادة هذه الجفوة بينهما ، ومن المحتمل أن حسدهم وحقدهم قد ازدادا لسبب انتصارات أسامة الحربية ، وعلو شأنه ومكاته : « وانهمزم الافرنج الذين جاؤوا من أفامية ، فقال له (لعمه . و . ط .) بعض غلماناه : يا مولاي ترى ما فعل ؟ يعني . تخلف عنك ، وماسار معك للقاء جيش أفامية » (١) هذا ما يؤكد أبو شامة أيضاً الذي يقتبس قول ابن الأثير : « وسعى المفسدون بينهما فميروا كلا منها على الآخر » (٢).

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، ص ١١٢ .

٢ - أبو شامة . I ، ص ١١١ .

لقد نصحه أبوه بترك أمر الجفوة مع عمه ، ذلك لأنه لم يشأ أن
تكرر مأساة صراع عام ١١٢٠ ، وقالت له جدته : « ولداه أولى منك
بقلبه يا أسامة » .

لقد تفجرت الأزمة عندما أعلن سلطان أن شيزر لا تستوعب
جميع آل منقذ . ونتيجة لهذا الاعلان كان على أولاد مرشد ، ومن
بينهم أسامة ، أن يتركوا شيزر ويعيشوا في ضياعهم ، على أن يلبوا دعوة
العم للدفاع عن شيزر متى كان ذلك ضرورياً . حدث هذا عام ١١٢٨ .
وبنتيجة عاث أسامة عدداً من الأشهر في قريته ، في منطقة شيزر الريفية ،
عيشة هادئة ، لا يتكلم عن القصر ، مشغولاً بنظم الشعر ، وبالتعليق
على « كتاب البديع » لابن المعتز ، الذي قال عنه أسامة : « كان
مؤلف هذا الكتاب عظيماً ولكن أهله ضيعوه » ، وكأنه وجد في ابن
المعتز قريباً ونداً له للتشابه في مصيبتها .

وأخيراً ، كان أسامة مضطراً أن يفارق شيزر - وطنه الأم ،
حيث أصبح بقاؤه فيها لا يطاق ، وقضى (٩) تسع سنوات تقريباً
[١١٢٩ - ١١٣٨] في بلاط عماد الدين الزنكي المهدي الوحيد ، والند
الأول لسلطة الصليبيين ، يعمل تحت رايته ، ويشاركه في معاركه ، التي
قادت به إلى أبواب بغداد . إن تصميم الزنكي بالهجوم على سورية لتوحيد
كل المنطقة ضد الصليبيين وجد صدى جيداً عند أسامة ، بأفكاره
النضالية ، قابلاً أن تقع شيزر تحت سلطة الزنكي بهدف النضال الأكبر
ضد الاعداء .

قبل سفر أسامة إلى عماد الدين الزنكي طالب نصح أبيه بقصيدة
شعرية مفعمة بالفخر بالاجداد ، والكبرياء ، وشكوى من الجفوة الميته ،
ومن علاقته بأقربائه ، راجياً من الوالد السماح له بالسفر بعيداً عن
الحساد والوشاة ، عن « وطنه » الذي لاقى فيه الازدراء والاحتقار :

دعني وقطع الأرض ، دون معاشر	كل علي ، لغير جرم ، محقق
تغلي علي صدورهم ، من غيظهم	فتكاد ، من غيظ علي ، تحرق
أعياء علي رضاهم ، فيئست من	إدراكه ، ما للنجم شيء يلحق
قد أفسدوا عيشي علي ، وعيشهم	فأنا الشقي بهم ، وبني أيضاً شقوا
فضل الاقارب برهم وحنوهم	فاذا جفوني فالأبعد أرفق (١)

١ - أسامة ، الديوان . ص ١٢٨ . لقد اخطأ مصطفى حجازي عندما
أورد القصيدة في مقدمته لتحقيق « كتاب المنازل والديار » ،
مؤكداً بأنها قد كتبت بعد أن توجه أسامة وأخوته من شيزر إلى
دمشق . في الحقيقة أنها كتبت عندما توجه أسامة إلى عماد الدين
الزنكي في عام ١١٢٩ ، وعلاوة على ذلك فقد توفي أبو أسامة
عام ١١٣٧/٥٣١ ، ورحل أسامة إلى دمشق في عام ١١٣٨/٥٣٣ ،
والواضح أنه لم يتمكن حينذاك من طلب السماح بالهجرة من أبيه .
كذلك يرى حجازي أن أسامة قد وصل إلى عماد الدين في
←

لقد سمح له والده هجر شيزر ، تاركاً أسرته تحت رعاية أخيه ، طالباً من عمه أن يعطيه بعض الفرسان من شيزر ، لأنه أبي أن يقال إن أبا العساكر وبنو منقذ لم يشتركوا في تكوين الجيش الذي عليه أن يكسر الافرنج تحت راية عماد الدين . ونظراً لأن العم قد شاء أن يبعد أسامة ، منها كان ذلك ممكناً ، فقد أعطاه ما طلبه .

موقف عمه منه ، موافقة الأب على هجره شيزر ، التقاؤه وعماد الدين بوجهات النظر السياسية ، التي تقضي بالوحدة الإسلامية ضد الصليبيين - كل هذا قد قاد إلى أن يتوجه أسامة إلى الزنكي في الموصل، ويعمل تحت قيادته في عام ٥٢٣/١١٢٩ .

لقد كانت علاقة الزنكي مع أسامة جيدة ؛ استقبله استقبلاً حاراً، وأقطعته إقطاعاً بالموصل ، وغدا منزله فيها موطناً للشعراء والكتاب . عندما عين عماد الدين صلاح الدين النسياني أميراً على كفر طاب ، بقصد إبعاده عنه ، حيث إن الأخير حسب قول أسامة :

الموصل عام ٥٢٩ هـ ، لكن أسامة في كتابه «الاعتبار» [ص ١١١] يذكر أنه في هذا العام نفسه قد اشترك والزنكي والنسياني في حصار دمشق . ثم في عام ٥٢٥/١١٣٠ وهو موجود في الموصل ، قد شارك في التحضير لحملة أخرى ، وفي عام ٥٢٦ / ١١٣١ - ١١٣٢ شارك عماد الدين في الموقعة في تكريت .

« لا يخاف عماد الدين ولا يخاف الله (١) ؛ الفسياني بدوره قد عين أسامة قائداً لجيشه ، رغم أنه شاركه في جميع المعارك ، كيلا يفوته شرف النصر . أراد أسامة أن يكون قريباً من شيزر ، وقضى حياته في هذه المرحلة بين الموصل وكفر طاب ، وشارك في حصار دمشق .

في كل مرة يمر فيها أسامة بالقرب من شيزر . يعرج يوماً أو يومين على وطنه شيزر ، وبخاصة على أبيه ، ثم يتابع طريقه ثانية . لقد أفسدت عليه حياته من قبل الوشاة الذين أوغروا صدر أبيه عليه (٢) . ولقد كتب أسامة بهذا شعراً ، محاولاً أن يبرر موقفه أمام والده :

وبعد مالي ، فاشفاقي يهددني بشوب رأيك بالتكدير والرنق
وأن قلبك قد رانت عليه ، من الواشين بي ، جفوة، يها، كالفسق
أما كفاهم نوى داري، وبعدك عن عيني، وفرقة إخوان الصبا بالصدق
وأنتي كل يوم قطب معركة دريئة السمير والهندية الذلق
وموضعي منك لاتسمو الوشاة له ولا يغيره كيسى ولا حمقى (٣)

أسامة ، وهو في الغربية ، تارة في سورية ، وأخرى في العراق ،

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١١٦

٢ - في تاريخ حياة أسامة لا توجد إشارة إلى انزعاج والده منه .

٣ - أسامة ، الديوان . ص ١٢٩ .

يحن إلى أبيه ، ويرسل له التحيات والاحترام ، ويتبادل معه المراسلات
الشعرية :

قال أسامة :

لا تفسدن نصيحتي بشقاق وأييك ما السلوان من أخلافي
وأبلغ تحية نارح قذفت به أيدي النوى في أسحق الآفاق
قد كان بالشامي يعرف برهة من دهره ، والآن فهو عراقي
ينزو لذكر أبي سلامة قلبه فيكاد يغرق من حشاوصفاق(١)
واهتف به : ياخير من أرجوه للأواء(٢) أو أدعوه يوم تلاق
بي لوعتان عليك يضمف عنهما جلدي : من الاشواق والاشفاق
فالشوق أنت به العليم ، وغالب الا شفاق مما أنت في ملاق
وإذا أخطأتك الحادثات ، فكل ما ألقاه محمول على الأحداق(٣)

فأجابه أبوه بقصيدة أولها :

١ - الصفاق (ككتاب) : الجلد الأسفل تحت الجلد الذي عليه

الشعر ، أو ما بين الجلد والمصران . أو جلد البطن كله .

٢ - الأواء : الشدة .

٣ - أسامة ، الديوان . ص ١٣١ .

أَتظن أني بعد بعدك باقي أجزي عن الأشواق بالأشواق

يقول فيها :

أبأ المظفر دعوةً تشفي الظما مني ، وإن أضحي بها إحراقي
لم أستكن أبدا لخطب نازل إلا لبعذك ، فهو غير مطاق
فاذا أطعت الوجد فيك أطاعني قلبي ، ويبدى، إن عصيت ، شقائي
فاذا ذكرتك خلت أني شارب ثمل ، سته من المدامة ساق (١)

إن شعر الاب مملوء بكل مشاعر الشوق والحنين ، وألم الفراق
للأبن .

لقد حارب أسامة تحت راية عماد الدين الزنكي إلى أن كان
مضطراً للعودة إلى شيزر ، ليدافع عنها ضد جيوش بيزنطة والصليبيين
المتحدة في عام ١١٣٨/٥٢٣ .

تابع الامبراطور البيزنطي جاك كومنيوس (١١١٨-١١٤٣) سياسة
سلفه ألكسيس كومنيوس الموجهة لتوسيع رقعة سلطة بيزنطة في آسيا
ومعى لأخذ كيليكيا من الارمن ، وانطاكية من الصليبيين . فبعد
انتصاره في كيليكيا وجه اهتمامه إلى انطاكية ، لكنه لما لم يتمكن من
امتلاكها سلمياً ، قرر أخذها عنوة بالقوة . ولذلك هاجمها في آب ١١٣٧ ،

فتوجه حاكمها ريموند دي بواتيه لطلب المساعدة من « فولك » ، حاكم بيت المقدس . لكن فولك لم يتمكن من تقديم المساعدة له لأنه كان مشغولاً بالقتال ضد عماد الدين الزنكي . ولم يبق لريموند غير عقد هدنة مع الامبراطور البيزنطي . لقد نصت اتفاقية الهدنة بينها على أن تهاجم بيزنطة سورية لمساعدة ريموند ، وبمساعدة الأمراء الأوروبيين الصليبيين الأخر ، لأخذ شيزر من بني منقذ ، وحمص - من صاحب دمشق ، وحلب - من عماد الدين ؛ ومقابل حكم ريموند لهذه المناطق بمسند الاستيلاء عليها ، يجب أن يتنازل عن انطاكية لبيزنطة .

لم يقدر عماد الدين خطورة هذا الاتفاق ، وتابع قتاله مع دمشق ، فاجتمع المتحدون قرب شيزر ، وهاجموها . واضطر سلطان بن منقذ أن يطلب مساعدة عماد الدين ، واندفع أسامة للدفاع عن وطنه - شيزر . لقد كانت قوى المتحدين كبيرة جداً ، لذا لجأ عماد الدين إلى الخدعة ، فقرر أن يوقع بين البيزنطيين ، والفرنج والصليبيين . وكان له النجاح في هذا فقرر امبراطور بيزنطة التراجع . هذا ما بصفه أسامة مفصلاً في كتابه «الاعتبار» . (١)

ترك عماد الدين شيزر تحت سلطة سلطان بن منقذ ، أما أسامة فقد حار في أمره : أيتابع النضال تحت لواء عماد الدين ضد الصليبيين؟ أم يبقى مع أولاده وزوجته الذين حرّموا من رعاية أبيه ، حيث كان قد توفي منذ قرابة عام [١١٣٧/٥٣١]؟ لكن القرار في مصلحة العائلة ومسقط

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٨٣ .

الرأس قد غلب المشاعر الوطنية (القومية تجاوزاً) ، والانضال ضد الصليبيين .
وقرر ترك عماد الدين والبقاء في شيزر ، شاغلاً وقته في صيد الاسود ،
آملاً أن تمكنه بطولاته وانتصاراته من أخذ حب عمه ، متناسياً ما قالته
جدته سرّاً عن عمه (انظر . أعلى ، ص ٧٠) (١) .

ورغم صعوبة فراق مسقط الرأس كان أسامة مضطراً فيما بعد
أن يترك شيزر . لم يعلم في البدء إلى أين يتجه : إلى الموصل ؟! إلى
عماد الذي كان قد هجره منذ عام ؟! أم إلى أية جهة أخرى ؟! وأخيراً
قرر السفر إلى دمشق ، وبوصوله دمشق تبدأ عنده مرحلة حياة جديدة .

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٩٣ .
أبو شامة . (ح I ، ص ١١٢) يقول اعتماداً على كلام ابن
الاثير : أن هذه الالفاظ قالتها والدته ؛ وأن انتصارات أسامة
الصيدية كانت سبب خروجه من شيزر إلى الابد .

أُسامَة في دمشق

(٥٣٣ - ٥٣٩ / ١١٣٨ - ١١٤٤)

يصف أسامة قدومه الاول إلى دمشق على الشكل التالي: «فاقتضت الحال مسيري إلى دمشق ، ورسل أتابك [عماد الدين . و . ط] تتردد بطالبي إلى صاحب دمشق . فأقامت فيها ثمانين^(١) ، وشهدت فيها عدة حروب ، وأجزل لي صاحبها^(٢) ... العطية والاقطاع ، وميزني بالتقريب والاكرام - يضاف ذلك إلى اشتغال الامير معين الدين^(٣) ، رحمه الله عليّ ، وملازمتي له ، ورعايته لأسبابي^(٤) .

قدم أسامة إلى دمشق في أواخر عام ١١٣٨ هـ - بحث كن الماكرم الاسمي لها شهاب الدين محمود البوري ، الذي استلم السلطة بعد أن قتل الاسماعيليون أباه (وهو نفسه فيما بعد كان قد قتل من قبلهم في عام

١ - في عام ٥٣٢ هـ لما حاصر جان كومينيوس شيزر كان أسامة فيها ، وفي عام ٥٣٩ هـ نجده في مصر ؛ لذا علينا أن نفترض أن إقامته في دمشق لم تمتد أكثر من (٧) سبع سنوات قمرية .
٢ - شهاب الدين محمود - أتابك دمشق من سلالة البوريين ، حكم من ١١٣٧ - ١١٣٩ .

٣ - الامير معين الدين أنر (أنر . في ديوان أسامة) - أول وزير بدوي . مات عام ١١٤٩ .

٤ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٣ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٤٦ .

(١١٣٩) . لكن الحاكم الفعلي كان الوزير معين الدين أنر (١) . وبعد وفاة شهاب الدين انتقلت السلطة إلى أخيه جمال الدين ، وبسرعة إلى مجيد الدين . وفي هذه الاثناء كان عماد الدين قد استولى على بعلبك في ~~نفر~~ عام ١١٤٠ ، وهدد دمشق . لقد كان أنر سياسياً لامعاً . فبعد المشاورة مع أسامة قرر أن الطريق الوحيد للدفاع عن دمشق ضد عماد الدين - هو الاتحاد والاتفاق مع الصليبيين وبنشاط وحماس دخل أسامة في النضال ضد عماد الدين - صديقه القديم . كان على أسامة مهمة عقد الاتفاق (الاتحاد) مع الفرنجة ، فسافر لاجل ذلك إلى فولك الخامس - ملك القدس ، الذي أصبح رئيس المملكة بعد وفاة حميه (أب زوجته) بلدوين الثاني (٢) في ١١٣١ ، للنقاش في إمكانية إقامة اتحاد ضد الزنكي.

لم ينس فولك الخامس الخدمة التي أداها بنو منقذ حميه - سابقاً ، ولهذا بجرارة ، كان قد استقبل أسامة الذي استطاع بفضل هذا أن ينفذ المهمة التي كلف بها بنجاح . أعطى أسامة صورة عن الموقف في دمشق ، مؤكداً أن في يد الزنكي الموصل ، حلب ، حماة ، حمص ، وبعلبك ، وإذا استولى على دمشق فسيكون هذا تهديداً كبيراً للفرنجية ، ذلك لأن سلطة عماد الدين في سورية مستعظم . لقد عقدت الاتفاقية لصالح الطرفين ، وجاء فيها ما يلي : الفرنجة يقدمون قوة حربية ، ودمشق تدفع لهم

١ - في الترجمة الروسية « لكتاب الاعتبار » ، وفي مقدمة ديوان أسامة يسمى (أنر) .

٢ - زوجة فولك الخامس كانت ابنة بلدوين الثاني .

مقابل ذلك (٢٠ الف بيزنت شهرياً) ، وبقوتها الذاتية تحتل بانياس^(١)، وتأخذها من الزنكي . كان الاتفاق من وجهة نظر حكام دمشق مربحاً، أما أن يكون الاتفاق صحيحاً أو غير صحيح فهذا شيء آخر . وبعد البدء بتنفيذ الاتفاقية تمكن الدمشقيون من دحر جيش الزنكي ، المحاصر لدمشق في رمضان ٥٣٤/نيسان ١١٤٠ ، وأخذوا منه بانياس ، وأعطوها للفرنجة . أما أسامة ، فبفضل جهوده السياسية ، قد علا نجمه عند أهالي دمشق والفرنجة معاً . وتنقل أحياناً بحرية كاملة مع الوزير أنز^(٢) في مدن الافرنج كطبرية ، وعكا ، وبانياس ، متعرفاً على حياة وعادات الفرسان الفرنجة .

ثم أُرسل أسامه أيضاً من قبل معين الدين أنز لعقد الاتفاق مع وزير مصر - رضوان الوخشي^(٣) ، الهارب من مصر ، والمفتش عن ملجأ في صلخد^(٤) ، والذي يرغب في طلب النجدة من عماد الدين الزنكي .

١ - بانياس - مدينة في الاطراف الجنوبية من لبنان ، عند منبع نهر الاردن .

٢ - انظر . الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٤٢ .

٣ - رضوان السيد الأجل* الملك الأفضل . كان وزيراً في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ من ١١٣٧ - ١١٣٩ .

٤ - صلخد - مدينة في حوران الى الجنوب الشرقي من دمشق .

ان اتحاد رضوان وعماد الدين - فيما لوحدث - يهدد صديق
أسامة معين الدين أنز . فكان على أسامة أن يقنع رضوان بعدم
الدخول في هذا الاتفاق ، والامتناع عن تنفيذ الوعد بالسفر الى عماد
الدين^(١) ، وتم الاتفاق على أن يذهب رضوان إلى دمشق ، ويقبض
هناك [٣٠٠٠٠ دينار]^(٢) ؛ نصفها دراهم ، ونصفها الثاني منتجات
زراعية ، ويمطوه دار العقيقي ، وإمكانية تأسيس ديوان لأصحابه .
لكن رضوان خان ذلك ، وعاد إلى مصر ، آخذاً معه جنداً من صلخد .

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٢٢-٢٣ ؛
الترجمة الروسية ، ص ٧٦-٧٧ ويذكر أسامة في « الاعتبار »
أن أمين الدولة تكتكين كان في صلخد وقتها . لكن الأتابك
تكتكين - مؤسس السلالة البورية في دمشق كان قد توفي عام
١١٢٨ ، ولهذا فانه يوجد في حديث أسامة عدم دقة . من الممكن
أن الذي وجد وقتها هناك جوموشتكين لاتكتكين .

٢ - حسن ابراهيم حسن في كتابه « تاريخ الدولة الفاطمية »
(القاهرة ، ١٩٥٨) يخطيء عندما يكتب « عزل رضوان فقر
إلى الشام وطلب من زنكي أتابك الموصل مساعدته ، وكان
رضوان ينوي غزو مصر ، ولم يثنه عن ذلك إلا أسامة الذي
أوفد اليه من القاهرة ، واسترضاه بثلاثين ألف دينار فعدل عن
ذلك » . ذلك لأن لقاء أسامة مع رضوان كان قبيل سفر
أسامة إلى مصر .

وعندما بلغ مصر خانه الجند الأتراك ، فالقى به الحافظ^(١) في السجن^(٢) .
لقد صادق أسامة في دمشق معين الدين أزر ، وآزره ونال
على ذلك هدايا ثمينة ، حيث يكتب عنها في شعره :

معين الدين ، كم لك طوق من	بجيدي مثل أطواق الحمام
يعبدني لك الاحسان طوعاً	وفي الاحسان رق للكرام
فصار إلى مودتك انتسابي	وإن كنت العظامي العصامي
ألم تعلم بأني لانتماي	إليك رمى سوادي كل رام
ولولا أنت لم يصحب شماسي	لقسر دون إغذار الحسام
ولكن خفت من نار الأعادي	عليك فكنت إطفاء الضرام ^(٣)

لكن الظروف فيما بعد قد تغيرت ، إذ ظهر منازعون ومنافسون
لمعين الدين منهم أبو الفوارس المسيب بن علي بن الحسين المشهور بابن الصوفي ،
الذي نازع معين الدين على سلطته ومكانته ، وبدأ يحوِّك ضده المؤامرات ،
ويدبر الفتن والعصيان ، وسعى جاهداً ليصبح وزيراً مكانه . ولهذا فقد

١ - الحافظ لدين الله - لقب الخليفة الفاطمي أبوالمجيد (١١٣٠-١١٤٩).

٢ - عندما توجه أسامة إلى مصر ، كان رضوان لا يزال في السجن.

٣ - أسامة ، الديوان . ص ٣١٩ ،

كان معين الدين بحاجة إلى رجل ، يعرف أكثر مما يعرف أسامة عما يحاك ضد الوزير في الخفاء . إضافة إلى هذا فإن أسامة ذاته قد ملك حساداً ، وأمثاله لا يعدمون مثل هؤلاء الحساد ، الذين حاولوا الايقاع بينه وبين معين الدين . لقد سمى به الواشون عند معين الدين مما سبب انحراف قلبه عن أسامة ، وصبت على أسامة الحياة في دمشق ، ونبت به الشام « بنو الدار بالكریم » حسب كلام العماد الاصفهاني .

أضطر أسامة إلى الرحيل مع أهله إلى مصر ، فودع معين الدين بقصيدة مملوءة عتاباً وشكوى ، شبيهة - من حيث مضمونها - بقصيدة المتنبي - في أيامه - التي كتبها في سيف الدولة عندما قرر السفر عنه بعيداً إلى مصر - إلى كافور ، مع تشابه بين المناسبتين . حتى كأن قصيدة أسامة معارضة لقصيدة المتنبي ، مشيراً فيها إلى الوشاة الذين كان معين الدين قد اعتمد على آرائهم في حكمه على أسامة ، مادحاً معين الدين ، ومذكراً بتلك الحوادث ، التي كان فيها مخلصاً له ومؤيداً ومُدافعاً . ثم ينتقل بعد كل هذا ليصور الخطر المحدق به وبمائلته من وقوع في يد الافرنج ، ويشير إلى أنه لا يأسف على رحيله عن بلد لا تقدره ، لكنه بأسف بألم على فراقه معين الدين ، ويطلب له الصحة والسعادة ورفاهية الحياة :

ولوا ، فالما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا
وبعد ، لو قيل لي : ماذا تحب ، وما
هناك من زينة الدنيا قلقت : هم

بليغ أميري: معين الدين، مألكة
هل في القضية يا من فضل دولته
تضييع واجب حقي بعدما شهدت
وما ظننتك تنسى حق معرفتي
ولا اعتقدت الذي بيني وبينك من
لكن ثقاتك مازالوا بغشهم
هنا جنينا ذنوباً ، لا يكفرها
القيتهم في يد الافرنج متبعاً

من نازح الدار، لكن وده أمم
وعدل سيرته بين الوري علم
به النصيحة، والاخلاص، والخدم
إن المعارف في أهل النهى ذمم
وُدٍّ، وإن أجلب الأعداء، ينصرم
(حتى استوت عندك الأنوار والظلم)
عذر، فماذا جنى الاطفال والحرم
رضاعداً يسخط الرحمن فعلمهم (١)

أُسامَة في مصر

(١١٥٤ - ١١٤٤ / ٥٤٩ - ٥٣٩)

وهكذا كان أسامة مبعداً^(١) ، فانتقل من دمشق إلى مصر
[القاهرة] ، وربما لم يكن بمقدور معين الدين أن يمنعه من الرحيل ،
ويحتفظ به .

« ثم مرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر . فضاع من حوائج
داري وسلاحي ما لم أقدر على حمله . وفرطت في أملاكي ما كان نكبة
أخرى^(٢) . كل ذلك والأمير معين الدين ... محسن بحمل كثير التأسف
على مفارقتي مقر بالعجز عن أمري ، حتى إنه أنفذ إلى كاتبه الحاجب
محمود المسترشدي ... قال : « والله لو أن نصف الناس معي لضربت بهم
النصف الآخر ، ولو أن معي ثلثهم لضربت بهم الثلثين ، وما فارقتك .

١ - عمر موسى باشا في كتابه « أدب الدول المتتابعة » يخطئ إذ
يكتب [ص ٢٧٥] أن أسامة إنما رحل عن دمشق عندما
شاهد حاكمها يريد عقد اتفاقية مع الفرنجة ضد الزنكي . والحقيقة
أن أسامة ذاته عقد هذا الاتفاق باسم حاكم دمشق .

٢ - إن المصيبة الأولى عند أسامة ، كما عدها هو ، حدثت في حصار
شيزر من قبل البيزنطيين والافرنجج ١١٣٨/٥٣٢ (الاعتبار ،
إصدار درنبرغ ، النص العربي ، ص ٣ ؛ الترجمة
الروسية ، ص ٤٥) .

لكن الناس كلهم قد تمالوا علي ومالي بهم طاقة . وحيث كنت فالذي
بيننا من المودة على أحسن حاله ... فكان وصولي إلى مصر يوم الخميس ،
الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع وثلثين وخمس مائة [٣٠ تشرين
ثاني ١١٤٤ . و . ط] هـ (١) .

قدم أسامة القاهرة مع أمه ، وزوجته وأخيه محمد . واستقبله
الخليفة بكل مظاهر الاحترام والتقدير ، وأتاح له فرص الحياة الهنيئة
على خير ما يكون :

نلت في مصر كل ما يرتجى الآمل من رفعة مالٍ وجساه (٢)

إنه لمن المحتمل أن يكون رضوان الوثلي قد تحدث عن أسامة
في قصر الخليفة مع رجال القصر الكبار ، ولهذا من الممكن أن يكون
الجميع في مصر قد رأوا فيه ممثلاً لسورية بقادتها العسكريين ، وانجاسها
السياسي .

عاصر أسامة في مصر خليفتي فاطمين : عاش في أواخر أيام

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار دربورغ ، ص ٣-٤ ؛ الترجمة
الروسية ، ص ٤٧ - ٤٨ .

٢ - أسامة ، الديوان . ص ٢٦٣ .

الخليفة الحافظ^(١) ، وعاصر خلافة الخليفة الظافر .

لم تكن الأحوال السياسية في مصر وقتها متينة مرضية ، فالخلاف على أشده بين الخلفاء ووزرائهم ؛ كل منهم يحاول جاهداً نكالية الآخر وانهاؤه . المؤامرات المتلاحقة الدائمة بمشاركة الجيوش قادت إلى إضماف الاقتصاد في مصر ، مما أدى إلى أن قاسى السكان الكثير من هذا .

لم يشارك أسامة في البداية في هذه الاحداث الانقلابية . ونعتمد أنه كان حذراً ، لم يرد المشاركة في أعمال لم يعرف نتائجها . فرغم قربيه ومكائته عند الخليفة الحافظ لم يحرك ساكناً للتخفيف عن رضوان الوحشي ، الذي قتله الخليفة ، بعد أن حاول الفرار من السجن . ربما أن أسامة قد أراد مقتل رضوان ، ذلك لأنه قد أخذ بشروط اتفاهه معه في سورية .

وحدث بعد ذلك انقلاب عسكري ، مات بعده الخليفة الحافظ ، وغدا خليفة البلاد ابنه الأصغر أبو منصور اسماعيل الظافر بالله^(٢) ،

١ - يكتب ابن خلكان [I ، ص ٨٨ - ٨٩] عن قدوم أسامة إلى مصر في عهد الخليفة الحافظ الذي قدره وقدم له إمكانية العيش الهاديء ، لكنه يؤكد - خطأ - أن أسامة قد نظم مؤامرة ضد هذا الخليفة .

٢ - لقد كان لهذا الخليفة الفاطمي (١١٤٩ - ١١٥٤) من العمر وقتها ثمانية عشر عاماً فقط .

الذي عين وزيره نجم الدين بن مصال ، فلم يرق ذلك للأمير سيف الدين أبي الحسن علي بن السلاّر والي الاسكندرية وقتها ، الذي دخل القاهرة بجنده ، واستولى على قصر الوزير ، وقرب منه أسامة ، وأمكنه في بيته . وتمكن بمساعدة ابن زوجته^(١) عباس وابنه [ابن عباس] ناصر الدين وأسامة أن ينهي ابن مصال ، ويستلم من الخليفة منصب الوزير.^(٢)

١ - أم حاكم بلبيس - عباس [بلاّرة] في زواجها الثاني كانت زوجة ابن السلاّر .

٢ - عن هذه الحوادث انظر (أسامة ، الاعتبار . ص ٦) .

أسامة صغير الى سورية

عندما غدا ابن السلاز وزيراً وجه كل اهتماماته للوقوف بوجهه الافرنج ، الذين بدأوا بتهديد مصر . لقد سعى لتوحيد مصر وسورية لمحاربة الافرنج وقتلهم في فلسطين ، واضعاً في حسابه كل الاحتمالات العسكرية والسياسية . فأرسل أسامة إلى دمشق ؛ إلى نور الدين الزنكي مع اقتراح بالطلب من الزنكي مهاجمة الافرنج في طبرية^(١) ، على أن يهاجم المصريون في ذات الوقت غزة لأن الافرنج بدأوا بتهديدها ، ثم التوجه لمحاصرة عسقلان^(٢) .

سافر أسامة ليعمل على تنفيذ مهمته سفارته في عام ١١٥٠ ، آخذاً معه [٦٠٠٠ دينار مصرية] بأوامر ان يعطيها إلى نور الدين ، فيما إذا هاجم طبرية ، أما إذا لم يتمكن من مهاجمتها ، فعلى أسامة أن يجمع

١ - مدينة في شمالي فلسطين .

٢ - في هذه الفترة كانت عسقلان في الحكم لا تزال تابعة للخلافة الفاطمية ، وكانت آخر حصن للحكم الاسلامي في فلسطين . ووقعت تحت سيطرة الصليبيين لأول مرة عام ١١٥٣ ، في عهد حكم بلدوين الثالث ، حاكم بيت المقدس .

جيشاً تحت إمرته ، ويتقدم به إلى عسقلان ، منتظراً أوامر ابن السلاط .
وصل أسامة إلى بصرى^(١) بعد أن تعرض في طريقه إلى عذاب
شديد كاد يؤدي بجمع المال الذي معه ، والتقى هناك بأمد الدين شيركوه^(٢)
- قائد جند نور الدين ، ثم سافرا بعد ذلك إلى دمشق لاجراء المحادثات
مع نور الدين . لكن جواب نور الدين على مقترحات مصر الذي قاله
لأسامة كان : « فقال لي : يا فلان ، أهل دمشق أعداء ، والافرنج^٣
أعداء ، ما آمن منها إذا دخلت بينها » . عندئذ طلب أسامة من نور
الدين السماح : « بأن أديون من محرومي الجند قوماً آخذهم وأرجع ،
وتنفذ معي رجلاً من أصحابك في ثلاثين فارساً ليكون الاسم لك » .
وتلقى موافقة نور الدين التالية : « قال : « افعل » . فديوت إلى الاثنين
الآخر ثمان مائة وستين فارساً وأخذتهم ، وسرت في وسط بلاد الافرنج^٤
نزل بالبق وزحل بالبق »^(٣). توجه أسامة بعدها إلى عسقلان ، وأمضى
هناك أربعة شهور محارباً الافرنج بمساعدة أخيه عز الدولة أبي الحسن علي^(٤)

-
- ١ - مدينة قديمة في حوران إلى الجنوب من دمشق .
 - ٢ - قائد جند نور الدين الزنكي ، وعم صلاح الدين الأيوبي المشهور
عند الاوروبيين باسم «صلاطين» .
 - ٣ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنورغ ، النص العربي ، ص ١٠ ؛
حتى ، ص ١٤ - ١٥ .
 - ٤ - هو الأخ الأكبر لأسامة ، كان قد ترك شيزر معه وعاش في
دمشق ، ومنذ عام ١١٤٤ في عسقلان ، حيث قتل هناك
عام ١١٥٢ .

وجنوده ، الذين قدموا معه من دمشق . وانصياعاً لأوامر ابن السلار غادر أسامة عسقلان عائداً إلى مصر ، تاركاً فيها أخاه ، حيث عاش أسامة بعد ذلك خمس سنوات في مصر / ٥٤٤ - ٥٤٩ / ، مشتركاً في المؤامرات السياسية ، والانقلابات العسكرية ، التي عانت منها مصر كثيراً في تلك الفترة .

حسب رواية ابن ميسر قام أسامة مباشرة بتحرير عباس (١) على علي أن يستخدم منزلة ابنه ناصر الدين نصر لكونه عشيق الخليفة (٢) . وبعد حصول ناصر الدين على موافقة الظافر ، بشكل خياني دخل إلى بيت ابن السلار : « احتز رأسه ، ومضى به إلى الظافر بالقصر (٣) » . كان هذا - حسب رواية أسامة - يوم الخميس في ٦ محرم لعام ٥٤٨ هـ . وبعد سماع عباس بمقتل ابن السلار (العادل) دخل القاهرة وأصبح وزيراً فيها .

يفهم من هذه الرواية أن أسامة إنما أقنع وحرص عباساً على قتل ابن السلار واحتلاله مكانه . وعلاوة على هذا فإن الظافر لم يحب ابن

١ - لقد كان حاكم بليس ، المدينة الرئيسية في المنطقة الشرقية إلى الشمال الشرقي من القاهرة ، حيث كانت هناك المراكز البرية الأساسية للدفاع عن مصر ضد الصليبيين .

٢ - ابن إياس ، تاريخ مصر ، ٦٥ .

٣ - ابن ميسر ، أخبار مصر ، ص ٩٢ .

السلار كما قال ذلك أسامة :

« كل ذلك والظافر منحرف عنه [عن ابن السلار . و . ط] ،
كاره له ، مضر له الشر ، فعمل على قتله ، وقرر مع جماعة من صبيان
الخاص وغيرهم من استمالتهم وأنفق فيهم أن يهجموا داره ويقتلوه » (١).

ويرى ابن الأثير أيضاً في كتابه « الكامل » ان أسامة هو
ذلك الرجل الذي زين لعباس مقتل العادل زوج أمه . وهذا ما يقوله
ابن خلـكان مع التشديد على اشتراك أسامة بتعرضه على قتل
ابن السلار (٢) . أما أسامة ذاته فلا يمتزف بأي شيء من هذا في حديثه
عن هذه الحادثة . إنه يتحدث ملقياً التهمة على نصر الذي دبر هذا
بالاتفاق مع الظافر ، ولا يشير أبداً إلى معرفته بهذا أم لا (٣) .

إن آراء ابن ميسر ، وابن الأثير عن أمراء مصر واستيحاـشهم
أسامة بعد مقتل ابن السلار متفقة ، إذ يفترضان أن أسامة لمحب دوراً
رئيسياً في مقتل ابن السلار ، حتى إن ابن ميسر يخبر بان أمراء مصر
قد أخذوا يأترون بمقتل أسامة ذاته .

ويؤيد أسامة في براءته بعض البحاثة العرب المعاصرين كمصطفى

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبرغ ، النص العربي ، ص ٦ .

٢ - ابن خلـكان . I ، ص ٥٢٨ .

٣ - أسامة الاعتبار . إصدار درنبرغ ، النص العربي ، ص ١٠٣ .

حجازي^(١) ، وأحمد شاكر^(٢) . ونعتقد - نحن شخصياً - أن أسامة كان قد شارك في مقتل ابن السلار بلا شك ، وأكثر من هذا ، كان أسامة قد فقد تماماً ثقة وزراء مصر بعد سفره منها إلى سورية^(٣) .

اتفق الجميع على أن نصراً قد قتل ابن السلار . وبعد قتله ابتعد كل الأمراء عن نصر وقطعوا علاقتهم به إلا أسامة الذي - خلافاً لهم جميعاً - تابع صداقته معه كما يكتب عن ذلك هو نفسه قائلاً : « وأنا مع ابن عباس (نصر . و . ط) لا يفسح لي في الغيبة عنه ليلاً ولا نهاراً : أنام ورأسي على رأس مخدته »^(٤) .

ومن جهة أخرى فإن جهد أسامة بالسفر إلى سورية ، تاركاً عائلته في مصر ، إنما هو دلالة أكيدة على أنه قد خشي ثأر الأمراء ، غير عارف كم سيبقي صديقه طلائع في السلطة . هذا بجمل ما يدفعنا للتأكيد على مشاركة أسامة في المؤامرة والقتل .

بعد مشاركة أسامة في قتل ابن السلار ، يشارك في مؤامرة

١ - المنازل ، ص ٤٦ . يرى حجازي أن ما يؤكد براءة أسامة هو المراسلات الشعرية بينه وبين ابن رزيك ، والاحترام المتبادل بينهما . [انظر فيما بعد ،] .

٢ - لباب الآداب ، المقدمة ، ص ٢٣ .

٣ - 6. Nikita Eliseeff, Nur ad-Din, p. 577.

٤ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٤ .

أخرى ضد الخليفة الظافر . ويخبر ابن ميسر بأن أسامة قال لعباس :
« كيف تصبر على ما يقول الناس في ولدك ، واتهامهم له بأن الخليفة
يفعل به ما يفعل بالنساء ! » (١) . وبالفعل كان ابنه نصر ملازماً للخليفة ،
ومعاشراً له (٢) .

حسب إخبار ابن ميسر وابن الاثير كان عباس قد طلب نصحاً من
أسامة ، وهذا أشار عليه أن يقتل الخليفة الظافر بمساعدة نصر . لكن
أسامة لم يورد شيئاً عن دوره في القتل ، مورداً بعض الظروف التي
لا إشار إليها في المصادر التاريخية الأخرى . إنه - بقصد تبرئة عباس -
يقول بأن الظافر نفسه كان قد أقنع نصراً بقتل أبيه ، ووعدته بمنصب
الوزارة لقاء ذلك . ونصر بدوره حدث أسامة عن هذا ، لكن أسامة
أجابه : « فقلت (مخاطباً نصراً . و . ط) : « يامولاي ، لا يستتلك
الشيطان وتنخدع لمن يفرك . فما قتل والدك مثل قتل العادل . فلا تفعل
شيئاً تلعن عليه إلى يوم القيامة . فأطرق ، وقاطعني الحديث . وغنما .
فأطلع والده على الأمر ، فإلفقه ، واستماله ، وقرر معه قتل الظافر » (٣) .

-
- ١ - ابن ميسر ، أخبار مصر . ص ٢٢ .
 - ٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٤ ؛
ابن إياس ، تاريخ مصر ، ص ٦٥ .
 - ٣ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٥ ؛
حتى ، ص ، ١٩ - ٢٠ .

هذه هي رواية أسامة عن الحادث ، ويفهم منها أن مقتل الظافر إنما كان بتدبير عباس وابنه بدون مشاركة أسامة في الأمر . لكن ابن تغري بردي (توفي عام ٨٧٤ / ١٤٦٩ - ١٤٧٠ م)^(١) يؤيد رأي ابن ميسر وابن الأثير عن اشتراك أسامة في هذا المقتل .

لقد قتل نصر الظافر يوم الخميس ليلاً في محرم ٥٤٦ هـ ، وألقاه في بئر في دار القصر واتهم عباس أولاد الحافظ في مقتل الظافر ، وبدأ بتقتيلهم . فانقسم الجيش الى أحزاب ، وبدأت بالقتال فيما بينها . أما بنات الحافظ فقد كاتبن طلابع بن رزيك^(٢) ، طالبات منه العون . فاستعد عباس لهذا وخرج من القاهرة ، لكن جيشه قد عصاه ، ووقف ضده ، ووقعت معارك حامية قاسية في شوارع القاهرة يصفها أسامة هكذا : « ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والأزقة : خيالتهم تقاتلنا في الطريق ، ورجلهم يرموننا بالنشاب والحجارة من على السطوحات ، والنساء والصبيان يوموننا بالحجارة من الطاقات . ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى النهار الى العصر . فاستظفر عليهم عباس وفتحوا أبواب القاهرة وانهمزوا . ولحقهم عباس الى أرض مصر فقتل منهم من قتل وعاد إلى داره وأمره

١ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة . إصدار دار الكتب ، ج I ،

ص ٢٨٨ - ٢٩٦ .

٢ - في هذه الأثناء كان حاكماً لعشرية ، في الدلتا العليا ، بالقرب من القاهرة .

ونفيه، (١) .

لقد وعى عباس حقيقة أساسية وهي أن جميع من في مصر يكن له البنض والحد ، فعليه ألا يبقى فيها . ولذا فقد عزم على السفر إلى سورية لطلب مؤازرة نور الدين الزنكي . أما أسامة فقد كانت له صداقة قديمة قوية مع ابن رزيك ، وفي هذه الاثناء تبادلوا الرسائل ، وبعث له ابن رزيك رسلاً تشنيه عن السفر ، طالباً منه البقاء في القاهرة ، راجياً في أن يكون أسامة مساعده .

ولا بد من الإشارة الى أن ابن رزيك لا يعتبر أسامة مشتركاً في مقتل الظافر ، بل على العكس يبرئه . فبعد أن يتكلم في قصيدة شعرية له عن عباس وابنه ويجرمها في قتل الظافر ، متشفياً بمقتلها ، بعد هذا يقول مبرئاً أسامة :

وحاشاكم ، ماختمتم العهد مثله ولا لكم فيما جرى منه من ذنب
ومن مثل ما قدنا لكم من دنوّه يحاذر أن تدنو الصحاح من الجرب

إننا نرى أن في هذين البيتين الدليل الآخر أيضاً على اشتراك أسامة في قتل الظافر ، أو في التحريض على ذلك القتل : المثل العربي

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي : ص ١٦-١٧ ؛
إصدار حتي ، ص ٢٢ .

يقول : « لا دخان بلا نار » ، « والذي لا يأكل ثوماً لا تظهر رائحته ».

فمحاولة ابن رزبك تبرئة أسامة إنما تدل على أن القصر على اطلاع كامل على أعمال أسامة ، وفيه تكلموا كثيراً عن مشاركة أسامة . ولقد أكد ابن رزبك - من حيث لا يدري - خوف أسامة من القصر ، ذلك لأن القصر يعلم عن أسامة أكثر من ابن رزبك الذي لم يكن فيه وقت تلك الأحداث . وعلاوة على هذا فإن أسامة قد دعم عباساً ، وساعده حتى كان قد أودى بحياته في المعارك التي حدثت نتيجة قتل الظافر في شوارع القاهرة .

حتماً ، لقد كان عباس عالماً بعلاقة أسامة بابن رزبك - علاقة الصداقة ، فأراد استخدام هذه الصداقة في أخرج الأوقات صعبة . وعندما قرر السفر إلى سورية ، صمم على أخذ أسامة معه مهما كلفه ذلك ، وعلى أخذ عائلة أسامة أيضاً كيلا يبقى له اتصال بمصر . وأقنع أسامة بالسفر ، فخرجا من القاهرة ، ولكن عندما وصلا إلى بلييس شاهد أسامة الطريق محفوفة بالمخاطر ، ولذا أعاد عائلته إلى ابن رزبك ، الذي استقبلها استقبالا حاراً رائماً ، فأسكنها القصر ، وقدم لها كل ما تحتاجه في الحياة الجيدة .

وخرج عباس وابنه وأسامة مع قسم من الجيش إلى دمشق في عام ١١٥٤/٥٤٩ . كان لزاماً عليهم أن يمروا بمنطقة واقعة تحت نفوذ الافرنج : « وسرنا إلى يوم الأحد ثالث وعشرين ربيع الاول . فصبحنا

الافرنج في جمعهم على المويلح^(١) . فقتلوا عباساً^(٢) ، وابنه حسام الملك ، وأسروا ابيه ناصر الدين وأخذوا خزانته وحرمه . وقتلوا من ظفروا به^(٣) . لقد أخذوا في الاسر أيضاً أخا أسامة نجم الدين أبا عبدالله . أما أسامة نفسه فقد هرب عابراً وادي موسى^(٤) ، وبلغ دمشق ، لكن ابن تفرى بردي يخبر بأن أخت الظافر كاتبت الافرنج في عسقلان، وأعدة إياهم بكمية كبيرة من المال إذا قتلوا عباساً ، فقتلوه وأخذوا هذه الدراهم؛ بعد ذلك طلب ابن رزيك من الافرنج أن يعطوه نصر بن عباس وأعطاهم

-
- ١ - منخفض (مستنقع) بين صحراء سيناء ومرتفعات السعودية .
 - ٢ - هذا يخالف اخبار ابن إياس في كتابه « بدائع الزهور » (ص ٦٦) حيث يقول :

« كان للفائز من العمر ٦ سنوات عندما ولاه عباس الخلافة بعد أن قتل أبيه . هرب عباس إلى الشام ، وفي أثناء الطريق خرجت عليهم طائفة من الافرنج فأسروه ، وأرسل طلائع إلى طائفة الافرنج الذين أسروا الوزير عباساً يطلبه منهم . فأرسل الافرنج عباساً وولده نصرّاً إلى طلائع وهما في الحديد فأمر الفائز بأن يصلب الوزير وولده نصر على باب القصر فصلبا . »

- ٣ - الاعتبار . إصدار حتي ، ص ٢٧ .
- ٤ - وادي موسى واد في شبه الجزيرة العربية .

على هذا كمية كبيرة من الدراهم^(١) . «وقام نساء الظافر بضربه بالقباقيب والزراويل أياماً ، وقعلن لحمه وأطعمنه إياه إلى أن مات ثم صلب»^(٢) .

وهكذا نرى أن حياة أسامة في مصر كانت هادئة في البدء ، بعيدة عن الصراعات السياسية ، ثم غدت - بالتدريج - أكثر تعقيداً وصراعاً . حتى شارك في مؤامرات القصر التي كادت تؤدي بحياته ؛ نهبت داره ، وعاش حياة قاسية ، وقاسى الكثير من الصعوبات ، ولذا قرر السفر من مصر حتى لا يعود إليها بعد ذلك . لقد جاء في شعره ما يلي :

هب أن مصر جنان الخلد ما اشتبهت
نفوس فيها من اللذات موجود
ماذا انتفاعي إذا كانت زخارفها
موجودة ، وحبيب النفس مفقود
وما الحياة لمن بانث أحبته
رضاً ، ولا هو في الأحياء معدود
ويكتب في مكان آخر أيضاً :

١ - يقول نيكيتا خروشچيف بأن ابن رزيك أعطى الافرنج (٦٠٠٠٠) دينار ، انظر :

Nur ad - Din, p. 497

٢ - ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة . ص ٣١٠ - ٣١١ .

خمسون من عمري مضت، لم أتعظ فيها ، كأني كنت عنها غائبا
وأنت عليّ بمصر عشر بعدها كانت عظام كلها وتجاربا
شاهدت من لعب الزمان بأهله وتقلب الدنيا الرقوب عجائبا (١)

١ - أسامة ، الديوان . ص ٢١٥ . [الرقوب : التي لا يعيش لها ولود] [ولد] .

اقامة أسامة الثانية في دمشق

(أسامة ونور الدين)

(٥٤٩ - ٥٥٩ / ١١٥٤ - ١١٦٤)

لقد دخل أسامة دمشق يوم الجمعة (٥ ربيع الثاني ٥٤٩/١٦ حزيران ١١٥٤)^(١) ، بعد أن قطع مع بعض مرافقيه طريقاً شاقاً صعباً . أما دمشق فقد عاشت حينئذ حياة هادئة تحت ظلال سلطة نور الدين ، الذي وحّد جميع سورية ؛ فلم تعد هناك العداوات بين الأمراء الكثر ، وضعفت كثيراً التوترات السياسية ، كما ان الكثير من أولئك الذين هاجروا في عهد الحكم السابق عاد إلى دمشق في عهد حكم نور الدين^(٢) ؛ وبين أولئك المائدين كان أيضاً أسامة ، الذي عاد بعد عشر سنوات غياب في الغربة وهو الآن في الستينات من عمره .

لقد استقبل أسامة نور الدين استقبالاَ حاراً ، وأسكنه قصره . لم

١ - أسامة الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٢١ .

N. Elisseeff, Nur ad-Din, p. 487

- ٢

يكن الآن ابن الصوفي (توفي في ربيع الأول ٥٤٣ / ١١٥٤)
منفس أسامة في عهد أنور . لكن ابن رزيك ، مستخدماً الصداقة
القوية بينه وبين أسامة ، تابع مساعيه في إقناع أسامة بالعودة إلى مصر ،
أما إذا كان لا يرغب في حياة القصر ، فقد وعده باعطائه حكم أسوان .
لقد حدثت أسامة بهذا نور الدين ، فنصحه هذا بأن يبقى بعيداً عن
مصر ، مذكّره بأنه بصعوبة شاقة قد نجا من صعوباتها ومشاكلها ، وحفظ
حياته ، ووعدته بأن يأخذ له من الافرنج السماح بنقل عائلته من مصر
ضمن أراضيهم . وعندما فقد ابن رزيك الأمل بعودة أسامة إلى مصر
ارسل له عائلته رغم محاولات الامراء لابقائها كرهينة ، كيلا يحاول
أسامة بعد توجيه نور الدين ضد مصر ، ولتبقى عائلة أسامة ورقة رابحة
ييد الامراء ضد أسامة .

وصلت عائلة أسامة وأقرباؤه معها ، ومجموعهم خمسون شخصاً ،
إلى ميناء عكا^(٢) الذي كان حيثث في يد الافرنج . حطمت السفينة التي
انتقلوا عليها - بأوامر ملك الافرنجة - ، وسلب كل شيء كان معهم ،
حيث بلغت قيمته التقريبية (٣٠٠٠٠) دينار ، بما في ذلك مكتبة
أسامة المؤلفة مما لا يقل عن (٤٠٠٠) مجلد ، تاركين لهم فقط (٥٠٠)

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٢٥ .

٢ - ميناء إلى الشمال من يافا ، مشهور في الوثائق الاوربية بـ

«Sen-Jan d'Akr»

دينار ثم وجهوهم إلى دمشق .

لقد كان أسامة ، في هذه الايام ، مع نور الدين في أرض
المسعودي(١) . وكتب أسامة بمناسبة هذه الحادثة ما يلي : « وكنت إذ
ذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود رعبان وكيسون.
فهون عليّ ملامة أولادي وأولاد أخي . وحرمتنا ذهب ما ذهب من المال ،
إلا ما ذهب لي من الكتب ، فانها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب
الفاخرة . فان ذهبها حرازة في قلبي ماعشت(٢) ».

وكتب الشعر التالي بهذه المناسبة أيضاً :

إلى الله أشكو فرقة دميت لها جفوني وأذكت بالهموم ضميري
تمادت إلى أن لاذت النفس بالمنى وطارت بها الأشواق كل مطير
فأما قضى الله اللقاء تعرضت مساء دهرى في طريق سرورى(٣)

١ - على الحدود بين كيليكيا وبلاد الرافدين . ومسعود هذا من السلالة
التي تدعى « السلاجقة الروم » التي حكمت عدة مناطق في آسيا
الصغرى (تقريباً حتى ١١٥٦) .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ٢٦ ؛
إصدار حتي ، ص ٣٥ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٨١ - ٨٢ .

٣ - أسامة ، الديوان . ص ٧٦ .

قرر أسامة - وهو في دمشق ، غير بعيد عن شيزر - زيارة
وطنه الأم بعد فراق دام قرابة ثمانية عشر عاماً . وحضر فيها توزيع
ابن عمه على العرش - ناصر الدين محمد بن سلطان ، وأهداه قصيدته
التي يبدؤها بقوله :

يا ناصر الدين، يا ابن الأكرمين ومن يغني ندى كفه عن وابل الديم (١)

ويطلب فيها من ابن عمه أن يفتدي أخاه نجم الدين من الافرنج ، لكن
ناصر امتنع عن هذا مما أدى إلى فتور العلاقة بينها ، رغم جميع محاولات
أسامة أن يبقى في صداقة مع ناصر الدين والمقربين منه ، ذلك لأنه كان
مؤمناً على الدوام ، بالمحافظة على علاقات قوية متينة مع أصدقائه ، وبخاصة
أقربائه .

لكن القدر كان قد خبأ له فاجعة كبيرة ، ومصيبة فادحة ، حيث
لم يمض عامان على وجوده في دمشق حتى حدثت الزلازل الحادة في عام
١١٥٧/٥٥٢ ، التي هدمت كثيراً من مدن سورية بما فيها شيزر ،
وقضي تقريباً ، على جميع أقربائه .

لقد اجتاحت شمال سورية هزتان أرضيتان عنيفتان في مدة عشرة
أيام من ٢٥ جمادى الأولى إلى ٤ جمادى الثانية . وبعد ٩ شعبان / ٢٧
أيلول ١١٥٦ أصابت الزلازل حلب ، وحوض نهر الماصي . وبحسب

١ - أسامة ، الديوان . ص ١٤٩ .

إخبار ابن خلدون حدثت سبعة زلازل ، أخطرها وأقواها دمر حلب
وكفر طاب وأفاميا وشيزر وحماة وحمص . وبشير أيضاً إلى زلزال قوي
حدث في رجب ٥٥٢/١١٥٧ .

في هذه المرة الأخيرة تخطمت وتهدمت جميع البيوت والقلاع
والحصون الحربية التي كان قد أصابها المطب فقط في الزلازل السابقة .
وتوفي معظم السكان أو هاجروا إلى القرى ، وأخطر هذه الزلازل كان
في حماة وشيزر ؛ وفيها قال أحد شعراء تلك الحقبة :

روعتنا زلازل حادثات بقضاء قضاء رب السماء
هدمت حصن شيزر وحماة أهلكت أهله لسوء القضاء

كان في هذه الأثناء ، في حصن شيزر ، حفل عائلي : اقدا اجتماع
جميع بني منقذ ليعلموا حفلة ختان ابن تاج الدولة محمد بن سلطان .
وكان أحد الحصن مربوطاً في مدخل القلعة ، فعندما بدأ الزلازل
اضطرب الحصان ، وهاج . وفي هذا الوقت أراد أحد الضيوف الخروج
فترك القاعة إلى الدهليز حيث الحصان الهائج ، فقتل بضربة من رجل
الحصان ، وسد المخرج بالحصان والمقتول^(١) ، اللذين عاقا المجتمعين في القاعة
من الخروج . لقد قتل الجميع تحت الانقراض عدا الخاقون - زوجة

١ - أبو شامة ، ص ١٠٣ - ١٠٥ .

الأمير تاج الدولة التي أنقذت من تحت هذه الأنقاض^(١) ، وأولئك الذين كانوا خارج شيزر مثل أسامة وابنه أبي الفوارس ، وأخيه^(٢) ، وشرف الدولة ابن سلطان صهر الخاتون .

لقد كتب أسامة قصائده المصبوغة دماً ودموعاً ، يبكي فيها المصاب والنكبة وفقدان الوطن والأهل ، الذين هلكوا دفعة واحدة . تاركين له الحزن والألم والأسى^(٣) . لقد مجد في هذه القصيدة عزهم ،

١ - ابن خلكان ، فوات . ح ١ ص ٥٢٣ ؛ ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، VIII ، ٢٢٨ - ٢٢٩ ؛ الاعتبار ، المقدمة ، إصدارحتي .
٢ - نيكيتا يليسيف يخطئ ، إذ يقول « لقد نجا فقط زوجة الأمير ، وصهرها شرف الدولة ابن سلطان وأسامة » . من المشهور أن ابن أسامة أبا الفوارس كان في دمشق قائداً عسكرياً عند صلاح الدين الذي حكمها فيما بعد .

٣ - أسامة ، الديوان . ص ٣٠٧ . قال أسامة :

قالوا : تأس ، وما قالوا : بمن ، وإذا أفردت بالرزء ما أنفك أسوانا
ما استدرج الموت قوماً في هلاكهم ولا تخرمهم مشى ووحداً
ماتوا جميعاً كرجع الظرف وانقرضوا هل ماترى تارك للعين إنساناً
يقول بالظن إذ لم يدر ما خلقي ولا محافظتي من حان أوبانا :

وذكرهم بمجدهم القديم ، وأسف لحياته بعدهم ، إذ إنه يبحث عن المواساة
ويدفع عن نفسه ظن من يظن شماته بأقربائه في هذه الكارثة ، ثم ختم
القصيدة بالدعاء لهم .

ترك هذا الحادث المؤلم صدى قوياً في شعره ، فأقضى مضجعه ،
وخلده شعراً بأنساً حزيناً أسود ، تنبث فيه روح الحكمة والتصبر
والمواساة ، وكان بداية حزينة مؤلمة ، ودافعاً أساسياً لانتاج أدبي قيم هو
كتاب « المنازل والديار » .

أما صلة أسامة بالملك الصالح طلائع بن رزيك ، فقد بقيت مستمرة
على احسن حال ، وعندما قطع الاحير الامل بقدم أسامة إليه ، إلى

→
أسامة لم يسوه فقد معشره كم أوغروا صدره غيظاً وأضعفانا
ومادري أن في قلبي لفقدهم ناراً تلظى وفي الأجفان طوفانا
بنو أبي ، وبنو عمي ، دمي دمهم وإن أروني مناواة وشنآنا
كانوا سيوفي ، إذا نازلت حادثة وجنتي ، حين القى الخطب عريانا
سقى ثرى أو دعوه رحمة ملأت مشوى قبورهم روحاً وريحانا
[الأسوان : الحزين ؛ تخرمهم : استأصلهم ؛ حان : هلك ؛
الأضعمان ؛ جمع ضغن وهو الحقد ؛ الشنآن : البغض] .

مصر ، بدأ بكتابه برسائل شعرية تنضح ودأً مكينا بينها ، وأعجاب كل منها بصاحبه اكبر الاعجاب . فمضت قصائد الصالح إلى أسامة تدعوه إلى مصر حيناً ، وتعتب عليه إثارة البعد عنها حيناً آخر ، وتأخذ عليه حيانه ، قلة مراسلاته . وكثيراً ما حدثته الصالح بأقلام به من حروب مع الافرنج ، وطلب منه أن يكون وساطته عند نور الدين كي يجتمعا على حرب الصليبيين . وشارك الصالح أسامة فيما نزل به من أحداث قاسية في حياته . وكان ممجياً بواهب أسامة في الحرب والسلام ، يراه محارباً شجاعاً ، وشاعراً مفلقاً ، وخطيباً بارعاً ، وحكيماً في إبداء الرأي . قال طلائع :

رجاء المدو بالفعل والتقو ل ، على كل مسلم ، مكتوب
ولك الرتبة العلية في الأم رين، مذ كمنت إذ نشبت حروب
أنت فيها الشجاع، مالك في الطم ن ولا في الضراب يوماً ضريب
وإذا ما حرصت فالشاعر فيه كما تهوله والخطيب
وإذا ما أشرت فالحزم لا ينكر أن التدبير منك مصيب

بالإضافة إلى علاقات الصداقة والود بين ابن رزيك وأسامه ، فقد تركز هدف ابن رزيك السياسي أن يقوم أسامة بدور الوسيط بين نور الدين الزنكي بالاتفاق معاً على حرب الصليبيين في وقت واحد حتى تنشبت وحدة الصليبيين ، وفي نظره أن أسامة خير من يحمل عبء هذه الرسالة :

والق عنا رسالة عند نور الدين من ما في إلقتها ما يريب
قصدا أن يكون منا ومنكم أجل في مسيرنا مضروب
ويقول أيضاً :

فلو ان نور الدين يج حل فعلنا فيهم مثلاً
لرأيت للفرنجة ط رأ في معاقبها اعتقلاً

لكن سياسة نور الدين في هذه الآونة كانت سياسة التريث ،
وذلك لأنه كان منشغلاً بتمتين وتوطيد سلطته في سورية ، والوقوف بحزم
ضد الصليبيين ، وبخاصة في المناطق الشالية منها . ففي انطاكيه - مثلاً -
كانت القوة الكبيرة للفرنجة ، لذلك فان نور الدين لم يفكر في بيت
المقدس ، وفي مصر ، التي كانت بعيدة عن سلطته . وكانت وساطة
أسامة عنده ، كما يرى بوضوح ، غير ناجحة ، لذلك فان أسامة
يتباطأ في الرد على مراسلات ابن رزيك ، الذي يشكو منه هذا التباطؤ ،
وعدم التأثير على نور الدين . ويكتب ابن رزيك في هذا قائلاً :

قل لابن منقذ الذي قد حاز في الفضل الكمالا
كم قد بعثنا نحوك الأ شعار مسرعة عجالا
وصددت عنها حين را مت من محاسنك الوصالا

هلا بذلت لنا مقاً لا حين لم تبذل فعلاً
مع أننا نوليك صبراً في المودة واحتمالاً

فلجابه أسامة راداً على عتبه ، مشيراً إلى رغبته في الوحدة ،
وحدة القوى السياسية والعسكرية (١) .

إن المصادر التاريخية لا تتحدث بشيء ، ولا تشير إلى اشتراك
أسامة في غزوات نور الدين ضد الصليبيين ، ولعل ذلك لأن أسامة في
هذا الوقت كان قد ناهز السبعين . لكن أبو شامة ، معتمداً على اقتباسه
من ابن الأثير ، يخبر عن مشاركة أسامة في حصار حارم في نهاية عام
١١٦٢/٥٥٧ ؛ « إنه (أسامة . و . ط) كان من الشجاعة التي
لا مزيد عليها » (٢) .

ويشير أبو شامة إلى أن أسامة وهو عائد من هذه الحملة ، دخل
أحد المساجد في حلب ، وكتب على جدرانها الأشعار التالية ، التي
تتحدث عن مشاركته في الحملة ، وزيارته لهذا المسجد في العام الماضي، وهو
في طريقه إلى الحج :

١ - من أجل التفصيل في هذه المراسلات الشعرية ، انظر : أبو شامة ،

I ، ص ١١٥ - ١٢٠ .

٢ - أبو شامة ، I ، ص ١٢٧ .

لك الحمد يا مولاي، كم لك منّةٌ عليّ ، وفضلاً لا يقوم به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلاً من الغزو، موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلتُ العيس في عامي الذي مضى نحو بيت الله ذي الركن والحجر (١)
فأديتُ مفروضي ، وأسقطت ثقل ما
تحملتُ من وزرِ السنين على ظهري (٢)

من السبعين نقطة تحول خطيرة في حياة أسامة . إنه يصف
ضعفه الشديد فيها ، حيث ان السبعين لم تترك له أملاً في القتال ،
وحطمت قواه وأوهنتها ، رغم أنه شهد المعارك الضروس التي تمّنى لو
قتل في إحداها ، فكان ذلك المقتل أفضل له من أن يعيش عاجزاً ،
لأن القتل في المعركة أفضل للانسان من أن يهرم وبشيخ .

عاش أسامة حياة طويلة مملوءة بالحوادث والشجاعة والقوة وكان
سيفه دائماً الشاهد الأصدق على شجاعته في المارك ، والآن - في
السبعينات - بكل أسف وألم ، يتذكر أيام الماضي المملوءة بالانتصارات
والبطولات ، بالقوة والمجد والشهرة ، خلافاً لحالته الراهنة . إنه بشدة

١ - الحجر - مكان محدد في جامع مكة المكرمة الى الشمال الغربي من
الكعبة .

٢ - أسامة ، الديوان . ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

تقت شيخوخته ، لأنها قد سلبته قوته ، وغطت رأسه شيئا ، وقومت
ظهره ، كما أضعفت يديه ورجليه ، وأهانت أمانته أمام الناس :

لم تترك السبعون في إقبالها مني سوى مالا عليه معول
حتى إذا ما عامها عني انقضى ووطئت في العام الذي يستقبل
حطمت قواي، وأوهنت من نهضتي وكذا بمن طلب السلامة تفعل
والقتل أحسن بالفتى من قبل أن يبلى ، ويفنيه الزمان ، وأجل
وأريك ما أحجمت عن خوض الردى في الحرب، يشهد لي بذلك المنصل (١)

وهو في السبعين يتحدث حديث حكيم عاركة الأيام ، ووعظته
التجارب ، ثم ينتهي ليعظ غيره ، ويخاطب ابن السبعين الذي عاد إلى
شرب الخمر (٢) بعد توبته ونسكه فأفسد بذلك دينه ، كما أن السبعين أفسدت
دنياه ، وغدا كالفيخار الذي إذا تكسر لانقع فيه . ثم يخاطب ابن
السبعين الذي لم يقدم على التوبة بعد . ويطلب منه ألا تخدعه الأمانى
فقد تحمل أوزار السنين ، وفعل المعاصي ، وأشرف على الهرم والموت ،
فأفل ربيعته ، ولم يبق منه إلا الهشيم ، حيث بعدت أيام الصبا ، وبقي
له الشيب الشنيع :

١ - أسامة . الديوان . ص ٢٧٠ - ٢٧١ . [المنصل : السيف] .

٢ - لم يعرف عن أسامة أنه شرب الخمر .

مامع السبعين تسويفٌ ، ولا يخذعنك الأمل الواهي الخدوع
ثم أفضت مدة الشيب إلى هرم يعقبه الموت الشنيع (١)

وها هو في السبعينات قد غدا مرعى ذاوياً ياست أغصانه وذبلت
وتناثرت أوراقه ، وخاتمه رجلاه فلن يقوى بعد على الركوب والقتال ،
خلفاً لما كان عليه سابقاً ، حيث كان أول الملبين لدعاء القتال والوغى ،
كاشفاً بسيفه الماضي ظلمة الوغى ونقعهما ، منازل الأبطال الصناديد الذين
يترامون من رعبهم قبل ضربه لهم . مرت هذه الايام مخلقة فيه الصبر على
المصاعب ، حيث لاقى الرازي دائماً بقوة وصبر ، وبغزم صادق لم يخنه قط :

رجلاي والسبعون قد أوهنت قواي عن سعيي إلى الحرب
وكنت ، إن ثوب داعي الوغى لبتيته بالطعن والضرب
ما خائي عزمي ولا عزني صبري ، ولا ارتاح لها قلبي (٢)

والايام تأتي بالشيء العجيب ، فبعد قوته وشجاعته وجبروته
اضطرته بعد عامه السبعين وهو من اعتاد حمل السلاح والقتال ، اضطرته

١ - أسامة الديوان . ص ٢٨٧ .

٢ - أسامة ، الديوان . ص ٢٠٨ . [الثوب : الدعاء ؛ عزني : غلبني
فلم يطعني] .

إلى حمل العصا للاعتماد عليها ، لانه لا يقوى على حمل ذاته . إنها خطيئة الموت الذي لم يعالجه ، وتركه حتى غدت حياته موتاً بطيئاً :

فرجعتُ أحمل بعد سبعين العصا فاعجب لما تأتني به الأيام
وإذا الحمامُ أبى معاجلة الفتى فحياته، لا تكذبُ بنِ حمام (١)

ثم يصف عصاه التي لازمته بعد عامه السبعين ، وتحملت ثقله تحمل المتكاره ، وقادته وكأنها انسان تعب عيي ، يحمل ثقلاً ووزراً كبيرين ، لا يقوى على النهوض ، مكبلاً بتمثراته المتلاحقة ، إن هذه العصا نعت من ثقل ما ألقاه الشباب عليه من المصاعب والمتاعب :

حملتُ ثقلها بعدما شبت العصا فتحملته تحمل المتكاره
ومشت به مشي الحسير بوقره لا يستقل ، مقيداً بعشاره (٢)

إن السبعين أضعفت قواه ، ووخطت رأسه شيباً ، فتقوس ظهره ، وامتد البلاء إلى يده ، التي غدت في رجفان دائم ، حيث لم تقو على الكتابة ، فخطه مضطرب . إنه عامه السبعون الذي أنقص من قيمته بين الناس ، وغير كثيراً من صفاته ؛ وما أجل الموت حيث يكون خلاصاً من أذى الحياة الضعيفة :

١ - أسامة ، الديوان . ص ٢٧٣ .

٢ - أسامة ، الديوان . ص ٢٧٥ . [حسر : أعيا ، فهو - حسير ؛ الورق

بالكسر : الحمل الثقيل ؛ يستقل : ينهض] .

نكسستُ في الخلق، وخطتني السبعون لما أن علتُ سني
وغيّرتُ خطي فأضحى كما ترى ، وكم قد غيرت مني
والموت فيه راحة من أذى الدُّنيا ، فما أغفله عني؟ (١)

لم ترق الحياة لأسامة في دمشق أكثر من ذلك ، لأن التقاليد الرسمية وواجبات القصر تتطلب منه خدمة السلطان ، والمشاركة في الحياة السياسية . إن أشعار هذه المرحلة عند أسامة لتدل على عدم وجود انفاق كامل بينه وبين نور الدين ، كل منهما كان يحتفظ بوجهة نظره السياسية . فنور الدين لم يقبل وساطة أسامة التي كلفه بها ابن رزبك بشأن الوحدة بين مصر وسورية لاسترداد القدس . ولم يهتم بهذه الخطة ، مما جعل التباين بينه وبين أسامة في ازدياد ، أضف إلى هذا أنه ربما قد انضمت المواقف العدائية التي كانت سابقة بين أسامة وعماد الدين - والد نور الدين ، والملاقة الوثيقة بين أسامة والامراء الاتراك في دمشق ، الذين كانوا ضد عماد الدين ، نقول ربما انضمت كل هذه المواقف إلى أسباب زيادة الفتور بين أسامة ونور الدين . وعلاوة على هذا فقد كان نور الدين زاهداً جداً ، لم يحب الشعراء ، ولم يتهيج لمديحهم ، لما علمه من تزيد الشعراء به (٢) ، والناس مثله قد زهدوا ، حتى غدت أيامه

١ - أسامة ، الديوان . ص ٢٧٤ .

٢ - أبو شاقة ، I ، ص ٢٢٩ .

مثل شهر الصوم ، ليس فيها إلا الجوع والعطش :

أميرنا زاهدٌ والناس قد زهدوا له ، فـكل على الطاعات منكمش
أيامه ، مثل شهر الصوم، ظاهرة من المعاصي وفيها الجوعُ والعطش (١)

كل هذه الأسباب مجتمعة قد أجبرت أسامة على قبول دعوة فخر
الدين أرسلان (٢) صاحب حصن كيفا . لقد طلب أسامة من نور الدين
السماح له بالسفر ، فوافق له برغبة كبيرة (٣) . وبلغنص أسامة حاله في
دمشق بما يلي :

«كنت أظن أن الزمان لا يبلى جديدة ، ولا يبلى شديدة ،
وأني إذا عدت إلى الشام وجدت به أيامي كمـيدي ، ماغيرها
الزمان بعدي . فلما عدت كذبتني وعود الطامع ، وكان ذلك الظن كالسراب
اللامع» (٤) .

١ - أسامة ، الديوان . ص ١٥٨ ، أبو شامة ، ص ٢٢٩ .

٢ - أمير حصن كيفا في ديار بكر في تركية بالقرب من الحدود الشمالية
السورية .

٣ - زكي ، أ . أسامة ، ص ١٥٨ .

٤ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورخ ، النص العربي ، ص ١٣٠ ،
إصدار حتي ، ص ١٦١ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٢٤٨ .

أسامة في حصن كيفا

(٥٥٩ - ٥٧٠ / ١١٦٤ - ١١٧٤)

ان تشابهاً كبيراً بين طبيعة ديار بكر وطبيعة شيزر ، حيث عاش أسامة في طفولته : انه يعيش هنا في حصن مشابه لحصن شيزر ، مياه دجلة تذكره بمياه العاصي ، والطبيعة تدعوه للصيد حيث يخرج اليه مع حاكم الحصن فخر الدين^(١) . وربما اختار أسامة هذا المكان ليكون بعيداً عن قصر السلطان ، وليستخدم المكتبات المحلية الفنية . لقد كتب أبو شامة « وكان فيها (آمد) ، خزانة كتب فيها ألف ألف وأربعمائة كتاباً »^(٢) .

ان المدة التي قضاها أسامة في حصن كيفا هي حقبة البحث والدرس والتأليف فهي التي خللته علمياً في التاريخ ، إذ فرغ للتأليف

١ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ص ١٢٠ ،

الترجمة الروسية ص ١٤٣ .

٢ - أبو شامة ، II ، ص ٣٩ .

حين جاوز السبعين ، وبقي هذا همه أكثر من ٢٥ سنة ، أنه هنا يدرس العلوم ويؤلف مؤلفاته الاساسية ، التي بفضلها أصبح مشهوراً لدينا كأديب وعالم .

يبقى غير واضح رأي أسامة وعلاقته بسعي فخر الدين أرسلان للاستيلاء على حصن آمد المحصن القوي ، الذي وصفه ناصر خسرو : « وقد رأيت كثيراً من المدن والقلاع في أطراف العالم ، في بلاد العرب والمجمل والهند والترك ولكي لم أرقط مثل مدينة آمد في أي مكان على وجه الأرض ولا سمعت من أحد أنه رأى مكاناً آخر مثلها^(١) .

لقد قرر فخر الدين أن يستولي على حصن آمد ، عندما كان أسامة فيه . والمصادر التاريخية تصمت عن دور أسامة في هذه الحملة ؛ أكان بعيداً عن كل هذا ؟ أم أنه شارك في محاولة الاستيلاء على الحصن ؟ أم حرض على ذلك ؟

لقد عاش أخو أسامة أبو المغيث في هذا الوقت في آمد ، وغير مشهور أنه كان هناك اتفاق بين أسامة وأخيه في مساعدة فخر الدين . ان هذا السؤال يبقى دون جواب ، لان المصادر تصمت عن ذلك ، رغم أن أسامة يحدث عن هذه الحوادث ، مشيراً الى أن فخر الدين اعتمد على الامير الكردي ، الذي عاش في آمد ، ويعزو فشل هذه الحملة إلى

١ - ناصر خسرو ، سفر نامه ، ٨ - ٩ .

أن فخر الدين لم يثمد على الامراء الكبار (١) .

توفي فخر الدين في عام ٥٦٢ / ١١٦٧ ، وخلفه ابنه الذي لم تكن علاقته مع أسامة كعلاقة والده من قبله ، مما سبب ازعاج أسامة ، لذا نجده يسافر بين مدن شهلي سورية يتقرب من الفقهاء والنسك والزهاد ، ويتوضح عنده بشكل أكثر أنه لم يعد صالحاً لمعاشرة الملوك والسلاطين . انه يكتب :

« أعجزني وهن السنين ، عن خدمة السلاطين . فهجرت مفشى أبولهم ، وقطعت أسباني من أسبابهم ، واستقلت من خدمتهم ، ورددت عليهم ما خولوني من نعمهم ، لعلمي أن ضعف الهرم لا يقوى على تكاليف الخدم ، وإن سوق الشيخ الكبير ، لا ينفق على الأمير ، ولزمت داري ، وجعلت الخول شماري . ورضيت نفسي بالانفراد في الغربة ، ومفارقة الأماكن والتربة ، إلى أن تسكن نفارتها عن مرارتها . وصبرت صبر الأمير على قبره ، والظمان ذي الغلة عن ورده . » (٢)

في هذا الوقت عندما كان لأسامة من العمر أكثر من ٧٤ عاماً ولدت له طفلة سماها فروة . لقد جلب لأسامة ميلادها الحزن والهموم ، ذلك لأنه طول الوقت غدا يفكر بمستقبلها وبايتم الذي ينتظرها :

١ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنبرغ ، ص ٦٢ .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار درنبرغ ، ص ١٢٢ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٢٥٢ .

رزقت فروة والسبعون تخبرها أن سوف تبتهم عن قرب ، وتنعاني
وهي الضميمة ماتنفك كاسفة ذليلة ، تمتري دمعى وأحزاني

الى أسامة وهو في حصن كيفا ، وصلت الاخبار عن صلاح الدين ، الذي كان قد صادق في بلاط نور الدين ، عن انتصاراته ، وتدعيم حكمه في مصر . سرّ بهذا ، وأرسل اليه القصائد الشعرية ، المقولة في تمجيد هذه الانتصارات . وعبر فيها عن إعجابه ببطولة صلاح الدين ، وطالبه بالهجوم على الافرنج في سورية . اكن لم تكن أمثال هذه التطلعات حينئذ عند صلاح الدين ، ذلك لان الفاطميين لم يتخلوا له بسهولة عن السلطة في مصر ، التي دوجت أيضاً من قبل الافرنج مما شغله عن التفكير بسورية .

اقد كان أسامة ينتظر دعوة من صلاح الدين للقدوم الى مصر ، آملاً بذلك ، للمكانة الرفيعة التي يشغلها ابنه مرهف ، الذي كان المرافق الدائم ، وقائد جند عند صلاح الدين . لكن صلاح الدين لم يدعه اليه للأسباب التالية كما نفترض :

لقد عرف صلاح الدين بأن أسامة شخص غير مرضي عنه في مصر ، إذ يعرف موقف المصريين منه لاشتراكه في مقتل الخليفة الفاطمي ، فلم ير من حسن السياسة وهو حديث العهد بالحكم أن يدعو من اتهم بقتل خليفة فاطمي سابق ، وكذلك فان الصلة بين أسامة ونور الدين لم تكن لتشجع صلاح على إظهار العطف على أسامة ، وصلاح

الدين مدين لنور الدين بسلطانه في مصر ، أضيف الى ذلك أن أسامة
قد بلغ الثمانين ولم يعد له من النشاط والقوة ما يمكن صلاح الدين من
الاعتماد عليه في ظروفه العصيبة ، حيث خارت قواه ، وأخذ إلى السكينة ،
ولم يستطع حتى السير على عصاه ، والامور تسير من سيء إلى أسوأ حتى إنه
يضطر إلى الصلاة وهو قاعد ، ويتعذر عليه السجود :

مع الثمانين عاث الدهر في جلدي وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
إذا كتبت فدخلني جدم مضطرب كخط مرتعش الكفين مرتعد
فأعجب لضعف يدي عن حماها قاماً من بعد حطم القناني لبنة الأسد
وإن مشيت وفي كفي العصا ثقلت رجلي كأنني أخوض الوحل في الجلد
فقل لمن يتمنى طول مدته هذي عواقب طول العمر والمدد
وقال أيضاً :

تناستني الآجال حتى كأنني دريئة سفر بالفلاة حسير^١
ولما تدع مني الثمانون منة كأنني اذارمتُ القيام كسير^٢
أؤدي صلاتي قاعدا وسجودها عليّ إذا رمتُ السجود عسير^٣
وقد أنذرتني هذه الحال أنني دنتُ رحلة مني وحن مسير^(١)

١ - العهد الاصفهاني ، الخريدة ، ج - ١ ، ص ٥٢٩ ؛ هذه القصيدة

لم ترد في ديوان أسامة ، انظر أيضاً : الاعتبار ، إصدار حتي ،

ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

لقد تغيرت الظروف والاحداث ثانية ، بعد وفاة نور الدين ، فقد
قدم صلاح الدين إلى دمشق ، ووجد سورية ومصر تحت سلطته بهدف
تجميع القوى ضد الافرنج . وبسمع أسامة بأن دمشق وطنه الثاني
أصبحت بيد صديقه القديم صلاح الدين ، ويكتب ابنه أبا الفوارس بأن
يسمى لدى صلاح الدين لدعوته إلى دمشق وتصبح الامور مؤاتية
كلها . فيرسل إليه صلاح الدين كتاباً يرحب به في دمشق كصديق قديم
وأمر يعتز به . ويغادر حصن كيفا إلى دمشق ليمش بقية حياته وليقضي
نجه فيها .

★ ★ ★

اقامة ايامه الثالثه بدمشق

أسامة وصلاح الدين ٥٧٠ - ٥٨٤ / ١١٧٤ - ١١٨٨

يبدو من شعر أسامة أنه عاش في أواخر أيامه في ضيق مادي ، وهذا ما يرى في قصيدته التي أرسل بها من حصن كيفا إلى ابنه أبي الفوارس في دمشق شاكياً إليه العوز والفقر وعدم تمكنه من الكرم والعطاء ، وشدة ألمه لذلك :

أبا الفوارس مالا قيت من زمني أشدّ من قبضة كفي من الجود
فعدت ان هزّني جانٍ تعود أن يجني نداي رأني يابس العود (١)

لكن استدعاء صلاح الدين إلى دمشق وأهداء بيتاً ، ووهبه هبات كثيرة ، وأقطعه قرية في المرة ، التي كانت ، كما يقول أسامة ، من ممتلكاته سابقاً : « تقب عني في البلاد ودوني الحزن والسهل ، بمضيعة من الأرض لا مال لدي ولا أهل . فاستنقذني من أنياب النوائب برأيه

١ - الخريدة ، إصدار درنبورغ ، ص ١٢٧ .

الجميل ، وحلني إلى بابه العالي بانعامه القاهر الجزيل ، وجبر ما هاضه الزمان مني ، ونفق على كرمه ماكسد علي من سواء من علومني . فغمرني بغرائب الرغائب ، وأهأنني ، من إنعامه أهني المواهب ، حتى رعى لي بفائض الكرم ، ما أسلفت سواء من الخدم . فهو يعتد لي بذلك ويرعاه ، رعاية من كأنه شاهده ورآه . فعطاياه تطرقي وأنا راقد ، وتسري إلي وأنا محتبس قاعد فأنا من إنعامه كل يوم في مزيد ، وإكرام كتكرمة الأهل وأنا أقل من العبيد . أمتني جميل رأيه حادث الحادثات ، وأخلف لي إنعامه ما سلبه الزمان بالانكبات المجحفات . وأفاض علي من نوافل فضله بعد تأدية فرضه وسفته ، من يعجز الأعناق عن حمل أيسر منته . ولم يبق لي جوده أملا أرجو نيله ، أقضي زماني بالدعاء به نهاره وليله . والرحمة التي تدارك بها البلاد ، وأحيى ببركاتها العباد . (٢)

لقد جالس أسامة صلاح الدين ، وتكلم معه على الأدب ، وأعطاه النصائح في الحوادث الهامة . كما أن صلاح الدين كاتبه إذا كان بعيداً عن دمشق في حملاته ، مخبراً عن نتائج معاركه . وقد كان دوماً معجباً بديوان أسامة ، يصطحبه ولو كان خارجاً للغزوات (٣) . وكان يلعب معه بالشطرنج في أوقات فراغه .

١ - أبو شامة ، I ، ص ٢٦٤ .

٢ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار درنبورغ ، النص العربي ، ١٥٣ ؛ الترجمة الروسية ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

٣ - أبو شامة ، ص ٢٤٢ ؛ والنعمي ، الدارس ، I ، ص ٣٨٤ .

لقد عاش أسامة في هذه المدة حياة رَف و غنى ، وبدأ يلقي دروساً في البديع .

ولعدم اشتراكه بالفزوات كان يواسي نفسه باشتراك ابنه فيها - الساعد الأيمن لصلاح الدين ، وكذلك نظمهُ الشعر مفتخراً بمناسبات الانتصارات ، ومحادثاته مع عماد الدين الأصفهاني . قال مادحا صلاح الدين بقصيدة عصماء ، مبيناً كرمه وجهاده وانتصاراته ، مغالعبها :

يأناصر الاسلام حين تخاذلت عنه الملوك ، ومظهر الايمان
جردت سيفك في العدا لارغبة في الملك بل في طاعة الرحمن
فضربتهم ضرب الفرائب واضعاً بالسيف مارفعوا من الصليبان

لكن علاقة أسامة بصلاح الدين أصيبت مع الزمن بالفتور والبرودة، حتى إنه كان مجبراً على الإقامة الدائمة في بيته ، وكاتب العهاد الأصفهاني ليكون وسيطاً بينه وبين صلاح الدين . ومن المحتمل أن يكون سبب هذا الفتور عائداً الى الميول الشيعية عند أسامة ، التي غذتها حياته بين ظهري الخلافة الفاطمية في مصر ، والتي أثرت في أفكاره ومعتقداته الدينية ؛ وكان هذا التأثير واضحاً ايضاً في المحاضرات التي كان قد ألقاها في دمشق في ذلك الوقت . بقول (الذهبي) إن أسامة كان شيعياً إمامياً . وكذلك يذكر (العاملي) أن الأشعار التالية إنما تنسب إلى أسامة :

سلام على أهل الكساء هداتي ومن طاب محيائي بهم ومماتي
محبتهم لي حجة وولاهم ألاقى بها الرحمن عند وفاتي (١)

ومن المشهور أن صلاح الدين كان من مؤيدي المذهب السنّي
« نصير السنة ، ومحبي دولة أمير المؤمنين وسنة الخلفاء الراشدين » (٢) .

ولذا ازوى أسامة في بيته بترقب موته بعد أن أذاقته الأيام
مرارة الاغتراب ، بعيداً عن وطنه ، وفي ألم كامل شديد :

أنا في أهل دمشق وهم عدد الرمل وحيد ذو انفراد
ليس لي منهم أليف وشجت بيننا الألفة أسباب الوداد
يُحسبوني إن رأوني وافداً قد أتاهم من بقايا قوم عاد
وانفرادي رشد لي والهوى أبداً يصرف عن سبل الرشاد

وها هو يصف نفسه بعد أن صار له من العمر ما يزيد على
التسعين ، بالضعف العام وضعف السمع والبصر :

١ - العاملي ، أعيان الشيعة ، ج XI ، ص ١٣ .

٢ - أسامة ، الاعتبار . إصدار حتي ، ص ١٦٤ .

لما بلغت من الحياة إلى مدى قد كنت أهواه تمنيت الردى
لم يبق طول العمر مني منة ألقى بها صرف الزمان إذا اعتدا
ضعفت قواي وخانني الثقتان من بصري وسمعي حين شارفت المدى
فاذا نهضت حسبت أني حامل جبلا وأمشي إن مشيت مقيدا
وأدب في كفي العصا، وعهدتها في الحرب تحمل اسمرا ومهندا
وأيت في لين المهاد مسهدا قلقاً كأنني افترشت الجلدا
والمرء ينكس في الحياة وبينما بلغ الكمال وثم عاد كما بدا (١)

لقد قضى أسامة باقي أيام حياته الأخيرة في دمشق منتظراً موته ،
ومات يوم الثلاثاء ليلاً ، ٢٣ رمضان ٥٨٤ / « تشرين ثاني ١١٨٨ (٢) .
بعد أن عاش ٩٦ سنة قرية أو ٩٣ سنة شمسية ، ودفن في جبل قاسيون
في سفحه المطل على دمشق ، . قال ابن خلكان : «وقد دخلت تربته
وهي على جانب النهر يزيد الشاهلي ، وقرات عنده شيئاً من القرآن وترجحت
عليه » .

قبره كغيره من القبور هناك قد اندثر وقامت مكانه بنايات

١ - الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ١٦١ .

٢ - ابن خلكان ، فوات ، > I ، ص ٨٨ ؛ ياقوت ، معجم
الأدباء ، > II ، ص ١٧٤ ، أبو شامة ، > I ، ص ٢٦٤ .

والدور الحديثة بطوابقها المدة .

إن أسامة نفسه رجل ذكي فوق العادة ، وموهوب ، وعالم ، لقد التقى بمختلف رجالات عصره ، فقرأ لهم شعره ، وتحدث معهم وتناقش ، وكثير منهم أشرنا إليه من قبل ، ونذكر أيضاً أبا سعد السمعاني ، وابن عساكر ، والمهاد الاصفهاني ، والمقدسي . ولقد حفظت حتى الآن عبارات تنقد أسامة وتقومه ، بعضها يعود إلى معاصريه ، وبعضها من قبل المؤلفين المتأخرين . وسنقتبس بعضها فيما يلي :

قال الذهبي في « تاريخ دول الاسلام » عن أسامة : إنه « أحد أبطال الاسلام ، ورئيس الشعراء الأعلام » . وقال أيضاً في « سير أعلام النبلاء » : « أسامة - الأمير الكبير فارس الشام »^(١) . وقال ياقوت في معجم الأدباء :

« وفي بني منقذ جماعة أمراء شعراء ، لكن أسامة أشهرهم وأشهرهم »^(٢) . وقال المهاد الاصفهاني : « وأسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه »^(٣) ، يلوح من كلامه أماره الامارة ، ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة ، حلو المجالسة ، حالي المساجلة ، ندي الندي بماء الفكاهة ، عالي

١ - الذهبي ، سير (مخطوطة مصورة) . ح . XIII ، ص ٣٨ .

٢ - ياقوت ، معجم الأدباء ، ح II ، ص ١٧٤ .

٣ - أسامة ، بالعربية تعني أحياناً « أسد » .

النجم في سماء النباهة معتدل التصاريف مطبوع التصانيف» (١) . وجاء في خريدة القصر : « هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء والكرماء الكبراء والسادة القادة العظماء ، وقد تمتعه الله بالعمر وطول البقاء ، وهو من المعدودين من شجعان الشام . وفرسان الاسلام ، ولم تزل بنو منقذ ملاك شيزر ، وقد جمعوا السيادة والمفخر ، والمهم من الأجواد والأجناد ... وما فيهم إلا ذو فضل وبذل ، وإحسان وعدل ، وما منهم إلا من له نظم مطبوع ، وشعر مصنوع ، ومن له قصيدة وله مقطوع ، وهذا مؤيد الدولة أغرفهم في الحسب ، وأعرفهم بالأدب » . وقال الاصفهاني أيضاً : « اكنت قد طالعت مذيّل السمعاني ، ووجدته قد وصفه وقرّطه ، وأنشدني العامري له باصفهان من شعره ما حفظه ، وكنت أتمنى أبداً لقياه ، وأشيم على البعد حياه ، حتى لقيته في صفر سنة ٧١ - يعني ٥٧١ بدمشق» (٢) .

ويقول ابن عساكر : «اجتمعت به بدمشق وأنشدني قصائد من شعره سنة (٥٥٨) وقال لي أبو عبدالله محمد بن الحسن بن الملاحي : ان الأمير مؤيد الدولة أسامة شاعر أهل الدهر ، ملك عنان النظم والنثر ، متصرف في معانيه ، لاحق بطبقة أبيه ، ليس يستقصي وصفه بعمان ، ولا يعبر عن نرحها بلسان ، فقصائده الطوال لا يفرق بينها وبين شعر ابن الوليد (٣) ،

١ - أبو شامة ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

٢ - الخريدة ، ج ١ ، ص ٩٨ .

٣ - مسلم بن الوليد ، شاعر مشهور من شعراء القرن الثامن انظر :

El, V., III, p.758

ولا ينكر على منشدها نسبتها إلى لبيد ، وهي على طرف لسانه ، بحسن
بيانه ، غير محتفل بطولها ولا يتعثر لفظه العالي في شيء من فضولها ،
وأما المقطعات فأحلى من الشهد ، وألذ من النوم بعد السهد ، في كل
معنى غريب وشرح عجيب ، (١) .

١ - تهذيب تاريخ ابن عساكر ، ج ١١ ، ص ٤٠١ .

رَفَعُ

عبد الرحمن النخعي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثاني

الانوار الالهية للامامة

كان أسامة منذ أيام الفتوة قد بدأ قرض الشعر ، ورافقه نظم الشعر طيلة حياته ، مسجلاً به ضربات قلبه ، والمشاعر الوطنية وظروف الحياة في ذلك العصر الذي عاش فيه .

لقد كانت حياته في ديار بكر هادئة نسبياً ، إذ قد هزم ، وخففت شعاعته الحربية القتالية ، فأعطى كل مقدراته التأليف الأدبي . ولذا فقد كانت هذه الحقبة من حياته فترة نشاطه الأدبي والعلمي . واشتهر في عصر كآديب ، وكاتب ، ومؤرخ وشاعر . لقد صنف أكثر من ٢٠ مؤلفاً ، معظمها مفقود حتى الآن .

وإنطلاقاً من فن ومحتوى مؤلفات أسامة ، ولسهولة دراستها دراسة

نقدية فقد قسمناها على النحو التالي :

أولاً - المؤلفات ذات الطابع الأدبي التي تشكل القسم الأكبر

والأشهر من مؤلفاته :

١- « ديوان أسامة » وهو يجمع الأشعار التي قلها أسامة في مدة عمره ، من أيام فتوته إلى آخر أيامه في شيخوخته ، ولقد قام بجمعه بنفسه في الثمانينات من القرن XII . فرتبه بحسب الموضوعات الشعرية ، كما أشار إلى ذلك في المقدمة : « وقد جعلته مشتملاً على ستة أبواب :

الباب الأول : الغزل ، وينتظم في سلكه شكوى الفراق ، ووصف الحنين والاشتياق ، ثم ما يجوز أن يلتحق به من مكاتبات الاخوان ومكاتبات الخلان ، وما يجذب هذا المعنى بأهدافه . الباب الثاني - الاوصاف . الثالث : الملح . الرابع - المديح ، ويتشعب به القول في الفخر المتضمن مآثر الانسان وخلاله ، ثم الحماسة ، الراجع معناها إلى التمدح بالشجاعة والبسالة . الخامس - الأدب ، ويعلق بسببه الأمثال ، وما يجري مجراها ، أو يلاحظ مغزاها ، ثم وصف الشيب والكبر ، ثم الزهد لمن تأمل واعتبر ، السادس - المراثي . وكل باب من هذه الابواب المذكورة مرتب على حروف المعجم ، فصلاً فصلاً ، يقرب تناول ما يقصد منه (١) . لكن من المؤسف أن القصائد غير مؤرخة .

وتجدر الإشارة إلى أنه في الديوان « لا يوجد فصل للهجاء » . وذلك لان أسامة قد اعتبر الهجاء فناً حقيراً ، لم يكتب فيه ، وأسامة يؤكد هذا في المقدمة : « على أني بحمد الله ما فت برفث ولا هجاء » (٢) . لكن يفهم من شعر أسامة أنه بصعوبة قد انحرف عن هذا الفن لوجود أسباب كانت تثير في نفسه شعور الهجاء :

ظلمت شعري ، وليس الظلم من شيمي يطيعني حين أدعوه وأعصيه
يهم أن يذكر القوم اللثام بما فيهم فأزجره عنهم ، وأثنيه (٣)

١ - أسامة ، الديوان ، ص ٤٤ - ٤٥ .

٢ - أسامة ، الديوان ، ص ٤٣ .

٣ - أسامة ، الديوان ، ص ٢٤٣ .

لكن الملامح الهجائية^(١) لشعره إنما تظهر في فصل « الملاح » .
نعم ولكن هذا الفصل غير كبير الحجم (٥ صفحات ، من صفحة
١٥٦ - ١٦١) ، في الوقت الذي يمثل فيه الهجاء مكاناً واضحاً كبيراً
في دواوين الشعراء العرب .

لقد نظم أسامة في فن « المدح » لكن للأجل العطايا والهبات :
« ولا مدحت اطمع ولا رجاء » (ديوانه ، ص ٤٣) . ومدح تلك
القلة ، التي كانت قريبة إلى نفسه (أنثرا وطلائع وعباساً وابنه نصراً
ونور الدين وصلاح الدين) ، ومن العجيب أنه لا تعرف قصيدة واحدة
في عماد الدين الزكي ، ربما أن هذه القصيدة قد وجدت لكن أسامة
لم يوردها في « ديوانه » عندما جمعه .

وافخر ببني منقذ ، ومدحهم ، ومدح نفسه وشجاعته وإقدامه ،
وصموده أمام حوادث ونكبات الزمان . وهو في هذا يذكرنا بالمتني ؛
فكلاهما ينطلق من اعتقاده بأنه لا يقل مجداً ورفعة ورجولة عن
ممدوحه .

وبكاء أسامة في « رثائه » مشر أليم ؛ فهو يرثي الأقرباء والاصدقاء ،

١ - أسامة يمزج وينكت على الأعرج (ديوان ، ص ١٥٩) . إن
هذا يذكر بهجاء ابن الرومي للأحذب .

وخاصة ابنه أبا بكر عتيق^(١) ، الذي شغل رثاؤه تقريباً $\frac{2}{3}$ من رثاء أسامة . ثم إن فقدان الوطن والاقرباء والاعزاء قد طبع شعره بطابع الحزن والالم .

أما أسلوب وصور أسامة في النسيب ، فتشابهة مع أسلوب وصور الشعراء الجاهليين ، لكن شعره في هذا المجال يتميز باختلاص أكثر وعاطفة صادقة مجروحة ؛ إذا عبّر عن آلامه العميقة ، ومشاعره الشخصية .

ان أكثر الحوادث الهامة في هذا العصر ، وحياة أسامة الشخصية قد لاقت صدى وانعكاساً في شعره ، الذي يسجل الحوادث التاريخية والمعارك وبطولات أبطال عصره المسلمين في صراعهم مع الفرنجة . فأشعاره تصور جميع مراحل حياته ، وبفضلها يمكننا أن نجمع حقائق هامة عن

١ - يبدو من شعر أسامة [ديوانه ، ص ٢٩٧] أن ابنه عتيق ، الذي كان له من العمر سبع سنوات ، قد مات عندما كان لأسامة من العمر أكثر من ثمانين ، ويعني هذا أنه ولد بعد فروة :

رمتني في عشر الثمانين نكبة
رزئت أبا بكر ، على شغفي به
في الهفتة ، ماذا جنى الحادث البكر
وسبع ، مضت من عمره ، غاله الردى
و كنت أرجي أن يطول به العمر

هذه الحياة ، وعن آلامه في غربته ، وحنينه إلى وطنه وأهله :

- أهكذا أنا ، باقي العمر مغترب ناء عن الأهل والأوطان والسكن
لا تستقر جيادي في معرسها حتى أروّعها بالشدة والظعن
- أين السرور من المروع بالنوى أبدا ، فلا وطن ، ولا خلان
عيد البرية موسم لهويله وسرورهم فيه له أحزان
واذا رأى الشمل الجميع تزاوجت في قلبه الأموات والنيران^(١)

وأسماء كثيرة من فحول شعراء العربية السابقين ، أعاد النظر في
في شعره محصاً مشذباً ، وحذف تلك الأشعار التي لم تعجبه ونقحه
وهذه :

كلما رددت في شعري النظر بان ضعف العي فيه ، وظهر
فأجبل الفكر في تقليله فاذا قلّ اختصرت المختصر

وأشعار « الديوان » التي قام أسماء بكل اعتناء بتنقيحها وجمعها
في آخر حياته معبرة ، حقيقية المأخذ ، جميلة العبارة ، قريبة الفهم ،
عميقة الفكرة ، وخلافاً لاكثر شعراء ذلك العصر ، لم يسع أسماء إلى

١ - أسماء ، الديوان ، ص ١٠٤ .

التزيين اللفظي الذي كان الميزة الفنية للشعر حينئذ ؛ فاستعمل الطبايع والجناس والمقابلة والاستعارة لم ينته به إلى التلاعب اللفظي ، الشغل الشاغل لمعظم معاصريه .

إن تراكيب شعر أسامة بعيدة عن التعقيد ، تعبر عن أفكاره بكل عمق وصدق وإخلاص . وافهم شعره لا نحتاج إلى المعاجم ذلك لأن اللفظة عنده واضحة مفهومة سهلة بسيطة . وتتابع أفكاره بسهولة وسلاسة . لقد كتب قصائد قصيرة ، وطويلة أيضاً ؛ فبعض قصائده يتألف من تسعين بيتاً تقريباً^(١) . وكان يقتبس أحياناً بعض أبيات من أشعار الشعراء الآخرين^(٢) ، أو من القرآن الكريم ، معبراً بهذا عن معرفة رائعة بشعر الشعراء الجاهليين والكلاسيكيين . وبدأ قصائده في أغلب الأحيان - جرياً وراء التقليد - « بالنسب » وأحياناً أخرى ينظم الشعر في الغرض الرئيسي مباشره دون مقدمات غزلية أو طأولية ، خاصة إذا كان غرض القصيدة « مدحاً » أو « فخرأ » . (انظر . الديوان ،

١ - انظر قصيدته [من نور الدين الزنكي إلى طلائع بن رزيك] ، الديوان ، ص ٢٠١ - ٢٠٦ .

٢ - يظهر هذا بوضوح في قصيدته « الميمية » ، [ص ٤٠ و ١٤٦ - ١٤٨] ، حيث يقتبس أشعاراً من شعر المتنبي ؛ وفي الرائية (ص ٧٢ و ١١٩) - من أشعار أبي فراس . وربما كان اقتباسه من أشعار هذين الشاعرين لاعتجابه بهما ، ولأنه كان قريباً منها بنموذج حياته .

ص ١٧٠) . ويعتبر أسامة بحق واحداً من أولئك الشعراء الذين أعادوا للشعر قوته ، وفتوته ، واسلوبه الرفيع في أحسن ظروفه ، وعصور ازدهاره .

ويصنف قصائده في « الديوان » حسب موضوعاتها ، مما يخلق جواً واحداً للقصائد ذات اللون الواحد ، ويسهل دراسة فن الشاعر : طريقته ومنهجه في كل غرض من أغراضه . لكن كان من المفيد جداً لو قام أسامة بتاريخ قصائده ، والإشارة إلى مناسباتها ليذكر الجو الذي أحاط به عندما قرضا .

ولا بد من الإشارة إلى أن أسامة لم يجمع جميع أشعاره في ديوانه . ففي مؤلفاته الأخرى : [الاعتبار ، والعصا ، ولباب الآداب ، والمنازل] يعثر على أشعار لا يمكن العثور عليها في « الديوان » ؛ ففي « كتاب المنازل والديار » ، مثلاً ، يعثر على (٢٩) مقطوعة ، تشمل على (١٢٧) بيتاً (١) لم ترد في « الديوان » . وعلاوة على هذا فإن مقطوعات من أشعار أسامة توجد في مؤلفات مؤلفين آخرين : في « الخريدة » لعلماد الدين الأصفهاني ، و « الروضتين » لأبي شامة ، و « تاريخ الإسلام » للذهبي ، و « شذرات الذهب » لابن عماد الحنبلي ، و « جهرة أنساب العرب » لأبي الفنائم الشيزري ، و « مسالك الأبصار » لابن فضل الله

١ - أسامة ، المنازل ، ص ٢٦ - ٢٩ ، ٧٦ - ٧٨ ، ١٩٣ ، ٢١٨ ،

٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٣٠٣ - ٣٠٦ ، ٤١٩ .

العمري ، « ومعجم الأدباء » اياقوت ، و «وفيات الاعيان » لابن خلكان ،
 وحلو « الديوان من هذه الاشعار لا يدل على عدم جودتها . وكان أحمد
 بدوي وحامد عبدالحجيد قد كثبا في المقدمة لاصدار « الديوان » ص (٩) ،
 عن تصميمها على جمع أشعار أسامة التي لم يوردها في « ديوانه » ، لكنها ،
 على ما يبدو ، لم يحققا هذه الفكرة . ولذا فالتنا نقترح : إما إصدار
 « الديوان » ثانية ، بعد تضمينه جميع أشعار أسامة ، أو جمع كل
 الاشعار التي لم ترد في الديوان ، وإصدارها في ملحق خاص .

و « الديوان » مخطوطة واحدة^(١) مشهورة ، محفوظة في دار
 الكتب في القاهرة تحت رقم ١٦٨٧٧^(٢) ، تقع في [٣٩٠] ورقة ، قام

١ - لقد أشار عبدالمالك السيد إلى وجود مخطوطة أخرى « للديوان » ،
 كانت محفوظة في بغداد عند عبدالرحمن صالح الراوي ، فأخذها
 المازني بقصد إصدارها بعد تحقيقها . لكن المازني لم يحقق هذا الهدف .
 وكتب عبدالمالك السيد بأن المخطوطة تقع في (٤٠٠) صفحة
 - على ما يذكر - ، وكانت مكتوبة قبل أكثر من (٦٠٠) سنة ؛
 أى في عام (١٣٤٧) . انظر . مجلة « الكتاب » ، كانون الثاني ،
 ١٩٤٧ ، مجلد . III ، ج . III ، ص ٥٠٦ .

٢ - هل المخطوطة التي ذكرها السيد هي نفسها تلك المخطوطة المحفوظة
 في دار الكتب ، أم أنها غيرها ؟! إن هذا السؤال يبقى
 قائماً ينتظر الاجابة الصحيحة .

بنسخه عبدالعزیز بن أحمد المعجمي عام ١٢٨٩/٦٨٨ ؛ وحققها ، وقدم لها
أ . بدري ، و ح . عبدالمجید ، ووضحا ، وشرحا الكلمات الصعبة ،
ووضحا فهارس الاعلام ، والقوافي (حسب الموضوعات الشعرية (١) .

٢- كتاب البديع :

يعتبر هذا الكتاب من اوائل مؤلفات أسامة ، وربما كان أولها ؛
فقد كتبه عام ١١٢٨ ، عندما عاش في إحدى قرى شيزر (انظر أعلى ،
ص ، ٧٠) . وليس للكتاب أهمية كبيرة ، ذلك لأنه مشابه لكتاب
آخر في « البديع » بفصوله ومحتواه . ولانجد فيه مادة أدبية ، كما
تقع على ذلك في مؤلفات أسامة الاخرى . وجاء في مقدمة الكتاب مايلي:
« وهذا كتاب جمعت فيه ماتفرق في كتب العلماء الاقدمين المصنفة في نقد
الشعر ، وذكر محاسنه ، وعيوبه ، فلم فضل الابتداع ، ولي فضيلة
الاتباع . والذي وقفت عليه من كتب : «كتاب البديع » لابن المعتز ،
« وكتاب الصناعتين » للعسكري ، « وكتاب نقد النحو » لقدامة ،
« وكتاب العمدة » لابن رشيق فجمعت من ذلك أحسن أبوابه ،
وذكرت منه أحسن مقالاته ، ليكون كتابي مغنياً عن هذه الكتب ،
مضمنة أحسن ما فيها» (٢) .

١ - ديوان أسامة بن منقذ ، حققه ، وقدم له الدكتور أحمد أحمد

بدوي ، وحامد عبدالمجید ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ، ١٩٥٣ .

٢ - أسامة ، البديع ، ص ٨ .

هناك خمس مخطوطات مشهورة لهذا الكتاب :

آ - مخطوطة مكتبة بلدية الاسكندرية ، المحفوظة تحت رقم ١٣٤١

ب ، منسوخة في عام ١٣١١/٧١١ ، وتقع في ١٢٩ ورقة^(١) .

ب - مخطوطة برلين (الآن تيوبينجن) ، تحت رقم «We 134» ،

وتقع في ١٢٩ ورقة ؛ وقسم منها منسوخ في ١٤٩٤/٩٠٠ ، أما القسم

الباقى ففي عام ١٧٣٧/١١٧٠^(٢) .

ج - المخطوطة الثالثة محفوظة في معهد الدراسات الشرقية ، فرع لينينغراد ، التابع ،

لأكاديمية العلوم السوفياتية ، تحت رقم [B 538] ، [No. 461] [مخطوطات قديمة]

وتقع في ٩٧ ورقة لكن الاوراق الاولى مفقودة والمخطوطة مكتوبة بخط

مصري جميل ، في ذي الحجة عام ١٠٣٩/تموز ١٦٣٠ ، وموصوفة

باختصار من قبل الاكاديميك السوفياتي إ . ي . كراتشكوفسكي^(٣) .

د - الرابعة محفوظة في « دار الكتب » في القاهرة^(٤) تحت رقم

(٥٥ بديع^(٥)) ، تقع في ١٢٩ ورقة ، بدون تاريخ النسخ ، وبدون

١ - حسين ، م . ، أسامة ، ص ١٠٠ .

٢ - (2 Ahlwardt, VoL.VI), p. 412 (No, 7277)

٣ - كراتشكوفسكي ، إ . ي . مؤلفات مختارة . ج ١١ ، ص ٢٦٨ .

٤ - فهرس دار الكتب ، ج ١٧ ، ص ١٢٤ .

٥ - حسين ، م . ، أسامة ، ص ١٠٠ .

مقدمة ، كما أن بعض الأوراق الأخيرة مفقودة .

هـ - الخامسة محفوظة في ، ومسماة « مختصر مقدمة الشعر » ، تحت رقم « Cod 818Warn »^(١) . ولقد قام أ . بدوي وح . عبدالمجيد ، بالاعتماد على مخطوطة دار الكتب ، بإصدار الكتاب لأول مرة في عام ١٩٦٠ ، في القاهرة^(٢) . والكتاب موزع على فصول حسب أنواع وأجناس البديع في الادب العربي ، التي بلغت عند أسامة (٩٥) نوعاً .

رؤس

٣ - « كتاب الفريسيين » :

وله مخطوطة واحدة ، محفوظة في « قونية » ، جاء في صفحتها الأخيرة حسب اخبار حتي الذي يقول : « وفي رسالة خاصة من الشيخ خليل الخالدي بالقدس أنه رأى وهو بقونية نسخة من « كتاب الفريسيين » في آخره ماصورته : - « وكان الفراغ منه يوم الاثنين ثالث وعشرين شهر رمضان سنة خمس وخمسين وخمسة مائة بمدينة حمص . كتبه لنفسه منقذ بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني

١ - كتالوك ليدن ، الطبعة الثانية ، > 1 ، ص ١٥٢-١٥٣ (No. 293) .

المخطوطات رقم (ب، د، هـ) مشار إليها في بروكلمان : > I ، ص ٣١٦-٣١٩ .

Brockelmann, C, AL Vol. I, p. 316 - 319

٢ - البديع في نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ ، تحقيق الدكتور أحمد

بدوي وزميله ، طبعة الحلبي ، مصر ، (القاهرة) ، ١٩٦٠ .

المالكي ، (١) .

ولا غلاك معلومات أخرى عن هذا الكتاب ، لكننا نفترض أنه « كتاب عن الألفاظ الغريبة في القرآن والحديث » ، ذلك لأن مثل هذه المؤلفات في هذه المواضيع كانت قد ظهرت في الادب العربي ، والثقافة الاسلامية منذ حوالي القرن التاسع الميلادي . وحول هذا الافتراض دار النقاش بيني وبين البروفيسور السوفياتي ، المستعرب بيلاف ، الذي أكد صحة الافتراض بأدلة مقنعة لا مجال لسوقها الآن .

٤ - « كتاب المنازل والمبار » :

يحتوي هذا الكتاب على مجموعة كبيرة من الاشعار بينما تقل فيه المقطوعات النثرية ، حيث ينتقل أسامة إلى النثر أحياناً في حالات خاصة ، ليفسر تعبيره الشعري ، أو ليحكي رواية أو قصة لتوضيح حادثة معينة ، أو حقيقة غامضة .

وكان الدافع لجمع هذه الاشعار ، وتأليف هذا الكتاب دافعاً خاصاً ذاتياً ؛ قام أسامة بذلك محاولاً إيجاد التعزية لنفسه ، ومواساتها في الألم والحزن اللذين ألما به وتركاً طابع السوداوية والتشاؤم على جميع مؤلفاته اللاحقة .

١ - رسالة من خليل الخالدي من القدس ، انظر . ف . حتي ، في مقدمته « لكتاب الاعتبار » ، النص العربي ، ص . (ك) .

جمع أسامة في هذا المؤلف أشعار معاصريه ، وأشعار الشعراء السابقين منذ الجاهلية إلى عصره ، تلك الأشعار التي تعزف فيها انغام الحزن لفقدان الأقرباء والأهل ، والحنين إلى الوطن المهجور ، وحزن الفراق والبعد عن المحبوبة ، وتذكر السعادة القديمة في أرض الوطن المهجور ، في مجتمع الأصدقاء والأقرباء - أبناء العشيرة والسلالة ، وتذكر اللقاءات السعيدة ... الخ .. وكأنه يريد بذلك أن يعيد الفاظ الشاعر الخنساء ، التي وجدت عزاء نفسها في بكائها على أخيها ، وفي حزن وآلام الآخرين إذ قالت :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

« فكتاب المنازل والديار » صدى (لتراجيديا) أسامة ، وإنعكاس ، وإظهار لمشاعره المؤلمة الحزينة . ومن الضروري أن نؤكد أن أسامة قد سمى في هذا المؤلف أحياناً وراء صفة عامة من صفات التأليف في ذلك العصر ، وهي البعد عن الموضوع الأساسي ، والاستعارة إلى موضوعات ثانوية ، ليس لها ارتباط بالهدف الأساسي ، مسبباً في الحديث عن هذا الحدث الثانوي (١) ،

١ - انظر . المنازل ، ص ٣٥٠ - ٣٨٠ ، حديث أسامة عن بناء « الكعبة » ؛ وصفحة ٥٦ - ٦٢ حديثه عن مقتل الشاعر كعب بن الأشرف ، وصفحة ٩٤ - ٩٥ حديثه عن عروة بن الورد .. الخ ..

وذلك - حسب رأيه - كي لا يرهق القارئ ، (٢) ، وعمله ، وليحقق له فرص التنوع في القراءة .

« لكتاب المنازل والديار » أهمية واضحة ، وقيمة بينة ، وقيمته تكمن في كونه أثراً أدبياً من آثار القرن الثاني عشر ، تنعكس فيه روح ذلك العصر ، وشخصية أسامة أيضاً . وعلاوة على هذه فإن قيمته تزداد إذا عرفنا أن الإصدارات النقدية لآثار القرن الثاني عشر قليلة ، فمؤلف كأسامة ، أديب وشاعر ، في اختياره لمادة كتابه هذا ، إنما يلعب - بهذا الاختيار - دوراً هاماً جداً في دراسة الأدب في ذلك العصر ؛ ذلك لأن أسامة يمتلك الذوق الأدبي الفني في اختيار المقطوعات ، وهذا يعطينا صورة عن طبيعة تقييمه ونقده الشعر .

أما أهمية الكتاب الأساسية فتتركز في كونه - بطريقة ترتيبه ، ومادته المجموعة فيه - يعطي مادة غزيرة ضخمة يمكن أن تكون أساساً حيّاً للدراسة الموضوعات الأدبية في الشعر العربي ، كما أنه ، في نفس الوقت ، يساعد مساعدة ملحوظة على تطور هذا الاتجاه في البحث والدراسة في علم الأدب وتاريخه .

وبشكل تقريبي ، فإن أكثر الأشعار المختارة في الكتاب عن الآثار ، وبقايا الديار ، والاطلال ، ما هي إلا أجزاء من القصائد ،

١ - أسامة ، المنازل ، ص ٥ ؛ المخطوطة و الورقة ٦ (آ) .

وبخاصة من الجزء الاثامي في القصيدة العربية والذي سمي « بالبكاء على
على الاطلال » ، وتحول مع الزمن إلى تقليد أدبي أثامي ، ودخل في
صلب نهج القصيدة . ٢٨١ هـ

لقد أشار المستشرق السوفياني الكبير الاكاديمي-ك . إ . ي .
كراتشوفسكي إلى قيمة كتاب أسامة ، وأهميته في دراسة الموضوعات
الادبية قائلاً : « أسامة » ، وهو غير شاك ، طبعاً ، في امكانية نظره
الجمالية لكتابه المفعم بالمشاعر والعواطف ، جمع فيه مادة غنية من أجل
مثل هذا العمل ، واضعاً بذلك الكثير من إشارات العلام [لمثل هذه
الدراسة] . إن كل هذه المادة تقريباً ، يمكن أن تنتقل لتصبح تحت
تصرف الباحث الاوروبي ، منقذة هذا الباحث من بحث وتفتيش طويلين
[لجمع مثل هذه المادة] وفي هذا تكمن القيمة العظمى لكتاب أسامة ،
ومن غير الممكن أن يفقد (هذا الكتاب) من تاريخ الادب العربي
والحياة^(١) .

نصره

ويتملك « كتاب المنازل والديار » قيمة أدبية كبيرة ، ويشير اهتمامات
الاختصاصيين ويستقطبها بقوة . وأهميته في عصرنا هذا قد فاقت بكثير
بكثير تلك الاهداف الاساسية التي من أجلها وضع أسامة كتابه : إذ
لقد جمع في هذا الكتاب حوالي ٥٠٠٠ بيت من الشعر العربي الرائع ،
والتي لا يمكننا - أحياناً - أن نعثر عليها في دواوين شعرائها . إنسه

١ - كراتشوفسكي ، إ . ي . ، مؤلفات مختارة . ج ١١ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣

أشبهه بالمجموعات الشعرية المشهورة « كالحماسة » و « الأملالي » . وأشعاره كلها مجموعة ومختارة من قبل شاعر ، يمتلك ذوقاً أدبياً رفيعاً ، وإحساساً نقدياً عجبياً .

إن المخطوطة الوحيدة للكتاب ، الفريدة في العالم ، محفوظة في معهد الدراسات الشرقية - فرع لينينغراد - التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية ، تحت رقم (C35) ، وتقع في ٢٥٠ ورقة . وحسب المعلومات المكتوبة في آخر المخطوطة فإن الذي كتبها إنما هو أسامة ذاته ، عندما كان في حصن كيفا ، وكتابتها كانت في جمادى الأولى لعام ٥٦٨هـ / كانون أول عام ١١٧٢ . وبالاستناد إلى هذه المخطوطة فإن كلا المستشرقين « فرين » و « كراتشكوفسكي » قد وصلا إلى النتيجة التالية : « إن المخطوطة إنما كتبت بخط المؤلف نفسه (أفتوجراف) » . لكن يعقوب صروف في عام (١٩٠٧) قد ارتأى بأن النسخ (الكاتب) لكتاب أسامة هذا إنما هو (غنائم) : ربما قد بيض مسودة أسامة التي لم تصلنا ، وبعد ذلك قد قرأ هذه المبيضة على المؤلف أسامة ، كي يصحح بنفسه الأخطاء التي يمكن أن تكون قد وقعت نتيجة (التبييض) ، ولذا فإن المخطوطة التي وصلتنا - حسب رأي صروف - إنما هي بخط (غنائم) . وأسامة نفسه في « كتاب الاعتبار » يتحدث عن (غنائم) ، الذي كان خادماً لآبيه ، وشاركه في رحلات الصيد ، وكان صاحب حرفة جيدة ، بليغاً في حديثه ، حسن التأدب ، وربما قد امتلك خطأ جميلاً ، وربما قد طلب أسامة الهرم منه المساعدة لينسخ له مؤلفاته .

إن ما يرجح اقتراضنا الأخير ، كون (غنائم) النسخ الحقيقي
- في حياة أسامة - مؤلف آخر من مؤلفاته (انظر رقم ٦) .
لكننا لانقطع بصحة اقتراضنا هذا ، بل يبقى السؤال مفتوحاً ، يستدعي
الجواب المدعم بالدلة والبراهين ، إنما نفترض أحد فرضيتين لا ثالثة لهما :
إما أن أسامة ذاته قد كتب الكتاب بخط يده ، أو أن غنائم كتبه له
في حياته .

أما ما يتعلق بتاريخ المخطوطة ، فبالاعتماد على المعلومات التي توفرت
لنا ، يمكننا أن تتبع هذا التاريخ حتى بداية القرن التاسع عشر تقريباً ،
أي إلى وقت ظهورها في المتحف الاسيوي في لينينغراد ، ثم تتابع دراسة
تاريخها حتى أيامنا هذه .

لقد بقي « كتاب المنازل والديار » في دمشق حتى القرن السادس
عشر ، وكان مالكة محمد الطلاوي . وزى بان المخطوطة قد وصلت إلى
دمشق عندما انتقل أسامة من حصن كيفا في شهاب سورية إلى دمشق .
وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر كانت المخطوطة قد فقدت
الورقة الأولى ، لكن الورقة الأخيرة كانت لا تزال محفوظة ، وكان
قد كتب عليها بخط محمد الطلاوي تاريخ ومكان الكتابة .

وبعد وفاة الطلاوي ظهر تذييلان على المخطوطة الواحد تلو الآخر ،
عام ١٦٥٩ و ١٨١٠ بشهاد أن المخطوطة كانت لا تزال في سورية
أيضاً ؛ أولاً في دمشق ، وبعدها في حلب . وكان مالكة الشاعر
المشهور فتح الله الطرابلسي - صديق ج . ل . روسو (Joseph Louis Rousseau)

القنصل الفرنسي . وفي عام ١٨٢٥ وصلت مخطوطة أسامة الى روسيا ،
ضمن مجموعة روسو التي كانت في عدادها ، على أرجح تقدير ، وذلك
بفضل مساعي ملفتردو ساسي المشهور . ونفترض ان روسو قد أخذها
من الطرابلسي . وفي العشرينيات من القرن التاسع عشر تقع في أعمال
المستعرب خ . د . فرين^(١) على إشارة إلى (أفنوجراف) - نسخة
لكتاب مكتوبة بخط المؤلف (- أسامة بن منقذ : كتاب المنازل والديار) ،
وإلى أنه محفوظ في المتحف الآسيوي في لينينغراد - روسيا .

وبطريق الصدفة كان قد عثر المستشرق السوفياتي إي .
كراتشكوفسكي على هذه الإشارة في أعمال ب . أ. دورن عن المتحف
الآسيوي^(٢) ، لكن كراتشكوفسكي شك في وجود المخطوطة ، وفي
صحة هذه الاشارات اليها ، ذلك لاعتقاده بأنه من غير الممكن أن تكون
المخطوطة موجودة في العالم ، في الوقت الذي لم يعرف عنها أي شيء
المستعرب الفرنسي هرتوينغ درنبورغ ، الذي درس جميع مؤلفات أسامة
ردحاً طويلاً من الزمن ، دون أن يعثر في أبحاثه على أية إشارة إلى
مخطوطة « كتاب المنازل والديار » هذه . لكن كراتشكوفسكي لم يبق
عند حدود الشكوك ، بل أخذ بالبحث عن المخطوطة بين مخطوطات
المتحف الآسيوي إلى أن وجدها فعلاً ، ثم قام بوصفها وصفاً دقيقاً

١ - فرين ، خ . د . ، وثائق روسية قديمة СПД ، عام ١٨٣٦ ،

رقم XIV ص ٥٠ - ٥٩ .

Dorn, B.A., p. 289 - 293

في عام ١٩٢٥ (١) . وبعد ، في عام ١٩٦١ قام المشرق السوفياتي الدكتور أ. ب. خالوف بتصوير المخطوطة ، وإصدار هذا المصور مع مقدمة باللغة الروسية ، وفهارس عدة للاعلام ، والاماكن ، والقوافي ، الخ .. أما في البلاد العربية ، فبالاعتماد على هذا المصور قام « المكتب الاسلامي » بإصدار المخطوطة في كتاب محقق ، ثم بعد ذلك ، في عام ١٩٦٨ قام مصطفى حجازي بإصدار الكتاب محققاً تحقيقاً نقدياً مع دراسة وملاحظات وشروح (٢) .

سُمي هذا المؤلف « كتاب المنازل والديار » ، لكن لا توجد نسخة كاملة بأنه سمي هكذا منذ البداية . ذلك لأن ورقة المخطوطة المكتوبة

١ - كراتشكوفسكي ، إ. ي . ، مؤلفات مختارة . ج II ، ص ٢٦٦ - ٢٨٣ ؛ ج I ، ص ٧١ - ٧٤ .

٢ - المنازل والديار ، تأليف أسامة بن منقذ ، تحقيق مصطفى حجازي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

يشير مصطفى حجازي في مقدمته إلى أن إصدار «المكتب الاسلامي» لا يتمتع بالجودة العالمية ، وإلى أنه صورة عن المصور الروسي . لكننا في الواقع ، وقعنا على « إصدار المكتب الاسلامي » هذا ، وعلى إصدار حجازي وثبت لدينا أن المكتب الاسلامي قد قام بجهد علمي كبير مشكور عليه ، قد اعتمد عليه مصطفى حجازي ذاته . وفي حديث شخصي مع أحد المساهمين في إصدار «المكتب الاسلامي» ، لسنا المرارة لموقف الاستاذ حجازي هذا .

عليها العنوان إنما كتبت أخيراً بخط مغاير لخط المخطوطة .
 لكن من المشهور عندنا أن أسامة غالباً كان يستعمل عناوين غير
 مسجوعة تقع في كلمة أو كلمتين عندما يسمي مؤلفاته كما هو الحال في
 هذه التسمية : « كتاب المنازل والديار » .. ولا بد من التأكيد على أن
 تسمية الكتاب هكذا أصلاً لا تمتلك أية علاقة - إطلاقاً - مع الجغرافيا ،
 خلافاً للافتراض الخطأ ، الذي افترضه زكي . أ . (١) .

لهم لهم

✕ ان التصور الجيد عن تركيب ودوافع كتابة هذا المؤلف يمكن
 أن تعطيه مقدمة أسامة له : « قال أسامة بن مرشد ... بن منقذ الكناقي...
 وإن تنقلت بنا الدنيا تنقل الظلال ، وتقلب بنا الدهر من حال إلى حال ،
 وعفت رسوم آثارنا ، واستولت يد الاعتداء على ديارنا ، وتصدع شملنا
 أيدي سبأ ، وتشعبت بنا سبل المذاهب ، وأخذت الحوادث على معشري

١ - انظر . أعلام العرب ، رقم ٧٩ ، ص ١١٥ - ١١٦ . يقول
 زكي . أ . : « وانتهت أيامه الأولى [أيام أسامة] - وكان قد قابل
 فيها الخليفة مرتين - إلى الاقتناع بأن ما ينبغي عمله إنما هو وضع
 كتاب في (المنازل والديار) . لقد رأى كثيراً من المدن ، وشاهد
 كثيراً من الصحاري والوديان والبحار والأنهار إلا أن ما يراهم أمام
 نظريه في هذه الأيام شيء مختلف ربما يميزه الإصرار والعزم
 والوقار والرسوخ وقد يتسم بالدوام ، وأن يرغب الجميع على التأمل
 فيه وطول التفكير ، لكنه ما مسك النظم حتى حاجث به الذكريات
 ورأى أن يكتب لهؤلاء الذين صانعوه شيئاً » .

وآلي ، وأفنى الموت أسودي وأشبالي ، كل ذلك بقدر جرى به القلم في
القدم ، وقضاء سبقت به المشيئة قبل الخروح إلى الوجود من العدم ،
ألقي ما سر من ذلك وساء بالتسليم والرضى ، وأفوض إليه - جل وعلا -
فيما قدر وقضى ، وأقر بان ابتلاءه بعدله ومعافاته بفضله ، وأرجو من
رحمته أن يكون ذلك كفارة لذنوبي سلفت ، وموعظة دعت عن المعاصي
وصرفت ، وإن ما نالنا من الدنيا وآفاتنا بذنوب اقترفناها فرحماً بمعجيل
مكافاتها .

وبعد ، جعلك الله بنجوة من النوائب ، وأصفى لك الحياة
من كدر الشوائب ، ولاراعك بحادثة تنسي ما قبلها ، وتصرف ما بعدها ،
وتفتح من النكبات ابواباً لا تستطيع سدها ، فإني دعائي إلى جمع هذا
الكتاب مانال بلادي وأوطاني من الخراب ، فإن الزمن جر عليها ذيله ،
وصرف إلى تعفينها حوله وحيله ، فأصبحت كأن لم تكن بالامس ، موحشة
المرصات بعد الأنس ، قد دثر عمرانها ، وهلك مسكنها ، فعادت مغانيها
رسوماً ، والمسرات بها حشرات وهموماً .

ولقد وقفت عليها بعدما أصابها من الزلازل ما أصابها ، وهي أول
أرض مس جلدي تراها ، فها عسرفت داري ، ولا دور والدي
ولإخوتي ولا دور اعمامي وبني عمي وأسرتي ، فهت متحيراً مستغيثاً بالله
من عظيم بلائه ، وانتزع ما خوله من نعمائه .

ثم انصرفت فلا أثبك خيبتني رعش القيام أميس ميس الاصور

وقد عظمت الرزية حتى غاضت بواذر الدموع ، وتتابعت الزفرات

حتى أقامت حنايا الضلوع ، وما اقتصرت حوادث الزمان على خراب الديار
دون هلاك السكان ، بل كان هلاكهم أجمع ، كارتداد الحرف وأسرع .

ثم استمرت النكبات ترى من ذلك الحين وهلم جرا ، فاسترحت
إلى جمع هذا الكتاب فجعلته في بكاء للديار والاحباب ، وذلك لا يفيد
ولا يجدي ، ولكنه مبلغ جهدي ، وإلى الله عز وجل أشكو ما لقيت من
زمانني وانفرادي من أهلي وإخواني ، وإغتربي عن بلادي وأوطاني .

وإليه عز وجل أرغب في أن يمن علي وعليهم بغفرانه ، ويعوضنا
برحمته في دار رضوانه .

٦ وقد جعلت هذا الكتاب فصولاً ، فافتتحت كل فصل بما يوافق
حالي ثم أفضت فيما يوافق ذا القلب الخالي ، لكيلا يأتي الكتاب وهو كله
عويل ونياحة ، ليس فيه لسوى ذي البت راحة .

على أن رزايا الدنيا كالأجل تهمل ولا تهمل ، وإن تولت اليوم
فمغداً تقبل فما أحد من ربهن سليم .

وتتبع هذا المعنى صعب ، وحصره لا يمكن ، وقد أوردت منه
ما يبرد اللوعة ، ويسكن الروعة ، والمغزر إلى من وقف عليه مبذول ،
وهو عند الكرام مقبول» (١) .

يقسم أسامة كتابه إلى ستة عشر فصلاً ، يعددها بالتفصيل في نهاية
المقدمة . ولكل فصل عنوان خاص : « فصل في ذكر الديار » ، « فصل
في ذكر البيت » ... الخ . وقد جمع في كل فصل أشعاراً وقطعاً أثرية حول

١ - أسامة : المنازل ، ص ٣-٤ . [الحول والحيل : القوة] .

المعنى الذي ينضوي عليه عنوان الفصل ، أي حول « الديار » ، أو « البيت » ، أو « الربع » .. الخ ... ويعطي أحياناً شرحاً وتفسيراً للمصطلح (اللفظة) التي هي عنوان الفصل ، وحوها تدور الأشعار . وتساق الاشعار ضمن كل فصل ، أحياناً ، حسب النظام التاريخي : حسب حياة الشعراء ؛ وأحياناً أخرى حسب القيمة الفنية للأشعار دون مراعاة حياة الشعراء . ثم يسوق اشعاره واشعار أقربائه في آخر كل فصل مع توضيح وشرح للكلمات التي يراها صعبة الفهم . ولا بد من الإشارة إلى أنه أحياناً لا يراعي العنوان في الفصل ، بل يتعدى الموضوع كثيراً (١) .

(١) لا صرح

هـ - كتاب العصا (٢) :

-
- ١ - زيادة التفصيل عن مضمون المخطوطة ، انظر :
كراتشكوفسكي ، إ . ي . ، مؤلفات مختارة . ج II ، ص ٢٧٦ - ٢٨٣ ؛ ومصطفى حجازي ، المقدمة لكتاب « المنازل والديار » ، ص ٢١ .
 - ٢ - يعطي ياقوت الجوي اسم هذا الكتاب حرفاً . ويسميه خطأ « كتاب القضاء » . وينقل عنه هذه التسمية في عصرنا أ . شاكر (انظر . ياقوت ، معجم الأدباء ، ج II ، ص ١٨١) . أما أحمد أمين فقد كتب مقالة بعنوان « العصا أم القضاء » ، حيث يوضح فيها خطأ التسمية « كتاب القضاء » . (انظر أ . أمين ، فيض الخاطر ، ج ١٧ ، ص ١٤٣ - ١٤٧) .

إن هذا الكتاب يشبه بدوره « كتاب المنازل والديار » ، ووجه الشبه يتجلى في كونه مثله يتألف من مجموعة أشعار تدور حول موضوع واحد هو « العصا » . والكتاب قد كتب للتسلية - حسب كلام المؤلف ذاته - . لقد جمع أسامة في هذا الكتاب قصصاً ، وأساطير ، وكل الأخبار عن العصا ، ابتداء من عصا موسى ، وانتهاء بأشعاره عن عصاه ، التي اعتمد عليها في شيخوخته . أما فضل أسامة في هذا الكتاب فتركز في جمعه لكثير من الشعر ، الممزوج بالقصص والنكت والنوادر ، التي رافقتها أحياناً بعض الشروح والايضاحات اللغوية . وتخلل هذه القصص قصص عن عصر أسامة ، يعطينا فيها صوراً حية عن حياة ذلك العصر (١) . إن أسامة - بمزجه الشعر مع القصص والنوادر والحكايات - قد أكد الصورة الواسعة الانتشار بالنسبة « للمجموعات » و « المختارات » عند العرب ، حيث أحبوا جمع المواد المتنوعة المختلفة عن مواضيع متباعدة في هذه المجموعات . وربما قد ظهر لنا أسامة بكتاباته هنا ، بالنسبة الموضوع - أكثر أصالة ، ذلك لضافته أشعاره الخاصة في هذه المادة ، لكن إيراد هذه المعلومات قد جاء عنده أيضاً بصورة جاهزة ، متشابهة مع الصور الماضية . وهنا - في « كتاب العصا » نملك عملاً مع مادة بحث أشبه ما تكون بمادة مكتب عالم لا يسمي وراء روح الحياة ، ونقلها ، بقدر ما يسمي وراء جمع المادة الموزعة في الكتب . حتى إن أسامة بأشعاره

١ - القصة عن المتصوفين والزهاد . انظر :

Derenbourg, Le vie d'Ousama, p. 528-529

التي أوردها في هذا الكتاب - والتي لم تكن فقط في مقطوعات صغيرة ، بل ، أحياناً ، في قصائد طويلة - لم يظـهر الاصالـة الحقيقية ، والتجديد الواضح ، ذلك لأن كل هذه الاشعار تنضوي تحت لواء الشعر الكلاسيكي. وينعكس في هذا الكتاب بشكل جلي واضح المعرفة والتعمق في اللغة والشعر ، تلك المعرفة ، وهذا التعمق اللذان لم يكونا ، اطلاقاً ، الصفة الضرورية الحتمية لعربي قد نال ثقافة المدرسة فقط كما هو الحال عند أسامة ، ذلك الشاعر المشهور بين معاصريه ، حتى وبين الذين تلوه . أسامة - هنا في هذه المعرفة ، وهذا التعمق - يعتبر واحداً من الطبقة المتوسطة ، التي تقول الشعر . وفي الواقع ، يمكن اعتبار القسم القليل من مؤلفاته متمسكاً بهذه الصفة : صفة الأدب المكتبي ، صفة التجميع ، لكن هذا لا ينفي إطلاقاً وجود مؤلفات أخرى لأسامة كان فيها مبدعاً ، منطلقاً من واقع الحياة .

في التقديم « كتاب العصا » أشار أسامة ، الى انه كان قد فقد « كتاب عن العصا » ، لذا أراد أن يؤلف كتاباً حول هذا الموضوع ، ويضمـنه جميع ما جمعه عن « العصا » : « ولي نخوض من مستين سنة أنطلب « كتاب العصا » بالشام ومصر والعراق والحجاز والجزيرة وديار بكر ولا أجد من يعرفه ، وكما تعذر وجوده ازددت حرصاً على طلبه ، إلى ان حداني اليأس منه على ان جمعت هذا الكتاب وترجمته بكتاب العصا ، ولا أدري أكان ذلك الكتاب على هذا الوضع أم على وضع غيره ، غير أنني قد بلغت النفس منها ، ولا ارتاب في ان مؤلف ذلك الكتاب وقع له

معنى فأجاد في تأليفه وتنميقه ، وكتابي هذا وإن كان خاليا من العلوم التي يتجمل التصانيف بها ، ويرغب أولو الفضل في طلبها ، فمما يخلو من اخبار واشعار تمل النفوس اليها ، ويحسن موقعها من وقف عليها ، وقد افترضته بذكر عصاموسى ، عليه السلام ، ثم عصا سليمان بن داود ، عليها السلام ، ثم أفضت في ذكر الاخبار والاشعار التي يأتي فيها ذكر العصا ، ولا أدعي اني أتيت على ذكر العصا فيما جمعتها وإنما أوردت منه ما حفظته وسمعته (١) وأورد أسامة في هذا الكتاب اشعاره أيضاً كماداته .

في عام ٥٧١ / ١١٧٥ كان أسامة قد كاتب القاضي الفاضل حول هذا هذا الكتاب وأورد هذه المكاتبة عماد الدين الاصفهاني في كتابه « خريدة القصر » ، ويفهم منها أن أسامة الذي كان وقتها في ديار بكر، أرسل مؤلفه إلى وزير مصر ، والفاضل أوصل له رأي الوزير عن المؤلف .

تعرف في أيامنا ثلاث مخطوطات لكتاب العصا :

آ - الاولى محفوظة في مكتبة الامبروزيان في ميلانو تحت رقم [Ambr H 125] ، وتاريخ نسخها ١٠٦٧ / ١٦٥٧ (٢) .

ب - الثانية محفوظة في ليدن تحت رقم « Cod 2093 = Amin 370 » ، تقع في ٩٤ ورقة ، وعليها تاريخ ١٠٩٤ / ١٦٨٣ ، الذي ، كما نعتقد ، ربما كان تاريخ نسخها (٣) .

١ - H. Deredqourg ' Le vie d'Ousama, C. 505

٢ - حسين ، م . أسامة ، ص ٩٧ .

٣ - ك . ليدن . ح . I ، ص ٢٨٠ ؛ عن هذه المخطوطة كتبت

ZDMG 69,73

مقالة . انظر :

ج - الثالثة تقع في ١٢٢ ورقة ، منسوخة عام ١١٢١/١٧٠٩ ،
وعلى هذه المخطوطة كان هرتوينغ درنبورغ قد اعتمد في إصدار مقدمة
المخطوطة عام ١٨٨٨ ، وترجمها للغة الفرنسية (١) .

٦ - باب الآداب :

إن هذا المؤلف أيضاً مجموعة شعرية ؛ تركيبه وترتيب المادة فيه
متشابهان مع تركيب وترتيب مادة « كتاب المنازل والديار » الذي إنما
هو نموذج عن مؤلفات ذلك العصر ، الذي يعتبر جمع المواد حسب موضوع
معين من أهم صفاتها .

قسم أسامة كتابه « باب الآداب » إلى سبعة أبواب : (١) في
الوصايا ؛ (٢) في السياسة ؛ (٣) في الكرم ؛ (٤) في الشجاعة ؛ (٥)
في الأدب بمعنى مكارم الاخلاق ، وقد قسم هذا الباب إلى خمسة عشر
فصلاً ؛ (٦) في البلاغة ؛ (٧) في الحكمة . ويورد في هذه الابواب
ما يتعلق بها ، مما جاء في القرآن ، ثم ماورد في حديث الرسول ، ثم
المأثور من أقوال الحكماء ، وأشعار الشعراء .

إن التشابه بين « باب المراثي » (ص ٤٠٥ - ٤١٠) ، في
« باب الآداب » و « فصل بكاء الاهل والاخوان » في « كتاب المنازل
والديار » [ص ٢٧٣ وما بعد] يلقي مباشرة في عين القارئ ، ذلك

لأن أسامة يورد ، هنا وهناك ، نفس المقطوعات الشعرية ، مع نفس التقديم لها ، في حين تورد هذه المقطوعات في المصادر الأخرى بروايات مختلفة عن رواية أسامة ، وأحياناً باختلاف في الالفاظ ، لكن مع هذا التشابه بين مؤلفي أسامة يوجد أيضاً اختلاف يبين : ففي « لباب الآداب » يورد أسامة أشعاراً في الكرم والحكمة ، وفي الفضائل الأخرى التي يفتخر بها العرب . « لباب الآداب » بالمقارنة مع « المنازل » : يتميز بأهدافه التربوية والوعظية ؛ يتكلم في الكتاب على الثقة والاخلاص ، وعلى حفظ السر وكتامنه ، وعلى التحفظ والاقتصاد في الرغبات وكبح جماحها ، وعلى عدم السماح بالكذب أو الغضب ، وعلى الأعمال الحسنة واللطافة . ولم يغفل أسامة البلاغة في هذا الكتاب أيضاً ، إذ ينحصر فصلاً للبديع لكن هنا ، في تمييز عن « كتاب البديع » ، يتوقف أسامة على الجوانب التطبيقية العملية . وباعتماده على ذوقه الأدبي النقدي يورد أشعاراً جيدة ، مقتبسة من أشعار الشعراء الآخرين . ويبدو لنا أسامة في هذا وكأنه ناقد أدبي . وليس هذا بمجيب ، ذلك لأن رجلاً كأسامة ، ينقد أشعاره الخاصة ويغريبلها بعد إعادة النظر فيها ، ويحذف تلك التي أصابت نجاحاً قليلاً ، لا يمكن أن يكون متساهلاً مع أشعار الشعراء الآخرين ، بل سينقدها حتماً ، ويعطي المجال الواسع لذوقه الأدبي النقدي في حسن الاختيار والانتقاء والاقتباس .

إن « كتاب لباب الآداب » ، بصورة عامة ، ثمرة عقل أسامة الناضج قد كتب من قبل أديب ذي خبرة كبيرة ، وتجربة ، ومعرفة واسعة . والمواد المجموعة في الكتاب إنما تدل على اطلاع أسامة الواسع ،



وعلى حسه السليم ، وذوقه الرفيع في الاختيار .

والكتاب مخطوطتان :

آ - الاولى ضمن مجموعة كتب يعقوب صروف الخاصة ، وتقع في ٢٤٩ ورقة (٢١ دفترأ) ؛ فقدت من القسم الثاني (٦) أوراق ، كما أن الورقة الاخيرة من هذا القسم قد فقدت جزئياً بعض التعليقات والتشروح. وهناك تعليق وملاحظة على المخطوطة يعود تاريخها إلى عام ٩٧٤/١١٨٣-١١٨٤. والمخطوطة منسوخة في حياة أسامة ، عندما كان له من العمر ٩١ عاماً ، حيث قد أهدى أسامة هذا الكتاب إلى ولده مرهف . ومكان النسخ دمشق ، والناسخ هو « غنائم المعري »^(١) . لقد قام يعقوب صروف بوصف المخطوطة ، وكتب عنها عدة مقالات^(٢) . وصورة المخطوطة محفوظة بدار الكتب تحت رقم (٤٧٠٠ أدب) .

ب - المخطوطة الثانية - « في دار الكتب » ، في القاهرة ، منسوخة عام ١٠٦٦ / ١٦٥٦ . والناسخ هو رجب الحريري . وبالاعتماد على هاتين المخطوطتين قام الاستاذ أحمد شاكر بإصدار الكتاب في القاهرة، عام ١٩٣٥^(٣) .

١ - ك . دار الكتب ، الاصدار الثاني ، ج ١ ، رقم ٣٥٠ .

٢ - لباب الآداب ، المقدمة ، ص ٧ - ٩ ؛ ومجلة المقنطف ، مجلد ٣٢ ، ص ٩٥٣ - ٩٦٠ ، كانون أول ، ١٩٠٧ ؛ انظر أيضاً : مجلد ٣٣ ، نيسان ، ١٩٠٨ ، ص ٣٠٨ - ٣١٣ .

٣ - لباب الآداب ، لأسامة بن منقذ ، حققه أحمد شاكر ، مطبعة الرحمانية بمصر ، ١٩٣٥ .

٧ - التأسي والتسلي :

إن هذا الكتاب متشابه أيضاً بمضمونه ومحتواه مع « كتاب المنازل والديار » ، ومع « باب المراثي » في « كتاب لباب الآداب » . وللأسف فإن هذا الكتاب مفقود ، ومشار إليه عند أسامة في مؤلفه رقم (٦) (١). ولهذا ، كنتيجة منطقية ، قد كتب قبل عام ٥٧٩ / ١١٨٣ - ١١٨٤ . هذا ما كتبه أسامة في « لباب الآداب » (ص ٤١٠) :

« قد أوردت في كتابي المترجم بكتاب (التأسي والتسلي) من ذكر الصبر ما ورد فيه في الكتاب العزيز ، والاحاديث المرفوعة ، وشيئاً من أقوال الحكماء ، ومن الاشعار وال اخبار ، فغنيت عن الاطالة فيه في كتابي هذا ، فأوردت في هذا الفصل مختصراً ، ... » ؛ « مارأيت أن أخلي هذا الباب من ذكر شيء من المراثي ، فذكرت هذه النبذة منها ، وقد أوردت في كتابي المترجم بكتاب « التأسي والتسلي » من المراثي والتعازي (ما غنيت به عن الاطالة ها هنا !!

٨ - قبل ببيعة الدهر :

المؤلف مفقود ، ومذكور عند ياقوت الحموي ، وابن خلكان ، وحاجي خليفة (٢) .

-
- ١ - أسامة ، لباب الآداب ، ص ٢٩٤ و ٤١٠ .
 - ٢ - ياقوت ، معجم الأدباء ، ج ٢ . II ، ص ١٨٨ ؛ ابن خلكان ، ج ٢ . II ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ ؛ ح.خ ، ج ٢ . III ، ص ٢٣٨ ، رقم ٥١٣٦ .

٩ - السبب والسبب :

وكذلك فإن هذا الكتاب مفقود، ومشار إليه من قبل أسامة في مؤلفه رقم (٦) (١)،
ويخبر ياقوت الحموي أن أسامة كان قد أهدى الكتاب لأبيه (٢) .

إن مؤلفات هذه المجموعة - (المؤلفات ذات الطابع الأدبي) -
غير متساوية القيمة لا بحجمها ، ولا بأهميتها . ثلاثة منها (المنازل ،
والعصا ، ولباب الآداب) ما هي هي الا مجموعات شعرية . ونفترض
أيضاً أن المؤلفات الأخرى المفقودة من هذه المجموعة هي مجموعات شعرية
بصاً .

ثانياً - مؤلفات تحمل طابع السيرة ، والطابع
التاريخي .

١٠ - الاعتبار :

أ) لقد كان لأسامة من العمر (٩٠) عاماً عندما كتب هذا الكتاب ،
وجمع فيه مذكراته وملاحظاته عن العلاقات الحربية والسياسية التي كانت
في مصر ، والعراق ، وسورية في القرن الثاني عشر ميلادي . ويصف
بصدق وعدل وإخلاص الممارك مع الأفرنج ، ويتناول بموضوعية الأخبار
عن مظلم موضوعات كتابه (يصف مثلاً كيف ألزم هو وزميل له على
الفرار من قبل فارس أفرنجي) . لكنه ، أحياناً ، في بعض الحوادث ،

١ - أسامة سبيلاب الآداب ، ص ٣٧٧ .

٢ - ياقوت ، معجم الأدباء ، ج II ، ص ١٨٢ .

- وخاصة في الاخبار عن حوادث مصر ، التي يمكن أن تعطي لشخصيته صفات سلبية - يحاول التملص ، والبعد عن الحقائق التاريخية ، وتبرير مواقفه الخاطئة بأسلوب غير علمي ، وغير واقعي ، مظهراً بذلك موقفاً ذاتياً شخصياً من الأحداث (إذ ان الكثير المؤلم من هذه الاحداث كان قد نفذ - هكذا بصيغة المجهول - حسب كلامه) . لكنه رغم هذه المواقف السلبية ، يقول الحقيقة غالباً ، فهو يعجب بالبطولة ، مثلاً ، كما عند العرب ، كذلك عند الافرنج ، ويورد الكثير من الحوادث المتنوعة في العلاقات المتبادلة بين المسلمين والافرنج في أيام الحروب الصليبية ؛ في أوقات المعارك والقتال والحرب ، كما أنه يورد العلاقات أيام الحياة السلمية ، ويصف بتفصيل زائد عادات وطباع وتقاليد الافرنج ، ويتحدث بمشاعر صادقة عميقة لطيفة عندما يتذكر أسرته : يقدس الأب الذي نظر اليه أسامة « بميون المحبة » ، لكنه واقعي في حديثه عنه - رغم ذلك - وهو لا يتكلم بمحبة عن عمه الذي حرمه وطنه ، بل - على العكس - يتحدث باكبار واعتزاز عن بطولاته وانتصاراته الحربية ، ولم يذكر اسمه مرة إلا وترحم عليه .

④ لقد كان أسامة ، في أكثر الحالات ، مشاهداً بأب العين لما يصف ، ولذا فإن « كتاب الاعتبار » يعتبر أحد المصادر الهامة جداً عن تاريخ الحروب الصليبية ، وعلاوة على ذلك ، فإنه أهم المصادر عن مسيرة حياة أسامة الذاتية . إن كل مصائب الحياة والأيام إنما يسهلها على أسامة كون « مدة الحياة المقدرة للمرء لا تتغير » ، لكن هذا الاعتقاد الكامل

بالقضاء والقدر ، الذي ربما لم يظهر في كل قصة ، لا يأخذ عند أسامة الجانب السلي « إذ إن الناس عندما يقررون بشدة على شيء فانهم لا يبدون وبحقونة » حسب رأي أسامة . ويورد في ذكره للافرنج دائماً عبارات « لعنهم الله ... الشياطين الافرنج ... الخ ... » . لكنه رغم هذا ، وبشكل زائد ، يقدر فيهم البطولة والشجاعة والاقدام ، ويذكر باعجاب الصفات الحسنة التي يراها فيهم . إن رأيه في الافرنج لم يتولد فقط نتيجة معرفته بهم في الحرب ، بل وأيام السلم أيضاً . ولهذا فان العبارات السابقة « لعنهم الله ، يلعنهم الله .. ما هي إلا عبارات تقليدية ، ولا تميز عن معتقد فكري حقيقي ، وليست موجهة إلى المسيحيين عامة . ويجب أن أخذ لا ننسى أن بين عمال وموظفي السلطنة والامارة والخلافه الكثير من المسيحيين ، حتى إن أطباء ذلك العصر ، تقريباً ، كلهم مسيحيون ، وجميعهم كانوا يمشون برفاه ونعيم وسلام في بلاطات الامراء (المسلمين) ، وبصورة خاصة في فترة الصراع العنيف مع الصليبيين . وهذا تأكيد آخر لما ذهبنا إليه في « المقدمة » من أن المسيحيين عاشوا بأمان في ظل الحكم الاسلامي ، وما ادعاء الصليبيين بتحرير المسيحيين إلا ادعاء باطل كنا قد دحضناه فيما سبق .

٥) إن إقامة أسامة الأولى في دمشق - كما يظهر من كتاب الاعتبار - أعطته إمكانية أكبر للتعرف بشكل أقرب على الافرنج . حتى إن أسامة أحياناً يدعو بعضهم « أصدقاء » وكأنه قد تناسى دعوته السابقة لهم « بالشياطين » . ومع هذا فانه يتحدث باستفاضة عن طابع الافرنج ،

وبصفهم بالوحشية والقسوة ، وبيتهم على طيهم ، ويرى بأن إمكانية الرقي والتقدم إنما متوفرة للأفرنج الذين يعيشون في الشرق فقط ، ذلك لما يكسبونه من العرب والمسلمين .

(٢٤) في « كتاب الاعتبار » تظهر المفارقة الواضحة بين الشرق والغرب ، وبأخذ الشرق قصب السبق في هذا المجال ، حتى لو طبقنا هذا على مستوى الأفراد : أبو أسامة ، مثلاً ، محارب وصياد ؛ ينخصص الليل لنسخ القرآن ، والكتب عامة ، وأسامه أيضاً أديب ، ومؤرخ ، ورجل دين . وأعظم فقدان عنده في حياته كان ، بالنسبة له ، فقده مكتبته . ولم يكونا (اسامة وابوه) الوحيدين في هذا ، بل على منوالهما كان معظم رجالات المحيط الاجتماعي الذي يعيشون فيه . هذا هو « بيت المعرفة » في طرابلس يسقط في يد الصليبيين ، وها نحن نرى اميرين من امراء العرب المجاورين لطرابلس - (أبا اسامة وعمه) يذهبان إلى طرابلس لا لشراء الحلى والمجوهرات والنساء ، بل ليفتدوا عالين شيخين : الطلبلي وابن منير . فهل يا ترى شعر الأفرنج بقيمة وخطورة المفتدين ؟! وإن شعروا بذلك فهل فهموه ؟! والجواب على هذه التساؤلات برأينا ورأي الكثر من العرب والمستشرقين هو النفي .

وبفضل « كتاب الاعتبار » نتعرف بشكل ادق واقرب على نموذج الفارس المسلم . اننا نعرفه الآن اكثر مما كان يعرفه المعاصرون له في العصور الوسطى ، واكثر مما عرفه جماهير الصليبيين . ويعتبر ف . حتي « كتاب الاعتبار » اول مسيرة ذاتية في الادب العربي . اما كراتشكوفسكي

فيكتب عن هذا ما يلي : « لا يمكن اعتبار الكتاب سيرة ذاتية بالمعنى العادي للسيرة ، بل إنه (موزاييكي) جداً من اجل هذا . لكن لا يمكن إلحاقه بأي فن آخر من فنون الأدب ، رغم ان المحور الذي تدور حوله جميع القصص هو - حياة أسامة » (١) .

إننا ، في الآداب الأوروبية حتى القرن السادس عشر ، لا نجد فقط الاساس النظري للسيرة الذاتية بل نعثّر أيضاً على اشكالها المتطورة المتقدمة .

اما بالنسبة للأدب العربي فان فكرة السيرة الذاتية كانت على الدوام غريبة^٢، لكن يمكننا ان نعثّر على ظواهر جزئية مفاجئة - طبعاً - مثلاً ، اعترافات الفزالي (مات عام ١١١١م) ، لكنها وبسرعة تدخل في مجال علم النفس (ببيكولوجيا) . وعمر اليماني ، الذي قتل ابان المؤامرة ضد صلاح الدين في عام ١١٧٥م ، في مقدماته لكتابه عن وزراء مصر ، يتحدث عن طفولته الخاصة . وإذا كان في الجزء الاساسي من القصة لا يتحدث إلا عن الوزير المقصود ، فهو في المقدمات أيضاً يكثر الحديث عن اهله واقربائه اكثر مما يتحدث عن نفسه .

أما عند أسامة فمن المحتمل أنه قد وجد نظام معين أو فكرة محددة لطريقة كتابة الكتاب ، هذه الطريقة التي لا تتمسك بنخط معين ،

١ - كراتشوفسكي ، إ . ي . ، مقدمة كتاب الاعتبار ، الترجمة الروسية ، ص ٣٦ .

إنما تستطرد من مجال إلى آخر على غرار معظم المؤلفات العربية . لكنه يبقى من الصعوبة بمكان أن يحكم فيها إذا كانت عنده فكرة معينة أم لا ، ذلك لأن الأوراق العشرين الأولى من « كتاب الاعتبار » مفقودة ، والقصة الأولى تبدأ من نصف الكلمة . وربما زالت هذه الصعوبة في الحكم على طريقة وفكرة أسامة فيما لو عثرنا على الصفحات المفقودة ، ذلك لأن من عادة أسامة - كما شاهدنا في معظم مؤلفاته المطبوعة في - مقدمته لمؤلفاته أن يشير إلى هدفه وغايته وطريقته . في الجزء الأول من « كتاب الاعتبار » ، بلاحظ بعض التنظيم الذي يحافظ عليه أسامة ، كم يرى هذا التنظيم في الجزء المخصص للحديث عن الصيد . أما في باقي الكتاب فطريقة إيراد المواد تكون أحياناً منظمة ، وأحياناً كثيرة دون تنظيم . وأشار أسامة إلى أن القصص تابع وتوارد بارتباط فيما بينها . وهو في انتقاله من قصة إلى أخرى يستعمل عبارات متنوعة [(وذكرت بفعله [سرهنك] ما فعله مالك بن الحارث الأشتر .) ، (وحدث لي مثل هذا لما كنت ...) ، (هذه القصة تذكرني بأخرى ..) ، (وشاهدت ما يشبه هذا) ... الخ ..] . وأحياناً يفقد خيط الاتصال . لكن هذا الاستطراد ، بشكل عام ، وقي ، آني يعود بعده أسامة ليصف أيام حياته ، وحوادث عصره ، مخبراً بذلك أحفاده - (الخيط العام للكتاب) .

إذا كانت بعض التواريخ الدقيقة ، التي يوردها أسامة ، وبعض التفاصيل الجزئية تدل على أنه سجلها في وقت مبكر - ربما منذ أن كان بمصر - ، فإن الجزء الأساسي كان قد كتبه وهو في حصن كيفا ،

في هدوء سياسي نسي ، إذ ان التاريخ الاخير في الكتاب هو عام ١١٨٢ أي قبل وفاته بست سنوات .

إن الكتاب بأكمله قصة واحدة متكاملة متداخلة ، تكون في بعض الاماكن أكثر حيوية ، وفي بعضها الآخر أكثر هدوءاً ، لكن في كل هذا كانت القصة من الواقع ، وليست تجميعاً مكتيباً من الكتب . ولابد من الإشارة إلى أن أسامة يظهر - في قسمه الذي يدح فيه صلاح الدين - وكأنه من ادباء ذلك العصر ، حيث يكتب محافظاً على المقابل والسجع والازدواج . او فيما تبقى من الكتاب فحدثه حديث الشاعر ، العالم ، المؤرخ . وبشكل غير عادي عند المؤلف العربي ، وعند أسامة بالذات ، يورد أسامة هنا بقلة أشعاره الخاصة ، ومقتبسات من أشعار غيره .

إذا كان « كتاب الاعتبار » بتركيبه ومادته ، تقريباً ، فريداً في الادب العربي حتى عصر أسامة على الأقل ، فانه في صفة اخرى أيضاً لا يمكن ان يمثّر له على موازٍ ومجاري : إن هذه الصفة هي الاكثر من إيراد النكتة والنوادر ، إن روح الفكاهة تظهر عنده في الفاظ مفصولة ، وأحياناً اخرى في جمل وتراكيب طويلة ، ومرة ثالثة في لوحات كاملة . وأحياناً تدب الإشارة المضحكة السريعة الحياة في كل القصة : أي دور الحديث عن الناس ام الحيوانات ؟! « فالفهد مناضل من اجل المقيدة » ، « والصقر يصطاد بواجب الخدمة » ، « والأمدجيان أحياناً » ، ومن ناحية أخرى : - الامير الذي كان ، بشكل مدهش غريب ، ثقيل الفهم - « أكل أيضاً اكثر (من ثقل فهمه) » ، والبدوي « يخاف الطاعون ،

رغم ان حياته مع اهله اشبع من الطاعون ، والجيش نهب الحصن تماماً ، كما ينهب البيزنطيون ، . إن كل هذه التراكمات غاذج مساطعة عن فكاهته ونكته . وأحياناً يورد لوحة كاملة لحادثة واقعية ، لكن يوردها بالملوب إنما يدل على حضور روح النكته عنده : الحمار الذي اراد ان ينقضي على خرج الدراهم لا يشير الفسكاهة والابتسامات بدرجة اقل من الأسد الذي انقذ نفسه بالحرب من حشرة حول المسيح في في ارض الدار . وتظهر ايضاً اللوحة الحية في تصويره للعالم الذي ذهب مع الامير للصيد : فموضاً عن الصيد جلس العالم الشيخ على التلة ، واخذ يصلي لله كي ينجي الحجلة من الصقر . إلى ما هنالك من امثلة عديدة مبثوثة في الكتاب .

إن « كتاب الاعتبار » بأكمله يتألف من لوحات منفصلة ، تارة مضحكة ، وأخرى محزنة ، وثالثة رهبة مرعبة . وربما يترك الكتاب في نفس القارئ لأول قراءة صورة عامة - منفردة للأفكار والمحور ، لكنه بالتدريج يعطي الانطباع عن حقيقته : إنه كتاب حول فكرة موحدة تصور حياة الكاتب وعصره ، تلك الصورة الممزوجة - إلى جانب كل ما قدمناه - بالدم الذي يروي ، من الواقع ، قصة عصر عصيب عاشه الكاتب .

ويمكننا أن نتحدث كثيراً ايضاً عن ابطال الكتاب ، وعن كتاب البطل لكننا نكتفي بهذا القدر من تحليلنا « لكتاب الاعتبار » ، الممثل لمض الجوانب الفنية للنثر في اواخر العصر العباسي الثاني .

إن « كتاب الاعتبار » قصة حياة لمشاهد عيان ، تنعكس فيها
بسطوح ظروف الحياة ، وعادات ، وطباع ذلك العصر ، ومن هذه الزاوية
بالذات يمكن اعتبار الكتاب أيضاً أهم وثيقة تاريخية .

والقيمة العظمى « للاعتبار » يعطيها الباحث العربي شوقي ضيف إذ
يقول عنه بأنه : « مذكرات بدبغة تصور لنا الفروسية العربية زمن
الصلبيين ، كما تصور حياة المسلمين لعصره ، وحياة الصليبيين أنفسهم ...
إنه طرفه بما يحوي من مذكرات سياسية وحرية واجتماعية عن عصره ،
وهي مذكرات نفيسة ويزيد من نفاستها أن أكرم ما دونها مما خيره
بنفسه وشاهده بعينه » (١) .

إن « كتاب الاعتبار » مكتوب بلغة عربية أدبية لا تخلو من
الخلل والعامية ، ويعتبر فيها على انحرافات عن اللغة العربية الكلاسيكية ،
وعن القواعد ، مع وجود الالفاظ العامية ، التي تعبر عن لهجة شهي
سورية في ذلك الحين . ولا بد للفارسي من أن يستغرب امكانية العثور
على مثل هذه الاخطاء اللغوية في كتاب هذا الاديب الشاعر . لكن
أسامة قد قدم - من حيث لا يدري - خدمة جلى للباحث الذي يسؤرخ
اللغة العربية ولهجاتها ، ويدرس تطور هذه اللهجات ، ومجالات القرب
والبعد بين العامية والفصحى ، فكان أسامة بالزلاقة في كتابه الى العامية
قد أعطى صورة عن لهجة العامة وقتها مما يفيد في متابعة دراسة تطور
العامية .

إن المخطوطة الوحيدة لهذا الكتاب محفوظة في الأوسكريال (لكنها غير موصوفة في كتالوك كاسر ، ودرنبورغ) . ويتألف أصل المخطوطة من ٨٨ ورقة ، لكن (٢١) الورقة الأولى مفقودة ، وحفظ فقط ٦٧ ورقة ؛ والمخطوطة منسوخة في القرن XII / VII بخط سوري (انظر تصوير صفحتين موجودتين في إصدار حتي) . وحسب التزييلات التي على الورقة الأخيرة من المخطوطة (توجد صورتها في إصدار حتي أيضاً) ، فإن حفيد مرهف بن أسامة قد قرأ المخطوطة على جده مرهف في عام ١٢١٣/٦١٠ ، الذي أجاز نشرها . وهذا ما يؤكد توقيع مرهف الشخصي بريشته ذاتها . لكن حتى يبدي رأياً مخالفاً إذ يرى ان هذه المعلومات تتعلق بالنسخة التي نسخت عنها هذه المخطوطة المحفوظة .

إن فضل البحث واكتشاف وإصدار هذا المؤلف يعود الى هرتوينغ درنبورغ ، الذي أرسلته وزارة التعليم الفرنسية في عام ١٨٨٠ الى اسبانيا للبحث عن المخطوطات العربية في مكتبة الأوسكريال ودراستها . فوجد في نفس العام المخطوطة المذكورة ، لكنه أصدرها فيما بعد ، في عام ١٨٨٥ - ١٨٨٦ ، وفي عام ١٨٩٤ قام بترجمتها الى اللغة الفرنسية . ثم ترجم « كتاب الاعتبار » فيما بعد الى الالمانية من قبل ج . شومان في ١٩٠٥ وأصدر مع مقدمة لدرنبورغ^(١) . وبعد ، في عام ١٩٢٢ ظهرت

1) G. Schuman, Usama ibn Munkidh memorian, Innsbruck, 1905

لكن حتي يؤكد أن هذه الترجمة قد اعتمدت كلياً على الترجمة الفرنسية ، ذلك لأن الأخطاء في الترجمتين متشابهة .
انظر . حتي ، المقدمة « لكتاب الاعتبار » ، ص (ك) .

الترجمة الروسية التي قام بها م. أ. ساليبي مع مقدمة ل. ي. كراتشكوفسكي (إن الترجمة الروسية مقسمة إلى فصول تحت عناوين خاصة (١) . وفي عام ١٩٢٩ ظهرت الترجمة الانكليزية لـ (٢) ؛ وفي نفس العام (١٩٢٩) ظهرت الترجمة الانكليزية الثانية لـ ج. بوتز (٣) . وبعد عام قام ف. حتي ، بالاعتماد على مخطوطة الاوسكريال ، بإصدار النص العربي « لكتاب الاعتبار (٤) » .

وعدا « كتاب الاعتبار » يمكننا أن نضيف إلى هذه المجموعة ما يلي من مؤلفات أسامة :

١١ - « كتاب اخبار اهله » . ١٢ - « وكتاب تاريخ أيامه » ،
فيما لو كان وجودهما أو تميزهما عن « كتاب الاعتبار » مؤكداً . والكتابان معروفان عندنا فقط

١ - أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، موسكو ، ١٩٢٢ .

في عام ١٩٥٧ أصدرت الترجمة الروسية ثانية مع مقدمة ييلاييف .

2) H. Philip, An arab-Syrian... New york, 1929

3) G. Potter, Authobiography Ousama ibn Mounkidh, London, 1929

أسعد رستم في الكلية - مجلة الجامعة الاميركية ، جزء 1 ، مجلد

١٦ ، عام ١٩٢٩ ، ص ١٥١ - ١٥٢ يعطي قيمة ايجابية لترجمة حتي .

وقيمة سلبية لترجمة بوتز « التي بشكل أعمى تعتمد على الاصدار الفرنسي » .

٤ - الكتاب مقسم إلى ثلاثة أجزاء (حروب وأسفار ، نكت ونوادر ،
أخبار الصند) .

بذكرهما عند ياقوت (١) . لكننا نفترض أنها تسميتان وصفيتان « لكتاب الاعتبار » .

وكذلك يمكن العثور على المعلومات التاريخية لعصر أسامة في كتبه:

١٣ - « تاريخ القلاع والحصون » ، ١٤ - « أخبار النساء » ،
١٥ - و « أخبار البلدان في مدة عمره » ، فيما إذا كان المؤلف الأخير
يوجد ككتاب منفصل . ويمكن الافتراض بأن هذا المؤلف هو نفس
« كتاب تاريخ القلاع والحصون » . وتجدر الإشارة إلى أن كل هذه
المؤلفات مفتوحة . أما فيما يتعلق بمادة « تاريخ القلاع والحصون » فإنها
غير موزعة وفق النظام الجغرافي بل حسب التسلسل التاريخي ، والأخبار
معطاة فيه (كما هو مشار في المصادر) حتى عام ١١٧٠ . ويشار إليه
عند حاجي خليفة ، وبالاتماد عليه - عند مصطفى حجازي (٢) كما توجد
إشارة إلى « أخبار البلدان » عند الذهبي (٣) . ويتحدث أسامة في « أخبار
النساء » عن نساء عائلته وعصره . ونعتقد بأنه هنا إنما يوسع المادة عن
النساء ، التي وجدت في « الاعتبار » . . .

ومن الواضح ، أن أسامة أراد إيقاظ المشاعر ليس عند رجال
عصره فقط ، بل وعند نساء ذلك عصره ، ويسمو بها . فقد لعبت نساء
أسرته : (جدته ، وأخته ، وأمه ، ومريثة) ، دوراً كبيراً في تربيته

١ ياقوت ، معجم الادباء ، ج ٢ . II ، ص ١٨٢ .

٢ - أسامة ، المنازل ، المقدمة ، ص ٥١ .

٣ - الذهبي ، سير ، ص ٦٠٢ .

مظهرت، أكثر من مرة ، الشجاعة ، والكبرياء والصمود ، ولقد افتخر
أسامة بهذه الصفات عند « أمهات الرجال ».

ان هذا المؤلف « أخبار النساء » مذكور في المؤلفين رقم (٤) ،

و (١٠) ، وهذا يعني أنه مكتوب قبل ٥٨٦ / ١١٧٢ (١) .

ثالثاً : المؤلفات ذات الطابع التاريخي - البيو-غرافي

(التعريف بالاعلام) .

ان مؤلفات هذه المجموعة لا تمتلك قيمة كبيرة ، إذ في اثنين منها
قد قام أسامة ، بشكل موجز، بكتابة معلومات مشهورة في مؤلفات مؤلف
آخر . وتكرر في البقية معلومات وحقائق كانت قديماً مطبوعة من قبل
مؤلفين آخرين . كما أن أسامة يتوجه في هذه المؤلفات الى الماضي ،
مختاراً الشخصيات التي أظهرت في عصرها الحكمة والعدالة واصفاً الانتصار
في بدر ... الخ ... وفي اعتقادنا أن المؤلف قد قام بكل هذا كي
يوقظ أبناء عصره ، ويسمو بهمهم ، ويربهم على أمثال أبطال العرب
القديماء .

(١٦) . (التاريخ البديري) . ان هذا المؤلف مفقود ، لكن
ذكره أسامة في كتابه رقم (١٧) ، وكنتيجة منطقية لهذا كان قد كتب
قبل عام ١١٧٢/٥٦٧ (انظر فيما بعد) . ويذكره الذهبي أيضاً في « سير

١ - - يكتب أسامة في « كتاب المنازل والديار » المخطوطة ، ورقة
٩٤ (أ) وفي إصدار حجازي ، ص ١٦٦ عن العلاقة بين بهس
بن صهيب بن عمرو وبين صفراء .

أعلام النبلاء » : عن يحيى بن أبي طي أنه ذكر في تاريخ الشيعة :
حدثني أبي قال :

اجتمعت به (بأسامة وط) دفعات وكان إمامياً حسن العقيدة
الا انه كان يداري عن منصبه ويظهر التقية . وكان فيه خير وافر وكان
يرفد الشيعة ، ويوصل فقراءهم ، ويعطي الأشراف . وصنف كتباً منها
(التاريخ البدري) جمع فيه أسماء من شهد بدرًا من الفريقين ،
وكتاب « أخبار البلدان في مدة عمره » ، وذيّل على خريدة القصر للباخرزي
وله ديوان كبير ومصنفات (١) .

لقد أُعطى ف . حتي تسمية هذا المؤلف محرفة فقال عنه « التاريخ
البلدي » .

يكتب أسامة في المقدمة لهذا الكتاب : « انني وقفت في شوال
سنة سبع وستين وخمسة على كتاب مناقب أمير المؤمنين أبي حفص عمر
تأليف الامام الزاهد ، أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي فرأيت - وبالله
التوفيق - أن أجردها من الأسانيد ، وقد كنت أوردت في كتابي
الترجم « بالتاريخ البدري » المشتمل على ذكر فضائل أهل بدر من
مناقبه وفضائله وفتوحاته وأحكامه ما فيه مقنع وكفاية ، ولكن الزيادة من

١ - الذهبي ، سير ، ص ٦٠٣ . ان مؤلف الباخرزي يسمى « دمية
القصر » ، إداً فقد التبس الامر على الذهبي مع « خريدة القصر »
لعامد الدين الاصفهاني (توفي في ٥٩٦ هـ ، بعد ١٢ عاماً من
وفاة أسامة » .

الخير خير » (١) .

ومخطوطة هذا الكتاب محفوظة في القاهرة في دار الكتب برقم
د ٢٣٣٤ تاريخ .

ويكتب النعساني بأنه وجد مخطوطة أخرى لكتاب أسامة هذا ،
فقام بنسخها ، وأرسلها إلى أحمد تيمور (٢) .

(١٨) . مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز .
ومن الممكن ، أن هذا الكتاب يعود لذلك الزمن ، الذي يعود
إليه الكتاب السابق رقم (١٧) .

ويوجد في تلك المخطوطة المحفوظة في دار الكتب (٣) . وهو
اختصار لكتاب ابن الجوزي . ويكتب أسامة في مقدمة الكتاب ما يلي :

١ - م - حجازي ، مقدمة كتاب «المنازل» ، ص ٥١ .

٢ - ط . النعساني ، أسامة ، ص ٣٥-٣٦ ؛ مجلة المجمع العلمي العربي
بدمشق RAAD ، > . X ، ص ٣١٣ . من المحتمل أن
مصطفى حجازي يكتب عن هذه المخطوطة التي انتقلت مع كتب
المكتبة التيمورية إلى دار الكتب منذ عام ١٩٣٢ (انظر . ك .
التيمورية ، > . 1 ، ص . (د) . وتحفظ في استنبول في مسجد
آيا صوفيا نسخة أخرى لمؤلفي أسامة (مختصر ابن الخطاب ،
ومختصر ابن عبد العزيز) ، انظر . ابن الجوزي ، ص ٣٩٤ . و

GAL , SB , I , P. 916

٣ - أ . بدوي ، الحياة الأدبية ، ص ١٧١ .

«جردته من الأسانيد ، وحذفت ما فيه من التكرار ، وكتبته بخطي ، وكنت قد أوردت من مناقبه وورعه وحسن سيرته وزهده في كتابي المترجم (نصيحة الرعاة) ما جاء مفروقاً في اثناء ابواب الكتاب»^(١) .

١٩ . فضائل الخلفاء الراشدين .

~~ان هذا المؤلف مفقود ، لكن ذكره أسامة في مؤلفه رقم (٦) .~~

~~رابعاً : المؤلفات ذات الطابع الوعظي الارشادي~~

لقد كتب أسامة في هذا الاتجاه كتابه « نصيحة الرعاة » الذي نعطيه رقم (٢٠) ، ومن المتحمل أن أسامة كان قد كتبه لواحد من الوزراء أو الامراء في ذلك العصر كما هي عادة معظم معاصريه . ومن الممكن أن « نصيحة الرعاة » يتشابه بالمحتوى والمضمون مع باب الآداب (نقصد باب السياسة) ، لكنه يفوقه بعدد الصفحات .

ان هذا العمل الأدبي مفقود ويذكر من قبل أسامة في كتابه رقم (١٨) ، ولذا نعتقد أنه كتب قبل عام ٥٦٧ / ١١٧٢ .

وبنسب مختلفة يمكن ان نلحق الى هذه المجموعة الوعظية الارشادية التربوية بعض المواد المبثوثة في مؤلفات أسامة المختلفة ، وبصورة خاصة في مؤلفات المجموعة الثالثة وفي « الاعتبار » .

ان المؤلفات المذكورة فيما يلي أيضاً منسوبة الى أسامة . لكننا لا

١ - م . حجازي ، المقدمة « لكتاب المنازل » ، ص ٥١ .

٢ - أسامة لباب الآداب ، ص ١٧٣ .

تتمكن من نسبتها الى أية مجموعة من المجموعات المشار إليها فيما سبق ، ذلك لأنها مفقودة ، ونحن لا نعرف عنها الا الاشارات إليها في بعض المصادر .

(٢١) . « النوم والاحلام » يشار إليه في مؤلف أسامة رقم (١٠) (١) .

(٢٢) . « أزهار الانهار » . مذكور عند حاجي خليفة (٢) وبالاتماد عليه عند حتي (٣) .

(٢٣) . « التجائر المربحة والمساعي المنجمة » . يذكر عند حاجي خليفة (٤) ، وبالاستناد اليه عند درنبورغ (٥) وحتى .

في نهاية بحثنا ودراستنا للآثار الأدبية لأسامة يمكن ان ننسب كتاب البديع، إلى مراحل حياته الاولى ، لكن لا يمكننا ان ننسب اي مؤلف لأسامة الى مرحلة اقامته الاولى بدمشق ، وكذلك بمصر ، ذلك لأن حياته في هذين القطرين كانت مكرسة للحياة السياسية ، ومن الممكن انه كتب في هذه الحقبة بعض المؤلفات الشخصية ، او مسودات المؤلفات ، لكنها ، ربما ، قد فقدت مع مكتبته .

ان الخمس عشرة سنة الأخيرة ، (١١٧٠ - ١١٨٤) تظهر خصبة

١ - أسامة ، الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ١٨٦ .

٢ - ح . خ ، ج . ١ ، ص ٢٦١ ، رقم ٥٤٤ .

٣ - - أسامة الاعتبار ، إصدار حتي ، ص ، (د) .

٤ - ح . خ . ١١ ، ص ١٩١ .

جداً بالفسبة للانتاج الأدبي لأسامة . إذ كان قد كتب في هذه المرحلة معظم مؤلفاته : « كمختصر مناقب ابن الخطاب » ، و« مختصر مناقب ابن عبد العزيز » ، « والمنازل » ، « والعصا » ، « والقلاع والحصون » ، « والديوان » ، « والاعتبار » ، « ولباب الآداب » .

ومن المحتمل انه يمكن ان نلحق كتاب « الشيب والشباب » بهذه الحقبة ، وكذلك « كتاب التأسى والتسلي » ، ونفترض هذا ذلك لأنه قد ضمن « ديوانه » مجموعة اشعار ، حيث يبكي فيها فتوته وشبابه ، وكذلك يصف حنينه الى وطنه ومواطنيه في مراحل حياته في الغربة .

إن بعض مؤلفات اسامة يتجه الى الماضي ، وبعضها الآخر يعكس احداث عصره وحياته الخاصة ، والقسم الثالث يظهر وكأنه اختصار لأعمال مؤلفين آخرين سابقين . اما الشهرة الادبية الكبيرة لأسامة فتكمن في مؤلفاته : « الاعتبار » حيث يعكس بوضوح عصره وحياته الخاصة ، « والديوان » بأشعاره ، و « لباب الآداب » ، بمادته الأدبية المختارة ، و « كتاب المنازل » المصدر الاول والأهم لدراسة تطور موضوع الوطن في الشعر العربي .



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الجزء الثاني

موضوع الوطن في الشعر العربي

لقد أشرنا سابقاً إلى أن الدراسة العلمية لكتاب أسامة « المنازل والديار » تعتبر أساساً لدراسة ظهور وتطور مفهوم الوطن في الشعر العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي ، ذلك لكونه مجموعة أشعار للشعراء القدماء ، والمعاصري أسامة ، مع أشعاره الخاصة ، حيث تشيع في هذه الأشعار كلها ألحان فقدان الوطن والمواطنين [الأهل] .

إن المادة الشعرية المجموعة من قبل أسامة في هذا الكتاب موزعة في الفصول حسب الألفاظ التي اتخذها أسامة عناوين هذه الفصول في التبعية التالية : التبعية اللفظية لا المعنوية ، التبعية اللفظية التي تحدد الشكل الظاهري لمكان الإقامة والوطن والربع والغنى .. الخ ، وتجميع الأشعار في فصول إنما يخضع فقط للفظ ، أي ، بتعبير آخر : إن ورود لفظة « ربع » ، مثلاً ، في أي نص شعري يحدد إيرادها من قبل أسامة تحت عنوان [فصل في ذكر الربع] ، وورود كلمة « غنى » يحدد جمع الشعر في « فصل في ذكر الغنى » ، بغض النظر عن الدلالة المعنوية لهذه اللفظة ، وتطورها ، وبأي معنى استعملت في هذه المرحلة أو تلك ، وبكلمة أخرى ، تجمع الأشعار في فصول معينة حسب التبعية اللفظية ، دون الاهتمام بالمدلول التاريخي لهذه اللفظة ، وتطور هذا المدلول .

أما في بحثنا العلمي فكان لا بد لنا من إعادة تجميع المادة الشعرية في « كتاب المنازل والديار » حسب محتوى الأشعار ، ودلالاتها اللغوية تاريخياً (الشيء الذي لم يتبعه أسامة إطلاقاً) ، مع تحليل أوجه الدلالات

المعنوية للصورة الشعرية ، والافظية واستمالاتها حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية (الزمنية) . وفي تحليلنا ودراستنا لهذه الاشعار إنما ندرسها ونحللها حسب تتبعها التاريخي الزمني ، حسب ظهورها . ونهياً لنا ذلك بترتيبها تاريخياً حسب حياة قائلها من الشعراء ، مما أعطانا الفرصة الثمينة لدراستنا التطورية هذه ، كما أننا بنسب محددة ، أخذنا بعين الاعتبار أيضاً مكان حياة هؤلاء الشعراء ، بقدر ما كان هذا ممكناً لنا .

لقد ظهر عالم الارتباطات الانسانية في الشعر العربي ، قبل كل شيء ، عبر التعبير عن أماكن سكن محددة [خيمة ، بيت] ، ثم بالتعبير عن مناطق عيش أوسع نسبياً [مغنى ، ربيع] [أطلال وآثار البيوت ، ومواقف القبيلة ، تلك المواقف المهدمة ، الدراسة] ، وأحياناً فقط في صورة أعم وأشمل (البلد ، والوطن ، والارض) .

كل هذه الاشاعات المكانية تظهر في علاقة وثيقة مع المجموعات البشرية والانسانية (أسرة ، وعائلة [آل] ، وفخذ . وقبيلة ، وتجمع بشري ، ومحيط الاصدقاء ، والاقرباء ، أو الجيران] . وسندرس ماأثرنا اليه من العلاقات المكانية ، والارتباطات الانسانية بنفس هذا الترتيب الذي أشرنا اليه فيما سبق ، لنوضح صور تعبير الشعر العربي عنها ، مع دراسة مشاعر الألم والحزن المرتبطة بها جميعها ، معتمدين في دراستنا على مجموعة كبيرة من المصادر الشعرية الأخرى ، إلى جانب « كتاب المنازل والديار » .

الفصل الأول

الوطن في الشعر العربي

لقد عبر عن « الوطن » في الشعر العربي بألفاظ ومصطلحات عدة ، تختلف حسب مساحة دلالاتها المكانية ، ومنهجها حسب الترتيب التالي مراعين التوسع المكاني لدلولاتها :

- ١ - أماكن السكن : [المنزل والدار والبيت] .
- ٢ - المعنى الأوسع لمكان السكن : [المغاني والربوع] .
- ٣ - بقايا أماكن السكن : [الأطلال والدمن والآثار والرسوم..الخ] .
- ٤ - معنى الوطن الواسع : [المدينة والوطن والبلد والأرض] .

١ - أماكن السكن .

للتعبير عن أماكن السكن في الشعر العربي كانت قد استعملت مصطلحات (الفاظ) ترجع بمعناها الأصلي إلى المجتمع البدوي ، ومشتقة ، كقاعدة عامة ، من أفعال الحركة والانتقال . وهذه الألفاظ هي :

آ - « المنزل » : مفرد جمعه « منازل » ، ومعناه موضع النزول ، ومثله « المنزلة » . قال الأحياني : (منزلنا بموضع كذا) : يعني (موضع نزولنا) . وهو اسم مكان مأخوذ من الفعل الثلاثي الصحيح السالم (نَزَلَ) ، على وزن فعل - يَفْعِل .

ولهذا سمي (البيت) « منزلا » لأنه موضع نزول العائلة ، ومنه الفعل ذو الاشتقاق الثنائي (نَزَلَ القوم) أي أنزلهم المنازل ، (ونَزَلَ فلان غيره) : أي قدر لها المنازل . ونَزَلَ عليهم ، ونَزَلَ بهم ، أي (حل) .

(والنَزُول والمنَزَل) : الحلول : (والنَزِيل) : الضيف ، على وزن (فَعِيل) بمعنى (فاعل) . كما هو الحال في (كريم) : القائم بفعل الكرم . (والمنزول) : البيت الذي يستضيف فيه المضيف ضيوفه . وهذه تسمية مستعملة حتى الآن في القرى التي تحافظ على العادات البدوية . ومنه (النِّزال) في الحرب : أن يتنازل الفريقان ، أو أن ينزلا عن إبلها إلى خيلها للمبارزة ، وقد تنازلا : أي تداعوا للنزال . ومنه (النُّزُل) القوم النازلون بعضهم على بعض . يقال : ما وجدنا عندكم نُزُلا . ومكان

(نَزَلَ) أي ينزل فيه كثيراً على وزن (فَعَلَ) بمعنى مفعول - منزل (١).

ب - (الدار) ، مفرد جمعه (ديار) ، وتدلُّ على قلعة العدد خلافاً لادؤروادور التي تدل على كثرة العدد (٢) . (والدار) ، مكان النزول ؛ منزل ، أو خيمة ، أو (كل موضع حل به القوم وإن لم يكن فيه أبنية (٣) . وسميت الدار ، (داراً) لدورها على سكانها ، كما سمي الحائط حائطاً لاحاطته على ما يحويه . وهي لهذا من فعل (دار-يدور) لكثرة حركة الناس فيها (٤) . ومجازاً فإن (الدار) تعني (القبيلة) ، ومنه فسر قول الرسول : (ما بقيت (دار) إلا بني فيها مسجد) ، أي ما بقيت (قبيلة) .

و (الدور) هي المساكن المسكونة والمحال . وتأتي أحياناً (الدارة) ، بمعنى (الدار) ، وقال بعضهم بأنها أخص من (الدار) ، كما أنها أيضاً أرض مسهلة تنبت فيها بعض النباتات ، ومنها (دارات العرب)

١ - لسان العرب ، ج ١٣ ، ص ١٧٩ ؛ تاج المروس -

VIII ، ص ١٣٣ .

٢ - لسان العرب ، ج ٧ ، ص ٣٨١ .

٣ - المنازل ، ص ٥٥ ، يقتبس أسامة هذه الجملة من الخليل .

٤ - لسان العرب ، ج ٧ ، ص ٣٨١ وفيما بعد ، وحسب كلام

سيبويه فإن « الدار » تعني أحياناً « البلد » ، وفي حالات أخرى

بمعنى « الصنم » وبه سمي عبد الدار بن قصي بن كلاب ،

تاج المروس ، ج ١٣ ، ص ٢١٣ .

ويزيد عددها عن ١١٠ ، وربما سميت هذه المواضع (دارات) لأنها قابلة للنزول والسكن .

ج - (البيت) اسم مفرد جمعه (بيوت) وتعني خيمة أو دار أو قصر . وقيل (الخباء) : بيت صغير يعمل من وبر أو صوف أو شعر ، ويكون على عمودين أو ثلاثة فإذا كان أكبر من الخباء فهو بيت يكون على ستة أعمدة . (والبيت) تعني (الشرف) ، أو (الشريف) أو (القبر) . مثلاً : (بيت القبيلة) شرفها ، أي تلك الأسرة التي تحسب رمز شرف القبيلة (يقال : (بيت) - (شرف) قبيلة تمسيم في بني حنظلة ، بمعنى شرفها في آل حنظلة) . و (بيوتات) جمع الجمع من (بيت) ^(١) . (والبيت) من بيوتات العرب الذي يضم شرف القبيلة . ومن المجاز (بيت) تعني (التزويج) ^(٢) ويقال (بات فلان أي تزوج)

(١) لسان العرب ، ج ١١ ، ص ٣١٧ ؛ تاج العروس ، ج ١ ، ص ٥٢٩ .

(٢) (البيت) : السطر من الشعر سمي (بيتاً) ذلك لأنه يضم الكلمات كما يضم البيت مكانه ، ولأنه كلام جمع منظوماً فصار (كبيت) جمع من شقق ورواق وعمد . ولذا سموا مقطعاته اسباباً واوتاداً على التشبيه لها بأسباب البيت واتاده .

ويجب ان نشير الى ان (فصل البيت) في (كتاب المنازل والديار) من صفحة (٣٥٥ - ٤٠٩) ، منها ٢٦ صفحة اي من (٣٥٥ - ٣٨١) استطراد لا علاقة له بهدف الفصل اذ يتحدث عن قصة بناء الكعبة والروايات في ذلك والآيات القرآنية التي تحتوي لفظة (البيت) على الاختلاف في تفسيرها .. الخ ..

وبنى فلان على امرأته (بيتاً) اذا أعرس بها وأدخلها بيتاً مضروباً ونقل
إليه ما يحتاجونه من آلة وفرش وغيره .

إن معظم الايات والمقطوعات الواردة في فصول (المنازل والديار
والبيوت) - كما ألحنا سابقاً - مطالع قصائد منتشرة على عصور الأدب
العربي حتى عصر أسامة . وهي مطالع ترجع في اصلها واستعمالها الى
الجاهلية . ودراسة متفحصة لهذه المطالع تجعلنا نؤكد - خلافاً للآراء
المتباينة التي سنعرض لها فيما بعد - ان الوقوف على الاطلال عامة ، وذكر
المنازل والديار خاصة انما املته حياة البدوي ، فهو ثمرة البيئة المتنقلة التي
يحياها العرب البادون ، او ثمرة الثقل بين الاعطاف الخصبية في الربيع
(الارتباع) ، والعودة بعد ذلك إلى منازل القبيلة الأصلية في القرى او
اشباه القرى ، والتي لم تكن قصوراً منيفة ، او منازل واسعة غناء ، بل
كان معظمها خياماً بأوتادها ودعاماتها وثافياً . من هذه الظاهرة الاجتماعية
في التجاور والائتلاف ايام الربيع والصيف ، والاتحاد والافتراق ايام الفصول
الاخرى ، كانت هذه الظاهرة في الوقوف على الاطلال ، والبكاء عليها
والحنين اليها واستثارة الذكريات والترويم في مجالات التعبير الشعري ،
وهي ظاهرة اتخذت حيزاً من الشعر الجاهلي وبصورة خاصة من
شعر الغزل .

إذ وقف الشاعر حيث كان يقف سابقاً ، وشهد بقايا منازل حبيبته ومخاضها وآثارها
ورسومها وتعرف اليها من وراء هذه الاثار الضئيلة ، وبكى عندها حيث لم يقو إلا
على البكاء ، وتعزى حيث كانت وميلته الاخيرة هي العزاء . إن تداعي
هذه الافكار بين واضح لأن المعاني يعود بعضها إلى بعض ، فالاستغراق

في تأمل الاطلاع والمنازل يقود الى ذكر ماضيها ومقارنته بالحاضر الذي آلت اليه .

إنّ مدلولات ومعاني المصطلحات (الالفاظ) التي تعني اماكن السكن واطلالها وآثارها ، واستخدام هذه المصطلحات ، ان هذا كله بشكل رئيسي واحد عند الشعراء الجاهليين . فالشاعر يذكر ويكي هذه المنازل ، منازلهم ومنازل احبته ، التي كان قد غادرها في بعض فصول السنة طلباً للكأف والمرعى ، محدثاً عن صعوبة تعرفه عليها ، بصفها ويقف عند بعض معالها ، ثم يتسلى ، ويتعزى ؛ او ييأس ، ويكي . هذا هو الشعر الوجداني ، شعر التفرز والالم والبكاء والحزن . وبفض النظر عن انه تفصلنا عن هؤلاء الشعراء - شعراء الجاهلية - قرون عدة (حوالي ١٥ قرناً) ، وما رافقها من تطورات ثقافية وحضارية ، فاننا عندما نتعرف على بعض الفاظهم الجاهلية الصعبة الفهم علينا نعيش معهم في جو مشاعرهم التي توقظ فينا المشاعر وتنبه الاحساسات ، وتنقلنا الى ذلك الجو النفسي الانساني الذاتي في آن واحد ، الذي عاش فيه اولئك الشعراء وإن كل هذا التأثير إنما يصبح ممكناً بفضل الشحنات العاطفية ، والمشاعر المشتركة بين الناس المقعمة بها هذه الاشعار . إن هذه الاشعار إنما تعبر عن مشاعر انسانية ، وتعكس لا عواطف مجموعة معينة من البشر بل جميع المشاعر المشتركة بين جميع الناس : حب وحنين وألم للفراق ، وتألم ، وحسرة الخ .. ورغم أن الشاعر في شعره إنما يعبر عن حنينه هو ، وحزنه هو ، ومعاناته هو ، تلك التي ترتبط بأرض معينة ، أو بأماكن سكن معروفة ، رغم هذا فإن هذه المشاعر تلقى عندنا صدى وتأثراً ،

عواطفاً وتأيداً ؛ إننا نحس مع الشاعر تأثره ، وتألم معه لحزنه ومعاناته ،
ننتقل هائمين معه ، ونتلمس حنينه الى المنازل المهجورة التي درست وعفت
ولم تبق منها إلا الاثافي والاثار ، (هذا هو وطن الشاعر الجاهلي) .

في المرحلة الاولى بعد ظهور الاسلام ، في عهد الرسول والخلفاء
ضعف الشعر لاسباب عدة : موقف الشعراء المعادي للإسلام ، وموقف
الإسلام من الشعراء انفسهم ، والفتوحات الاسلامية التي شغلت على
المسلمين جميع حياتهم الداخلية النفسية والخارجية ، فكان شعر صدر
الإسلام هو (النهاية الضعيفة الذابلة والمزخرفة للشعر الجاهلي) . (١)
فتقلصت بعض أقسام القصيدة ، وبصورة خاصة هذه المطالع المشتملة على
تذكر المنازل ومواقف القبيلة والبكاء على بقاياها . كل هذا أثر على نهج
القصيدة المقدس الثابت المشهور في الشعر الجاهلي وبخاصة بصورة مثلى في
(المعلقات) مما ادى الى خلخلة بناء القصيدة المعروف في الجاهلية .

ان دراسة تطورية لشعر حسبان بن ثابت الذي قال الشعر في
الجاهلية وفي صدر الإسلام تؤكد هذه الحقيقة . ومن الملاحظ أن أسامة
في (فصل المنازل) مثلاً لم يورد شعراً لاي شاعر عاش في صدر
الإسلام أو مخضرم .

ثم ان الشعر بشكل عام يضوي ويضمّر في عهد الخلفاء الراشدين .
وآثر الإسلام على الشعر بمحتواه وصورته (الأفكار والصياغة) في هذه
الحقبة لم يكن قوياً ، اللهم الا التأثير في مادة وصياغة شعراء الرسول

بالذات ، ذلك لأثر الرسول عليهم لكونهم المتكلمين باسم الدعوة الجديدة^(١) .

وفي عصر بني أمية آلت حركة الفتوح إلى شيء من الركود ، وآل أمر الجيوش المتدفقة إلى شيء من الهدوء ، وبدأت الجماعات المهاجرة في أعقاب الجيش تأخذ مكانها في هذه الأرض ، وتأخذ في حياة الاستقرار في الأماكن المفتوحة الجديدة . ولقد شغل الانتقال من تدفق الهجرة والتنقل والاختلاط إلى الهدوء والاستيطان والتمركز والحياة المستقرة شغل هذا الانتقال دوراً هاماً في ظهور علاقة جديدة لهؤلاء المهاجرين (المستوطنين) مع الأرض وأدى إلى اخلاصهم لها بل وتعلقهم بها ودفاعهم عنها ، وإلى خصوماتهم أحياناً عليها وحولها . وتغيرت طبيعة الحياة خارج حدود الجزيرة العربية . فانتقلت المعسكرات إلى أن تكون مدناً ، وانتقل الفاتحون إلى سكان مدن يتحكمون الأرض ، ويحددونها فيما بينهم ، فقدوا سكان مدن وزراعاً ، يعمرن المنازل ويعيشون عيشة استقرار نسبية في هذه الاوطان الجديدة . التطور العاصف في حياة الجماعة العربية يرافقه تطور أقرب إلى التنظيم ، وتقضيه حياة الخلافة الجديدة . فبعضهم شغل بالاستقرار والتمركز وترك أمر الحرب على عاتق جماعة خاصة محددة ، فوجد السكان المحاربون ، وأخذوا التجمع الاسلامي طريقه إلى حياة السلم والاستقرار .

في هذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والحياتية الجديدة بدأ

(1) Ringgren, H., Studies in Arabian Fatalism, 1955, p.127.

العرب يتجهون لماضيهم لأحيائه ، وبخاصة الى شعرهم في الماضي ، فبدأوا
يذكرونه ويتذكرونه ويروونه لأحيائهم الجديدة حتى وبدؤوا يقلدون ،
في استعمال المطالع الغزلية والبكاء على الاطلال .

واستجابة للقانون الفني للقصاص أخذ الشعراء العرب في هذه الفترة
يبدء قصائدهم بتذكر المنازل والبكاء عليها وعلى أطلالها . ولقد
بلغ فيهم الأمر في تقليدهم هذا للماضي الى درجة أنهم استعملوا
بعض تلك المطالع حرفياً . فجير والأخطل مثلاً قد اختارا
مطالعاً لقصيدتهما ، ذلك المطالع الذي استخدمه الشاعر الجاهلي ابن
الابرص (١) . وهناك شعراء آخرون كانوا قد زادوا في عدد أبيات

١ - نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩٨ ، ديوان جرير ، ص ٥٩٦ .

قال جرير :

لمن الديار ببرقة الروحان اذ لا تقيس زماننا بزمان

وقال الأخطل :

لمن الديار ببرقة الروحان درست وغيرها ظروف زمان

وقال عبيد بن الأبرص :

لمن الديار بحايل فوعال درست وغيرها سنون خوال

التقليد الى عدة آيات ، كما فعل الكميّ ، مقلداً امرأ القيس (١) .
 وانه لمن الخطأ اعتبار هذا التقليد فقط ضرباً من عبادة القديم ، ذلك
 لأن الشاعر في اقتباسه مطلع القصيدة يقتبس أيضاً جزءاً يسيراً من شهرة
 الشاعر الجاهلي . وهو بهذا في ذات الوقت يستجلب انتباه القارئ
 والسامع . هذا يشبه تماماً انتباهنا الزائد وتركيزنا في وقتنا الحالي حتى
 وبرغبة زائده عندما نستمع الى خطيب أو فنّان يقلّد ويتقمص بطلا
 معروفاً أو خطيباً بارعاً أو مغنياً مشهوراً للناس .

من المشهور أنه في عصر الخلافة العباسية حدثت تغيرات أساسية
 في الحياة الثقافية . ففي حانات الحمرة ينفداد لعبت الحمرة في رؤوس

١ - الوساطة ، ص ١٩١ . قال امرؤ القيس :

قف بالديار وقوف حابس وتأنّ إنك غير آيس
 ماذا عليك من الوقوف بهامد الطلّمين دارس
 لعبت بهن العاصفا ت الرائحات من الروامس
 وقال الكميّ :

قف بالديار وقوف زائر وتأنّ إنك غير صاغر
 ماذا عليك من الوقوف ف بهامد الطلّمين دائر
 درجت عليها الغادرا ت الرائحات من الأعاصر

طائفة من المتحررين الشعراء الذين ، في جو من الحرية ، أخذوا يناقشون الحياة الادبية ، وبصورة خاصة موضوع المطالع ، واتخذ رأيهم ، صورة شعرية في قول أحد أفراد هذه المجموعة المتحررة :

لأحسن من يبد تحاربها القطا ومن جبلي طي ووصفكماسلما
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مُقَلَّة في وجه صاحبه ترعى

لقد وقف الشعراء المحدثون ضد الأوصاف التقليدية ، والمطالع الغزلية ، معلنين أنها غير واجبة ، بل واتباعها خطأ . لكن رغم هذا فانهم هم أحيانا قد استخدموا مثل هذه المطالع والاصاف (ربما ليبرهنوا على امكانيتهم الشعرية في هذا المجال) ، لكنهم لم يكونوا في هذا مقلدين تقليداً أعمى ، فقد صبغوا هذه المطالع بخيوط جديدة وبظلال الحضارة الحديثة . ولقد تلقف أبو نواس هذه اللامسات الجديدة ، وترأس الاتجاه المحدث والمذهب الفني الذي أخذ يناضل من أجله ، حتى نسب اليه . وتلخص هذا المذهب في استهجان المقدمات الجاهلية بكل ما تشتمل عليه من وقوف على ديار الاحبة أو تعرض للصحراء أو تشيب بالمرأة . ان أسباب ظهور هذا الاتجاه الشعري الفني الجديد يجب البحث عنها في ظروف الحياة المتغيرة بفضل الحضارة الجديدة عند العرب . ففي المدينة يعيش الشاعر على بعد بعض الخطوات من ممدوحه ، ولذا كان من المضحك ان يعود الشاعر الى الصحراء ، والى منازلها وخيمها لوصفها كمقدمة لمدح ممدوح يعيش حياة الاستقرار في قصور منيعة ، تجتمع فيها كل المظاهر التي

ظهرت بفضل الحضارة وتمازج الثقافات .

ان الاسباب التي جعلت أبا نواس يقف ضد المنهج التقليدي في مطالع القصيدة وما ينطوي عليه ، ويستلم رئاسة الدعوة لتأكيد هذا الاتجاه الفني الجديد ، ان هذه الاسباب يعزوها الكفراوي الى ظروف حياة أبي نواس الشخصية ، والى عداوته للعرب بشكل عام ، والى عرب الشمال بصورة خاصة (اذ رأى أبو نواس في التغني تمجيدياً وذكرنا لعرب الشمال وباديتهم وآثارهم وتقاليدهم فأعلنها ثورة على الامرين معاً) (١) . لكن هذا السبب برأينا ليس السبب الوحيد ، اذ لم يكن من الواقعية ومن الطبيعي التحدث عن الصحاري والخيم ، كأنها بيوت الشاعر ، من قبل انسان لم يعيش فيها ، انما يعيش في قصور الامراء والخلفاء . ان أبا نواس يبدأ احدى قصائده بكاء مازح على نوار (أسم امرأة) وديارها مشيراً الى أنها قد ايقظت فينا (هذه الديار) مشاعر الشجو والحزن ، في الوقت الذي هن خاليات منه . :

ديار نوار ما ديار نوار كسونك شجواهن منه عوار (٢)

أبو نواس لا يعرف البادية ، ولا صلة بينه وبينها فلماذا اذن يبكي لها أو عليها ؟ ! .

١ - الكفراوي ، ص ٧٣ - ٧٤ .

٢ - ديوان أبي نواس ، ص ٧٢ .

مالي بدار خلت من أهلها شغل ولاشجاني لها شخص ولا طلل
ولا رسوم ولا أبكي لمنزلة للأهل عنها وللجيران منتقل (١)

ولم يركب للمدوح ناقة ولا جملا فلا حاجة له لوصفهما ، بل يازم
الواقع فيحدث عما امتطاه حقيقة إلى ممدوحه ، إن هذا ما فعله حين
مدح الفضل البرمكي ، فهو لا يتعلق بالعناصر التقليدية في الوصف ،
لكنه يشير إلى عنصر مثير جديد - إلى الاحذية الرقيقة الناعمة :

إليك أبا العباس من دون من مشى عليها امتطينا الخضري الملسنا

وبغض النظر عن كل المواقف الأدبية المعارضة لابي نواس ضد المطالع
الغزلية ، فاته نفسه يستعمل هذه المطالع في بعض قصائده ، كما تتطلب
ذلك المناسبات والظروف . فإذا ما مدح رجلا يخافه ويهابه ويحترمه
كهارون الرشيد مثلاً ، سار على خطا الشعراء القدماء ، مستعملاً هذه
المطالع الغزلية التي وقف ضدها ، ذلك لمعرفته بأن هارون الرشيد لا
يروقه الانحراف عن العادات العربية ، والمهجوم عليها ، وربما قد يعاقب
على هذا الهجوم والانحراف .

ويعلم أبو نواس بصراحة أنه يذكر الاطلال والمنزل القفر خوفاً
من الخليفة :

أعير شعرك الأطلال والمنزل القفرا فقد طالما أزرى بها نعمتك الحمرا
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتني مركباً وعرا

لقد سلب أبو نواس الأنوار على الطالع ، وجعلها موضوع دراسة ومناقشة ، وشكك في قدامتها ، فاتحاً بهذا الطريق لكل ما أصابها من تطور وتغير ، مؤثراً بالشعراء في هذا من قريب أو بعيد . ومن المحتمل أن ظهور مذهب أبي نواس وتوطده إنما ساعد عليه الجو الأدبي العام في عصره . هذا ما يؤكدته الخبر الذي يورده ابن خلكان^(١) عن أبي العتاهية في مدحه لعمر بن العلاء حيث قال :

إن المطايا تشتكيك لأنها قطعت إليك سباسباً ورمالا
فاذا وردن بنا وردن مخفة وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

ف عندما أعطاه عمرو [٧٠٠٠٠] درهم على هذه القصيدة ، حسد الشعراء الآخرون أبا العتاهية ، وبخاصة مروان بن حفص فجمعهم ابن العلاء وقال : يا معشر الشعراء ! عجباً لكم ، ما أشد حسد بعضكم بعضاً ، إن أحدكم يأتينا ليمدحنا بقصيدة يشب بها بصديقه بخمسين بيتاً فما بلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه ورونق شعره أما أبو العتاهية فقد شبب بأبيات قليلة ثم قال : « إن المطايا ... » [البيتين السابقين] .

إن المراحل اللاحقة تمتلك أيضاً اختلافها وتبزيها . فالشعراء في معظم الحالات - لم يكوا دياراً موهومة ، لا أساس لها ، ولا ارتباط بينها وبين الشاعر ، بل وصفوا وبكوا دياراً قريبة من نفوسهم ومشاعرهم،

١ - ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

تملاً عليهم ذواتهم لما حل بها وأصابها ، وأصاب أهلها من المصائب وهول
الزمان . إنها أشعار مملوءة بالحزن والالم والحسرة والشوق والحنين ،
والمشاعر الحقيقية الصادقة . وهذا ما نراه من صدق عاطفة ، وتعبير
واقعي في شعر آل منقذ ، وبخاصة في شعر أسامة ، ذلك لان الديار
شيئاً في أنفسهم ، لوعتهم ، ونقصت حياتهم .

الخيمة :

في مطالع القصائد ، وبشكل مفصل ، توصف أماكن سكن
العرب أي : البيت البدوي - الخيمة الطبيعة البسيطة القاسية ، بصحرائها
الواسعة المترامية ، المحرومة من الغابات والجبال والبحار ، بموجات رملها
التي تحتضن أسرار أبنائها ، الذين يعيشون فيها ؛ بسائها الصافية العميقة
المفتوحة ؛ الشمس نهاراً ، والقمر ليلاً ؛ هذه الطبيعة ساهمت بشكل
فعال في تشكيل أخلاق البدوي وطباعه وفي طبيعة حياته . في هذه الطبيعة
ماكان بيت البدوي أكثر من خيمة تضرب في عرض الصحراء ، وتتألف
هذه الخيمة - كما وصفت في أشعار الجاهليين^(١) - من عدد من الأعمدة غير

١ - انظر : المنازل ، أشعار المرقش الأكبر ، ص ٣٣٧ ؛ الذبياني ،
ص ٣١٣ ، ٣١٥ ، وديوان الذبياني ، ص ١٠٩ ، ٣٣ [القاهرة] ؛
الربيع ابن أبي الحقيق ، ص ٢٩٣ : عنتره ، ص ٣٥١ ، وديوان
عنتره ، ص ١٤٢ ؛ ابن الدمينه ، ص ٣١٨ ؛ أبوداؤد الايادي ،
ص ٢٨٢ ؛ الجعدي ، ص ٢٩٣ ، وديوان الجعدي ، ص ٦-١٠ ؛
زهير ، ص ٩١ ، وشرح ديوان زهير ، ٢١٩ .

العالية ، المنشورة عليها قطعة من قماش ، أو محبوكة عليها قطعة من القش
والاغصان اليابسة ، المأخوذة من الثام [نبت صفييف تتخذ منه الحصر ،
وكانوا يلقونه على أعواد الخيمة ليستظلوا به] . وبالقرب من هذا المنزل -
الخيمة تقع الساقية التي تحيط بالخيمة من جميع جهاتها ، وبالقرب من
الخيمة أيضاً توضع أثافي القدر للطبخ وتهيئة الطعام ، وتوجد الأواري التي
تربط إليها الخيول والحيوانات . والبدوي بارتحال من مكان إلى آخر يأخذ
معه « بيته » - خيمة ، تاركاً مكانها فقط « الآل : [العود ذا الشقين
الموضوع عليه عود آخر والمنشور عليهما الثام - والأوتاد [الأواري] ،
التي كان يربط إليها حيواناته ، ويشد إليها حبال الخيمة ، والعمود مع
قطعة القش المنشورة عليه . وإلى جانب كل هذا يترك الأثافي بحجارتيها
الثلاثة ، السوداء الضاربة إلى الغبرة ، المتوثبة ، التي تشبه حمامات جائئة :
والرماد الخامد المغبر ، الذي تلبد ، واسود من أثر المطر والزمان ، وأحياناً
يترك وراءه فقط آثار هذا كله (١) .

القصور :

« الدار » و « المنزل » - هذه (خيمة) من أجذ البدوي ،
و (قصر) للحاكم في الشعر الجاهلي ، وعندما يدور الحديث عن الأمراء ،
سكان المدن ، لن يقصد الشعراء بتسميات « منزل » ، « دار » ،
« بيت » (الخيم) المضروبة في الصحراء ، لكن (قصوراً) تحتوي على
جميع مرفحات ومرفهات الحياة . لقد وصلت إلينا أشعار تذكر بقصور

١ - انظر . المنازل ، ما أشرنا إليه سابقاً .

أمراء بني محرق ، حكام الحيرة ، - قصور الخورنق والسدير ، وبارق
والقصر ، وكذلك اشعار عن قصور الغساسنة المنتشرة في دمشق ، وبصرى ،
والجولان . ورغم أن هذه القصور قد عفت ودرست في أشعار الشعراء ،
ذلك لأنه [جرت الرياح على محل ديارهم] ، كما تجري على منارل البدو
في الصحراء ، لكن الشاعر هنا لا يتوقف لتفحص النوى ، والأوتاد ،
وليكي الرسوم والأطلال ، بل نسمع ألفاظاً مغايرة جديدة ، إنها [قصور ،
ونعيم] : [فلبت عيشتهم الرغبة الهنيئة واتمت] (١) .

هنا نعلم على صورة جديدة للمنازل ، وعلى طريقة جديدة في
وصفها ، والبقاء عليها تتناسب مع الجو الاجتماعي والثقافي والحضاري ،
وتعبر عن حياة هذه الطبقة المترفة ، وهذا ما أشار إليه النابغة في مدحه
لآل جفنة الغساسنة :

رقاق النعمال طيبٌ حجراتهم يحَيِّون بالريحان يوم السباسب (٢)
ففي رقة النعل كناية عن الرفاهية والنعيم

١ - المنازل ، أشعار : أسود بن يعفر [أعشى نهشل] ، ص ٢١ ؛
حسان بن ثابت ، ض ٢٨٨ ؛ أبو أحمد ، ص ٣٢٤ ؛ الأغاني ؛
ح . XIII ، ص ١٦ - ١٧ ؛ ديوان حسان ، ص ٤١٥
(البرقوقي) .

٢ - انظر : ديوان النابغة ، القصيدة البائية . (يوم السباسب : عيد
كان لهم) .

ومع نحو حياة الاستقرار قام الخلفاء والأمراء ببناء الحصون ،
والدور النفيسة ، والقصور ، ولذا فإن ألفاظ « منازل » ، « ديار » مع
الزمن أخذت تعني أيضاً ، أكثر وأكثر ، « أماكن السكن » التي
ينفق على بنائها كميات ضخمة جداً من المال (١) . أماكن السكن هذه
(القصور) ظهرت في الشعر العربي كإداة خصبة لوصف جمالها وروعها .
هكذا يتكلم الشعراء عن هذه « الدور » : « دار أطرابه (الشاعر)
وأشجانه » .

دار تقيض بكل خير وفيها كل شهوات المريض (٢)

لقو غدت هذه « المنازل » مادة شيقة لوصف لما فيها من زينة
وزخرفة ، وصور مذهشة من ذهب وفضة . فالسري السرفاء يصف
(قصر البرج) للمتوكل بأنه (منزل كالربيع) (يتمتع العين في طرائف
حسن) (٣) . لروعته تطرق العين عن النظر إليه ، وهو (مجلس
يرتاح إليه الخليلع والمستور) ،

١ - نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٤٠٦ ؛ هناك قصة مفادها أن الخليفة
المتوكل قد امتلاك خمسة عشر داراً ، أنفق على بنائها (١٥٠٠٠٠) ،
و (٢٥٠٠٠٠٥٠٠) درهم .

٢ - المنازل ، ص ٣٢٢ ، ٢٣٩ ، ٣٥٠ ، ٣٤٨ ؛ أشعار ابن موسى ،
ابن المعتز ، وابن القاسي .

٣ - النويري ، ج ١ ، ص ٤٠٧ ، ٣٠٦ .

وإذا غارت الكواكب صبغاً فهو كالكوكب الذي لا يغور

في أيام المعتصم - كما يظهر من شعر زمام الزامر (١) - وعندما يدور الحديث حول منازل الخلفاء ، (القصور) ، التي تعج بالنعيم والعيش المرفه ، وتزخر بمختلف انواع الزخارف ، تبدو أطلال هذه « المنازل » ثابتة ، دائمة ، غير بالية :

يا منزلاً لم تبل أطلاله حاشا لأطلاعك أن تبلى

ولم تعد الأطلال مدعاة للبكاء : (لم أبك أطلاك) ، لكن العيش في تلك المنازل ، حياة النعيم فيه (أولى ما بكاه الفقى) . غدا المسكن الذي يؤمن الراحة والعيش هو المكان المأسوف عليه ، المستدر للدموع ، وكأن التعلق « بالمنزل » قد غدا تعلقاً بالعيش في ذلك المنزل .

ويتذكر الشريف الرضي (٢) منازل النعمان بالحيرة ، فيصفها بأنها (تقابلت شمهماد عريضة الأعطان) ، تدل على فضل بناتها ، إذ (بين يالبنيان فضل الباني) .

لقد وصف شعراء هذه المرحلة « المنازل الخالية » أيضاً التي عفتها ودرستها حوادث القدر والزمان ، ونكبات العصر ، فجعلتها خالية بعد أنس . وتعتبر قصائد البحري - في هذا المجال - أكثر القصائد حيوية ،

١ - المنازل ، ص ١٢ .

٢ - النوري ، ج ١ ، ص ٤١٢ .

وتأثيراً ، وروعة حس وتصوير « إذ يقول في قصر (الكرمان) الخالي ،
الذي بناه أنو شروان :

لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وإذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وأنو شروا ن يزجي الصفوف تحت الدرفس (١)

يصف البحري بروعة تلك التماثيل التي كانت على جدران القصر ،
رمزاً لاتتصار كسرى على الروم ، مستعملاً هذه القافية الخافضة (السين
المكسورة) ، وكأنها توحى للقارئ بالحزن والأسى . ولا تقل قصيدته
في رثاء المتوكل (٢) وقصر الجعفري روعة في البراعة والتصوير عن سابقتها.
أما ابن الداني فيخصص قصيدته لا لوصف قصر منفصل ، مستقل ، بل
لرثاء مدينة بكاملها (اشيلية) عندما أخذها « تاشفين » المثلث من « ابن
عباد » ، وقضى على ملكه . إن هذه القصيدة من أجود ما قيل في رثاء
اشيلية ويوتها ، فالسوء تبكي بدمع رائح غاد « على البهاليل من أبناء
عباد » . كانت مدينة حصينة ، فيها الأسود الأشاوس والأبطال ،
« وكعبة » يقصدها المحتاجون ، ففدت لا عاكف فيها ولا بادي . فما
على الضيف إلا أن يشد الرحل ، ويجمع فضيلة الزاد ، ويرحل ،

١ - النويري ، ج ١ ، ص ٤١٢ .

٢ - النويري ، ج ١ ، ص ٤١٢ - ٤١٣ .

فقد « أفقر بيت المكرمات » ، وخلع بنو عباد ، وزال عزهم ، ولا بأس
في هذا فقد خلع بنو العباس من قبلهم ، وخلت ، قبل ، حمى أرض
بغداد :

تبكي السماء بدمعٍ رائحٍ غادي	على البهاليل من أبناء عبادٍ
عريسةٌ دخلتها الحادثات على	أسودٍ منهم فيها وآسادٍ
و كعبة كانت الآمالُ تغمرُها	فاليوم لا عاكفٌ فيها ولا بادي
ياضيف أفقر بيت المكرمات فيخذُ	في ضمٍ رجلك واجمع فضلة الزادِ
ويامؤملُ واديهم ليسكنه	خف القطين وجف الزرع بالوادي
ضللت سبل الندى بابن السبيل فسر	بغير قصدٍ فما يهديك من هادي
إن يخلعوا فبنو العباس قد خلعوا	وقد خلّت قبل حمصٍ أرضُ بغدادِ
سارت سفائهم والنوح يتبعها	كأنها إبلٌ يحودبها الحادي (١)

لا بد من الإشارة إلى أننا في أشعار المعري ، وأشعار شعراء
آخرين غير معروفين نجد لمسات طبقية اجتماعية ، تصف فقر البيوت ،
وققر سكانها . فالمعري يصف بيته الذي كان حبيسه ، ذلك البيت الذي

١ - المنازل ، ص ٣٨٤ : [العريسة : مأوى الأسد ؛ حمص : مدينة
بالاندلس] .

يوكف شتاء ولا يطاق من الحر صيفاً ، وهو فيه شيخ فانٍ أعمى
سعيه في تحمل هذا قناعته :

لُزمتُ بيتاً بناه الجُدُّ من كَأَنِّه بيت شعرٍ ليس يتزنُ
إذا شتوتُ ممن توكلفه عني وبالحُرورِ إذا ما صِفْتُ يُقترنُ
عدمُ فحسبي وعينٌ غيرُ مبصرةٍ وشقوةٌ وحليف الشقوة اليفنُ
لولا القنائة جاءني بمملكةٍ لهتكت دوني الأستار والجننُ (١)

البيت الواهي الذي يوكف مطراً ، قد انخى ، وغدا كقارعة
الطريق . إنه كالغمام ، حتى إنه لأغزر منه دمةً ووكوفاً حين يذرف ،
ذلك لوهنه وضعفه . إن ستائره ستائر العنكبوت ، فإذا هطل المطر
أصبح في داخله مظلم ضيق حتى يشبه السجن . والعنكبوت - رغم صنفها -
قد بنت لنفسها بيتاً ، أما الشاعر فليس عنده وطن مثلها ؛ لا خنفساء ممكن ،
وليس للشاعر مثلها إلف ولا سكن . إن هؤلاء الشعراء - كما يصورون
أنفسهم - فقراء ، ليس لهم نوق ، ولا ضأن وماعز وبر وتمر ، حتى
ولا نبات يرعونه كالابل [مبالغة] ، ليس لهم إلا البيت الخالي الفقير
المدم ، فعلى الزوجة - زوجة الشاعر - الاستئثار بهذا البيت - إن
رضيت - وأستر منه القبر .

١ - المنازل ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ . (اليفن : الشيخ الفاني) .

وبيت تساوى والغمامُ وإنه
 إذا السحبُ عنه أقلت فلو كفه
 لاغزرُ منه دمةً حين تذرفُ
 سحابٌ هتونٌ مأؤه ليس ينزفُ
 وترتبة الحراء بردٌ مفوفُ
 فتوبي من تو كف أسودٍ سقفه
 فدعه ونم تحت السحاب فانه
 وقال آخر :

بتي شعور العنكبوت ستوره
 وإذا أصابته السماء بطلها
 ومطارحُ الغبراء فيه مطارحي
 فساؤه تهمي بوكفٍ سافح
 وكأني من ضيقه وظلامه
 ميتٌ دفينٌ في ثرى وصفائح
 وقال آخر :

العنكبوت بنتٌ يتأعلى وهن
 والخنفساء لها من جنسها سكن
 تأوي إليه ومالي مثلهما وطنُ
 وليس لي مثلهما إلفٌ ولا سكنُ (١)

الوقوف على الاطلاع :

إن المطامع الغزلية للقصائد ، الحاملة الأساسية لبذور (مفهوم

١ - المنازل ، الشعراء المجهولون (قال آخر) ، ص ٣٨٣ ، ٣٨٥ ،

٣٩١ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

الوطن) في الشعر العربي ، عادة ما تبدأ بدعوةٍ للوقوف على آثار الديار
المهجورة ، التي يتعرف عليها الشاعر . ويمتدح امرؤ القيس أول من دعا
إلى هذا الوقوف . إنه في معلقته الشهيرة ، باستعماله الفعل (قف) بصيغة
الامر - [قفنا] ، يدعو ، باختصار وتكثيف ، صاحبيه^(١) للوقوف
والبكاء :

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(٢)

وفي مكان آخر^(٣) يدعو صاحبيه إلى التحول عن طريقهما ، والتوجه
إلى « الطلل المحيل » لعلهما يبكيان الدار كما بكأها « ابن خدام » . إن

١ - الزوزني في « شرح المعلقات » ص [٧٩] وفي معرض تعليقه
لأسباب توجيه الدعوة إلى الوقوف بصيغة المثى يكتب ما يلي :
« قيل » خاطب صاحبيه ، وقيل : بل خاطب واحداً وأخرج
الكلام مخرج الخطاب مع اثنين ، لأن العرب من عادتهم إجراء
خطاب الاثنين على الواحد والجمع . خاطب الواحد خطاب الاثنين ،
وإنما فعلت العرب ذلك لأن الرجل يكون أدنى أعوانه اثنين :
راعي إبله وراعي غنمه ... الخ .. » .

٢ - المنازل ، ص ٣١ ؛ ديوان امرؤ القيس ، ٨ ، ٩ ؛ شرح المعلقات ،
ص ٧٩ - ٨١ .

٣ - المنازل ، ص ٨٦ ؛ ديوان امرئ القيس ، ص ١١٤ .

هذه الدعوة للتوقف والبكاء ، تستعمل أيضاً بهذه الصورة عند الشعراء اللاحقين لمصر امرئ القيس^(١) . ويدعو الشاعر ، أحياناً ، خليليه إلى اختيار أحد موقفين : إما الوقوف عند الديار الخالية^(٢) ، أو البكاء على بقايا الديار :

خليلي هيجا عبرة أوقفا بنا على منزلٍ بين النقيعة والحبلى^(٣)
لكن نعتز عند بعض الشعراء على موقف معاكس ، واتجاه آخر ، إنه دعوة الامتناع عن الوقوف على الاطلال ، وآثار الديار الخالية ، ذلك لان الوقوف عندها لا يجدي شيئاً ، إذ لا يشفي المحب من الشوق والالم ، فاللقاء مع المنازل لا يشفي حاجة المتذكر^(٤) .
وصف الحالة الراهنة للمنازل :

يقف الشعراء عند الاطلال وبقايا الديار ، فيصفون الحالة التي عليها ديار الاحبة ، أو موطنهم : كيف غدت هذه الديار بعد هجر سكانها لها ؟! ووصف الشعراء هذا يشتمل على عناصر ضرورية ترد غالباً عند معظم الشعراء :

-
- ١ - انظر : مثلاً ، المنازل ، ص ٨٥ ؛ شعر زهير ؛ وشرح ديوان زهير ، ص ١٤٥ (دار الكتب) .
 - ٢ - المنازل ، ص ٧٣ ؛ شعر أبي كبير .
 - ٣ - المنازل ، ص ٣٧ ؛ ديوان جرير ، ص ٤٦٠ .
 - ٤ - المنازل ، ص ٦٨ ؛ شعر الجعدي .

آ - تحديد أماكن السكن :

لقد كان الشعراء عادة يشيرون إلى موقع هذه الأماكن . المنزل الواقع « بين الدخول ، فحومل ، فتوضح ، فالقراءة » (وكلها أسماء أماكن)^(١) . وأحياناً أخرى يكتبون بذكر موقعها شهلاً أو جنوباً .. الخ .. بالنسبة إلى موضع واحد . مثلاً : « ديار جنوب أسنمة »^(٢) ؛ « بطن الجو » ، و « في الركن ، والبقيع ، وثمده »^(٣) . وفي حالات أخرى يشير الشعراء إلى ملكية وتبعية هذه المنازل : « منازل آل اسهاء »^(٤) . وبأسلوب سؤال العارف يسألون « عن المنازل قد عفون سنينا !؟ » . إنه سؤال الشاعر البكاء عن المنازل المحددة ، منازل قومه المشتتين ، ففقت منازلهم ، وبقيت دمن بحمامها الباكي المبكي . ولم يوضح البكاء بصورة مباشرة أنها منازل قومه ، ذلك لشدة الدهشة والاستغراب ، ولن يفهم هذا إلا من البيت الرابع حيث يعزي نفسه قائلاً : « ما كنت أول من تفرق شمله »^(٥) .

١ - المنازل ، ص ٣١ ؛ ديوان امرئ القيس ، ص ٨ ، ٩ ؛ وانظر :

المنازل ، ص ٤٠ ؛ وديوان النابغة ، ص ٨٥ .

٢ - المنازل ، ص ٩٨ ؛ شعر ابن مقروم ؛ معجم البلدان ، مادة « أسنمة » .

٣ - المنازل ، ص ٣٩ ، ٩١ ؛ ديوان زهير ، ص ٢١٩ ، ٢١٩ .

٤ - المنازل ، ص ٣٩ ؛ شعر زهير .

٥ - المنازل ، ص ٢٠ ، شعر البكاء .

ب - جهل الديار ، وعدم معرفتها :

إن المنازل والديار المهجورة ، القفر ، والتي تعرضت لمصائب الدهر ، وعوامل الطبيعة ، غالباً ما تغيرت لحد عدم التمكن من معرفتها وتمييزها ، والشاعر برؤيته هذا المنظر المؤلم الحزين لآثار وبقايا الديار ، لم يتمكن من التعرف عليها : « استجهلتك »^(١) . أو يسأل الشاعر من يعرف الديار : « لمن المنازل قد عفون سنيننا ؟ »^(٢) . لقد تغيرت المنازل ذلك التغير الذي لشده كان الشاعر مضطراً أن يستعمل أسلوب الاستفهام ، وكأن ما يراه الآن مدهش عجيب ، لا يعرف تسميته . وفي حالات أخرى يسأل الشاعر سؤال العارف ، ويتوجه بسؤاله للمخاطب قائلاً :

« هل عرفت ديار أم عمرو ؟ »^(٣) ، ليدل على التغيرات الجذرية التي ألمت بها . ولكن أية فائدة يمكن أن تقدمها هذه الأسئلة ، أو الوقوف الطويل على آثار الديار المعفاة ، التي يصعب التعرف عليها ؟! إذ يستطيع الشاعر وقوفه على [رسوم ديار قفر]^(٤) مسألها ، وهل ينفع السؤال ؟!

لكن بعض الشعراء يتعرف على هذه الديار ، إنما بعد جهد وكد ،

-
- ١ - المنازل ، ص ٣١ ؛ ديوان النابغة ، ص ٨٠ .
 - ٢ - المنازل ، ص ٢٠ ؛ شعر البكاء .
 - ٣ - المنازل ، ص ٣٨ ، شعر عروة بن الورد .
 - ٤ - المنازل ، ص ٨٦ ؛ ديوان النابغة ٤١ ، ٤٢ .

ذلك لأنه لم يبق منها إلا قطع الجبال والأوتاد^(١) . وظاهر الديار لا ينبغي عنها ، وعن تبعيتها ، إنغا من له تجربته العاطفية معها يعلم علم اليقين أنها هي . إنها [دار لسعدى] الحبيبة الجميلة ، التي رحلت ولم تبق إلا ذكرياتها . فالحب عند الشاعر هو واسطته لمعرفة الديار وتبعيتها^(٢) .

ح - المنازل مخفاة

إن أماكن السكن المهجورة التي يبكيها الشعراء تكون في أغلب حالاتها ، مخفاة ، دارسة ، خالية ، خاوية ، قد أزيلت من على سطح الأرض ، ولم يبق إلا أثرها ودلالات عليها^(٣) . « هل تؤنسان يطن الجو من ظن ؟! »^(٤) « فالديار عفت » من أهلها ، عفا منها « السهميل والفليظ »^(٥) . والرياح هي التي عفت معالم هذه الديار ، لقد غطتها بالرمال حتى تنكر منها « كل معرفة » « إلا الرماد » الباقي من آثارها « وإلا دممي الجاري » الذي خرف شوقاً وجباً ولوعة . أقفرت هذه الديار ،

١ - المنازل ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ ؛ شعر حارث بن بدر الغداني .

٢ - المنازل ، ص ٩٨ ، شعر ربيعة بن مقروم .

٣ - المنازل ، ص ٣٣٧ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٢٩٣ ، ٣٥١ ، ٣١٨ ، وغيرها .

٤ - المنازل ، ص ٣٩ ، ديوان زهير ، ص ١١٦ .

٥ - المنازل ، ص ٩٩ شعر الحارث بن خالد ؛ الأغاني ، ج ١ ، III ، ص ٣١٣ (دار الكتب) .

فليس فيها « نار تضيء » (صورة جاهلية) ، ولا « أصوات سهار »^(١) .

وبفض النظر عن أن « المنازل » قد تغيرت لدرجة الجهل بها ، فإن هذا التغير لم يمسح ذكرها في نفس الشاعر ، فيقف « بالديار التي لم يعبها القدم »^(٢) في نفسه ، رغم أنها ذاتها قد عفتها الرياح والامطار ، وبقيت آثارها في نفسه .

د - الديار بلا سكان ، قفراء خالية :

يتكلم الشعراء عن ديار خاوية ، خالية من السكان : « المنازل أقفرت » ليس فيها « نار تضيء » ولا « أصوات سهار » ، ويسأل الشاعر سؤالاً مؤلماً في بداية شعره يعرف مسبقاً جوابه « هل بالديار من أحد؟ » ، ويعمل ذاته بعد أن يتذكر ماضيه في هذه الديار ، ويقارنه بحاضره حيث أصبح اليوم « لا أهل ذوو لطف » عنده ، يلهو معهم ، « ولا صفراء بالدار »^(٣) . إن هذه الصيغ الاستفهامية التي يسكب فيها الشاعر عواطفه وحزنه توحى بشدة اللوعة والألم « أي المنازل بعد الحول تعترف ؟! » ، ويظهر عدم جدوى البكاء على أطلال تلك المنازل « أم مابكاؤك ؟ » ، التي بعد أن كانت آهلة ، غدت مرتعاً لبقر الوحش

١ - المنازل ، ص ٩٠ ، شعر بييس ؛ الاغاني ، - XIX ، ص ١٠٨

(بولاق) .

٢ - المنازل ، ص ٨٥ ، شعر زهير .

٣ - المنازل ، ص ٩٠ ، شعر بييس .

والنعام ، وغدا أصحاحها في شقاء بعد أن كانوا في نعيم ، مما يستوجب
البكاء على مصيرهم (١) « الدار قفر » (٢) والرسوم لم يبق منها إلا
آثارها .

هـ - مكان عيش الحيوانات :

لقد غدت الديار المهجورة مكان سكن الحيوانات والطيور : المنازل
غيرت الناس الكرماء الرائعين يقر الوحش ، وقطعان الطيور (٣) . لقد
عفت المنازل ، وبقيت دمن بحمامها الباكي البكي ، تلك الدمن التي أبقظت
عند الناس شعور الحزن والألم (٤) .

و - المنازل صماء بكاء :

إنها - رغم ذلك - توقظ في الشاعر الحب والشوق ، والحنين
والرغبة في تلقي الحواب على تحية الشاعر ، وعلى أسئلته الكثيرة . لكن
هذه المنازل صمت ، وفيها لو تكلمت - تكلمت الكثير ، ذلك لأنها تعلم
العلم الكثير عن الماضي ، وكذلك عن أسرار الشاعر السائل . ويسأل
الشاعر أحياناً ، « هل بالديار من صمم ؟ ! » « هل بالديار صمم » ، ودعوت

١ - المنازل ، ص ٩٠ ، شعر بشر .

٢ - المنازل ، ص ٨٨ ، شعر المرقش الأكبر .

٣ - المنازل ، ص ٤٠ ؛ ديوان النابغة ، ص ٨٥ ؛ وانظر : المنازل ،

ص ٦ - ٧ ، شعر بشر .

٤ - المنازل ، ص ٣٠ شعر البكاء .

أُخِرْسَ لَا يَحْيِي دَعَائِي ، « لو كان رسم الدار ناطقاً تكلم » (١) . أو
أنه يغني : « ولا بالدار صمم » (٢) ، عندما يكلمها الانسان المعنى صاحب
الحاجة ، الذي يبحث عن أحبه . إن (الديار) التي يقف بها الشاعر
تهيج أشواقه ، ويتوخى أن تحييه لكنها « استعجمت » عن الجواب .

ز - تشبيه آثار الديار :

لن يبقى بعد خروج السكان من الديار وهجرانها إلا آثارها التي
هي أشبه بآثار خط قلم أسود :

أرسمُ دارٍ أمْ سطورُ كتابٍ درستُ بشاششتهم مع الأحقاب
- لمن الدارُ كأنضاء الكتاب هاجت الشوق وعيت بالحواب (٣)

في أشعار شعراء العصر الأموي : [ابن الرقاع ، حفص الأموي ،
الأحوص وغيرهم] (٤) يعثر على عناصر وصف للديار ، وبقاياها ، وتمثيلهم
لها بتشبيهات متنوعة : إن الدار الدارسة ، الصامته أشبه بكتاب خلق
عتيق ، قد أهاجت الشوق ، وزادته في نفس الحب [الشوق إلى مكانها

١ - المنازل ، ص ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٣١٣ ، ٣٥١ ، أشعار عبيد

ابن الطبيب ، الجمدي ، المرقش ، النابغة ، عنرة وغيرهم .

٢ - المنازل ، ص ٨٥ ، شعر زهير .

٣ - المنازل ، ص ٣٢٧ ، ٨٨ .

٤ - المنازل ، ص ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٠٠ ، ٣٢٠ .

السابقين الذين عاشوا في رخاء ونعيم [: « أهل أنعام » ؛ آثار هذه
الديار - مرابط الخليل فقط - عملت فيها الرياح فعلها ؛ وأسفتها بالتراب ،
فقطتها بأكسية رملية . إن هذه الآثار تهيج الذكرى ، والأسى ، والالم
في النفس . وابن قيس الرقيات^(١) بعد سلسلة من الاستفهامات التمجيدية
« هل للديار بأهلها علم ؟! » أم « هل بين فينطق الرسم ؟! » وبعد
سواله صاحبه :

يا صاح هل أبكك موقفنا أم هل علينا في البكا إثم ؟!

بعد هذه السلسلة من الاستفهامات يسأل صاحبه مستغرباً عن سبب
بكائه المنزل البالي الذي غدا أشبه بالوشم في ظاهر اليد :

أم ما بكؤك منزلاً خلقاً قفراً يلوح كأنه الوشم ؟

وتقارن آثار الديار عند شاعر آخر بآثار القلم ، حيث أوضحــت
الديار بعد رحيل أهلها وكأنها « آثار أقلام »^(٢) ، وهذا دلالة واضحة
على البيوت البدوية ، التي برحيل أهلها لن تدوم آثارها ، ذلك لأنها
خيم وأعواد .

وإذا كان الشعراء الاقدمون يصفون الديار (بالمي) ؛ بأنها صماء
بكماء ، لا تقوى على إعطائهم الجواب الشافي على أسئلتهم ، فإن ذا الرمة ،

١ - المنازل ، ص ٦٨ ؛ ديوان ابن قيس الرقيات ، ص ٥٥ .

٢ - المنازل ، ص ٦٣ ، شعر ابن المضرس .

وهو يطور طريقة التعامل مع المنازل والديار ، يصفها بالبخل في الكلام :

ألا حيّ المنازل بالسلام على بُخل المنازل بالكلام (١)

والديار عنده [عند ذي الرمة] مقفرة خالية ، دراسة عافية .
إنها « خيمات » بليت ، فغدت مكان عيش بقر الوحش والغربان « وحمايم
ورق في الديار وقوع » . أهاجت للعين دمعة ، لقد وقف فسلم ، فكادت
« دمنه الدار تنطق » لمعرفها صوته (٢) .

ويحتوي شعر شعراء العباسي ، فيما يتعلق بوصف حالة الديار
والمنازل ، على تلك العناصر التي قد أشرنا إليها في شعر الشعراء السابقين
لهم : فالديار قد حرمت من سكانها الطيبين الصالحين ، وأصبحت « مراداً
للنجاج المتخاذلة » ، والربوع لا تقوى على الكلام « فلما سألت الربع ...
لم ينطق » (٣) . لقد لبست الديار ثوب الفناء ، لا تعرفها من منظرها
الخارجي ، لكن بواسطة الشمور والحب ، لأنها ديار قد تغيرت للدرجة
عدم المعرفة (٤) :

١ - المنازل ، ص ٤١ ؛ ديوان ذي الرمة ، ص ٥٩٤ .

٢ - المنازل ، ص ١٤٨ ؛ ديوان ذي الرمة ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

٣ - المنازل . ص ٣٢ ؛ شعر أبي الحية النميري .

٤ - المنازل ، ص ٦٥ ، ١٥٠ ؛ ديوان أبي نواس ، ص ٤٩٦ ؛ ديوان

المتنبي ، ص ٤٠ .

سل ديار الحي من غيرها وعفاها ومحا منظرها؟ (١)

والمنازل كالتاس تعطي الوعود ، وتفي بهذه الوعود ، فالمنازل قد وعدت الحوادث بأن تدرس ، وتستوحش ، فلم تقدر على مطالها ، وإخلاف وعدها (٢) .

لقد لعبت به [الدار] أيدي البلى لعب الشكوك بنفس إنسان» (٣)

والبون شامع بين ماضي الديار الزاهر ، وحاضرها الكئيب ؛ لقد كانت نجوماً لكنها الآن دمن ورسوم ، كانت مصدراً للسرور ، وغدت مبعثاً للحزن والاسى ؛ غدت بعد الفراق (ناحلة) وكأنها إنسان يضر ، ويضعف ؛ وغدا الاشراف فيما ظلاماً ، والضحي أصيلاً ، « لقد نادى بهن الموت أهلاً فأسمعا » ، ويتمنى الشاعر أن لا يراها على حالتها الحاضرة بعد أن كان عيشه فيها نعيماً :

يا ديار الأحباب لا أبصرتك العين من بعد أن حلت رسوماً (٤)

١ - المنازل ، ص ٧٢ شعر أبي العتاهية .

٢ - المنازل ، ص ٩ ، ٣٢ ، ٣٣ ؛ ديوان أبي تمام ، ج ١ ، ص ، ٣٧٦ ، ٤٠٦ .

٣ - المنازل ، ص ٢٤ ، ٢٦ ، ديوان منيار ، ج ١ ، ص ٣٦ و ٣٧ .

٤ - المنازل ، ص ٧٢ ، شعر المرتضى .

« لدار .. لطول بلاها والتقدم صحيفة بيضاء » (٥)

والديار بمحض اختبارها ترفض الكلام ، ذلك لان السكوت شعارها ، ترفضه عن مقدرة ، حيث بإمكانها النطق ، ولو نطقت لشفّت مرض السائل وحزنه :

« أَبَتُ لَا تَكَلِّمُكَ الدِّيارُ... »

فلو نطقت شفت في شعاعاً ولكن السكات لها شعار » (٢)

ح - عوامل تهديم المنازل [الرياح والزمن والأمطار] :

كل هذه التغيرات التي حدثت على الديار وآثارها إنما كانت بتأثير الرياح (الجنوبية ، والشمالية ، وبخاصة الشرقية التي هي من أكثر رياح الصحراء شيوعاً) . إن هذه الرياح ، بتتابعها الواحدة تلو الأخرى ، تمحو ذلك الذي تركه الناس وراءهم ، وتدمر الديار ، وتعفوها ، غير تاركة حتى الآثار التي تدل عليها : إذ إن (رياح الجنوب تزيل ما أثبتته رياح الشمال) . و « المنازل أصبحت للرياح منازلًا » (٣) .

١ - المنازل ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، شعر ابن المولى .

٢ - المنازل ، ص ٧٤ ، شعر الغطفاني .

٣ - المنازل ، ص ٣١ ، ٤٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٨ ، ٤٨ ، شعر امرئ

القيس ، النابغة ، ابن الرقاع ، البحتري .

إن حوادث الدهر ، والأمطار الغزيرة ، والزمان قد فضت على
الديار ، ودمرتها ، وعفت حتى آثار ورسوم أماكن نزول القبيلة. والشعراء
يصورون الحياة البدوية بتنقلها وترحالها الأبديين ، مشيرين إلى هذه الظاهرة
الاجتماعية - التجاور المنتظم ، والتعايش في أماكن عيش محددة معروفة
(أماكن النزول) صيفاً وربيعاً ، على امتداد سنوات عدة ، (عام
بعد عام) :

عفا عام حَلَّتْ صيفه وربيعه وعامٌ وعامٌ يتبع العام قابلُ
«أي المنازل بعد الحول تعترف؟! (١)» «أخنى عليها الذي أخنى على ألبد (٢)»

لكن قوى الطبيعة لم تعد - فيما بعد - العوامل الوحيدة التي تدمر
« المنازل » ؛ في هذا يشارك الناس أيضاً ، بقيامهم باعتداءات عدوانية ،
وهجمات منظمة . فعدت حجارة المنزل تحارب وتقاوم ضربات المعاول
المهدمة ، وكان « بينهم حرب وائل » ، وكان المعتدي قد أراد عن
فيه وقصد - محو آثار القوم ، فلن يتركها :

« لمستخبر أو واقف أو مسائل » ، ولن يسمح لها بأن تكون
رسول حضارة ذلك القوم :

١ - المنازل ، ص ٣٠ ، ٦ ، ٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٣٢٧ ، ٣١٣ ،
٣١٥ ، ٣٣٤ ، شعر زهير ، النابغة ، بشر ، ابن الرقاع ، نصيب ،
قيس بن ذريح .

٢ - الاسطورة عن النسر العمر الأبدي [لبد] .

منازل قومٍ حدثتنا حديثهم ولم زَ أحلى من حديث المنازل (١)

ط وصف الماضي :

إن الشعراء بوقوفهم على المنازل والديار ، ووصفهم لحالتها الراهنة ،
ولأثر عوامل الطبيعة عليها ، يتذكرون الماضي ، ماضيها ، يصفونها ،
ويقارنونه مع الحاضر . فماضي الديار طويل وغني وعامر :

« كم للمنازل من عام ومن زمن ؟! » (٢)

والديار المهجورة قد أيقظت في الشاعر تذكراً للأوقات الماضية ،
تذكر الحياة الماضية السعيدة الرائعة . ويقارن الشعراء تلك الحياة بالحالية
القاسية الصعبة الحزينة :

إذ « لا أهل ذوو لطفٍ » يستطيعون مواساتهم . (٣) والديار
المقفرات « بلين وهجن للقلب اذكراً » (٤) . « وهـل الايام الخوالي
رواجع » .

أراجعةٌ يا ليلُ أيامنا الألى بذى الزمّت أم لاملهن رُجوعٌ؟! (٥)

١ - المنازل ، ص ١٣ .

٢ - المنازل ، ص ٣٩ : ديوان زهير . ص ١١٦ .

٣ - المنازل ، ص ٩٠ ، شعر بهس .

٤ - المنازل ، ص ٩٨ ، شعر ابن مفرغ .

٥ - المنازل ، ص ٨٢ ؛ ديوان ذي الرمة ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

لقد كانت الديار فيما مضى (نجوماً) ، لكنها الآن دمن ورسوم ،
كانت مبعثاً لاسرور والحب ، وغدت مصدراً للحزن والألم^(١) .

ي - شعور الشاعر وسلوكه :

إن بقايا « الديار » توقيظ في قلب الشاعر الشوق والحنين ، اللذين
يشبهان القشعريرة الحادة الخطيرة عند المريض . والشاعر ، بوقوفه بين
هذه الاطلال ، وبقايا الديار ، من الحزن والألم ، يشعر وكأنه سكران
قد أعطي الخمرة منذ الصباح الباكر^(٢) . لم يبق للشاعر بعد رحيل الأهل
والأقرباء سوى أن « يتحسر ويتذكر » . وفي تذكره هذا يغدو نشواناً ،
وكانه أعطي خمرة فلسطين . لقد منعت عليه طارقات الهموم النوم
« بأسى وإذكار خطب قديم »^(٣) . ويبحث الشاعر عن ملجأ عند
« المنازل » ، ملجأ من التحسر على المحبوبة ، لكنه عبثاً يبحث ، إذ إن
النجاح لن يحالفه في مسعاه . ذلك لأن « المنازل » توقيظ في قلبه التذكر
والشوق ، فكان كمن يريد « مداواة حر النار بالنار »^(٤) . و « الديار »
« عفت إلا أثافيها » « فاندفعت فيها مغانيها » ، وجرت الرياح العاصفات
أذيالها عليها فغدت وكأنها ثوب بال خلق ، قد وقف الشاعر يسألها ألم

١ - المنازل ، ص ٧٣ ، ٧٤ ؛ ديوان المرتضى ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .

٢ - المنازل ، ص ٨٦ ؛ ديوان امرئ القيس ، ص ١١٤ .

٣ - المنازل ، ص ٦٧ ، ٦٨ ، شعر العدي بن الرقاع .

٤ - المنازل ، ص ٨٩ ، شعر مهيار .

كأنه « ساورته حية رقطاء » (١) ولشدة تغير وتبدل الديار يبكىها
« وقفت عليها ، ففاض الدمع ... » (٢) . وهو يأس بطلب منه أصدقاؤه
التجالد والصبر ، لكنه يرى مواساته في بكائه ، ثم يسأل السؤال الاستنكاري
اليأس :

وإن شفاءني عبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ

فهلْ عندَ رسمِ دارسٍ منْ مُعَوَّلٍ؟ (٣)

ولا يجوز لاحد أن يلومه في بكائه أهله ومنازلهم :

إن قومي تتابعوا بعدما كا نواهم القوم ، فابك غير ملوم (٤)

والشعراء يدعون إلى البكاء على أماكن نزول القدماء ، الذين
كانوا أفضل ممن حل محلهم ، إذ كان الاقدمون خير من سكن الديار :

فابكي إذا بكت المنازل أهلها ... معذورة (٥)

وأحياناً لا يدري الشاعر أيها أجمل بحاله : البكاء أم الصبر ، إذ

١ - المنازل ، ص ٣١٤ ؛ ديوان الخطيئة ، ص ١١١ .

٢ - المنازل ، ص ٣٨ ، شعر عروة بن الورد .

٣ - المنازل ؛ ص ٣١ ؛ ديوان امرئ القيس ص ٨ ، ٩ .

٤ - المنازل ، ص ٧٠ ، شعر ابن الرقاع .

٥ - المنازل ، ص ١٧ ، شعر ابن الرقاع .

بالبكاء شفاء من غصة الشوق ، وبالصبر الرجولة والجلادة^(١) . وأحياناً
أخرى يؤمن بعدم جدوى البكاء ، ويدعو للامتناع عنه :
« أم ما بكاؤك ؟! »^(٢) .

ويتمنى الشعراء عادة لاماكن السكن الابدية والخير ، ويدعون لها
- على الدوام - بالسقيا ، ويتنهون بالحنانة لمواساة أنفسهم بأنفسهم ؛ بعضهم
يجد المواساة والسلوان فقط في السكاء واليأس . واليأس ، من جهة ،
عامل من عوامل قطع الحنين إلى الديار^(٣) ، ومن جهة أخرى - دواء
للعين إما : كي تذرف الدموع^(٤) ، وإما بهجر الديار وتركها ، والتسليم
بالمصائب ، والاستسلام للغزاء :

فلما بدا لي اليأس عذيتُ ناقتي عن الدار «^(٥)

حتى إن الشاعر ، أحياناً ، يشير إلى إبطائه في بكاء الديار
وزيارتها ، ويلجأ في الاطالة معنى الملل :

طال في رسم الديار بكائي وطال تردادي بها وغنائي^(٦)

١ - المنازل ، ص ٣٣٩ ، شعر ذي الرمة .

٢ - المنازل ، ص ٦٣ ، ٦ - ٧ ، شعر ابن المفرس ، وبشر .

٣ - المنازل ، ص ٨٣ ، شعر ابن الطيب .

٤ - المنازل ، ص ٨٢ ، شعر ذي الرمة .

٥ - المنازل ، ص ٦٤ ، شعر أبي نواس .

٦ - المنازل ، ص ٦٤ ، شعر أبي نواس .

المواساة والعزاء يكمنان ، أحياناً ، في العبرة والعظة بما مضى : فالفراق محتم لا مفر منه ، إنه قدر جميع الناس بلا استثناء . والفراق واللقاء قانونا الحياة ، وليس الشاعر أول من تفرق شمله وتهدمت دياره (١) ، لكن هذا عمل القضاء والقدر الذي يصيب الجميع :

كذلك الدهر إن الدهر ذو غيرٍ على الأنام وذو تقض وإمرار (٢)
- وهي الدنيا إذا ما دبرتْ جعلتْ معروفها منكرها
إنما الدنيا كظلٍ زائلٍ أحمدهُ الله كذا قدرها (٣)

أما كن السكن عند العذريين والعمريين :

إن الدور الخاص في تطوير موضوع « المنازل » و « الديار » في الشعر العربي قد شغلته مجموعتان من الشعراء ظهرتا أيام بني أمية ، وهما : مجموعة الشعراء العذريين ، ومجموعة الشعراء العمريين . إن الشعراء العذريين (شعراء الجزيرة العربية من قبيلة عذرة) ، ومن يماثلهم بطرق هذا الغرض كقيس بن الملوح وغيره ، قد قالوا شعرهم في الغزل العفيف ، وتحديثنا الروايات أن الشعراء البدو - العذريين ومحبوبتهم قد تعرضوا

١ - المنازل ، ص ٩٠ ، ١٨٥ ، ٢٠ ؛ شعر بشر ، ابن مقروم ، البكاء .

٢ - المنازل ، ص ٩٠ ، شعر بهس .

٣ - المنازل ، ص ٧٢ ، شعر أبي العتاهية .

للكثير من الصعوبات والعراقيل التي وقفت أمام حبهم ، حيث حيل بينهم وبين محبوباتهم . لقد منعوهم من اللقاء والعيش بقرب بعضهم ، فكان شعرهم عاطفة ملتببة ، وعفة محضه ، وألما وحسرة . وكانت « المنازل » و « الديار » و « البيوت » معطاة في أشعارهم بقوة خاصة . وبتأثير خاص معين ، حيث إن (المنازل والديار والبيوت) ، بالنسبة لهم ، مثيرة للشوق ، ومحركة للذكرى . هذا الشوق ، وهذه الذكرى يأخذان على الشاعر مجامعه . ولذا فإن مصطلحات « منازل وديار وبيوت » مقرونة بالتهيج والذكرى ، وبأسماء محبوبات معينات . « إن المنازل هيجت إطرابي » :

وذكرتُ عصرًا يا بئسَ شَفْنِي إذ فأتني، وذكرتُ شرحَ شَبَابِي (١)

ويقول جميل في مكان آخر أيضاً :

« أهاجتك المنازل والطلول »

نَعَمْ وُذِكرتُ دَنِيقاً قد تَقَضَّتْ وأي نعيم دنيا لا يزول؟!

ولا يخرج عن هذا كثير بن عبد الرحمن الخزاعي إذ يقول :
« أ للشوق لما هيجتك المنازل ؟! » ، « تذكرت فأنهات لعيني دمعاً » ،
« ليالي عيش نعمنا بوجهه زمنا » (٢) .

١ - المنازل ، ص ٣٥ ؛ ديوان جميل ، ص ، ٣١ .

٢ - المنازل ، ص ٤٧ ؛ ديوان كثير ، ص ١ ، ٢٤٤ .

ان مرور كثير على منازل أحبته يثير فيه الشوق ويدعوه للبكاء :
« أشاقتك الديار »^(١) . ويسأل المجنون أيضاً سؤال العارف « أهأجتك
ديار ليلى ؟ » . انه ير على ديارها ليقبل جذرائها :

أمرّ على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وتبلغ عاطفته ذروتها عندما يلتقي بجبل التوباد في أرض حبيته التي
يبحث عنها وعن أهلها بعد أن اختل عقله - كما يروى - فيدب فيه
الحياة^(٢) ، ويغدو الجبل وكأنه انسان ناطق يحاور مبتسماً ويحييه على كل
تساؤلاته ؛ فالجبل ينادي « نادى بأعلى صوته فدعاني » ، وعندما سأله
عن أجابه قال : « مضوا واستودعوني ديارهم ... » ، ثم يعلل نفسه على
لسان الجبل بقوله « وما الذي يبقى على الحدثان ؟ .. »

ويقابل الاتجاه السابق اتجاه آخر ، يسمى في علم الأدب العربي
الحديث « بالعمري » ، نسبة الى الممثل الاسامي لهذا الاتجاه ، الشاعر
المكي عمر بن أبي ربيعة . لقد نشأ هذا الاتجاه وغما في الحجاز ، منذ
تسلم عثمان الحكم ، حيث انعكس لينه السياسي على مظاهر الحياة
الأخرى ، ووضح بانتقال الحكم لبني أمية ، وبانتقال عاصمة الخلافة .

١ - المنازل ، ص ٨٠ ، ديوان كثير ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

٢ - المنازل ، ص ٦٦ ؛ ديوان قيس بن الملوح ، ص ٢٧٥ .

من المدينة الى دمشق . هذا الحدث الذي يعتبر هاماً في تاريخ الخلافة ان أثر امتداد الفتوح ، واتساع الملك قاد لاعتبار العرب الطبقة الممتازة في الأمصار الاسلامية ، لأنهم يمثلون الدولة والدعوة معاً . ولهذا كانت لهم امتيازات ، وأصاب بعضهم ثراء وغنى ، وعاشوا نتيجة ذلك ذلك حياة ترف ونعيم ، كما ان حروب بني أمية مع معارضيتهم في الحجاز دفعت بعض الناس الى ترك السياسة والانخراط في حياة النعيم . في هذا الصراع قد شاركت أيضاً القوى الشعرية ، لكن بعض الشعراء ائتمدوا عنها وانخرطوا بحياة الترف والنعيم واللهو التي أثمرنا الى أسباب ظهورها ؛ ففي نفس الوقت الذي عبر فيه جرير والفرزدق والاختل في اشعارهم عن الصورة الايجابية للحياة السياسية في دمشق والشام ، كان عمر بن أبي ربيعة وغيره قد ائتمدوا عن الموضوعات الاجتماعية والسياسية ، متغزلين بشعرهم بحياة اللهو والنعيم واللذة ، مشييين بالنساء . وكان الفارق الرئيسي بين غزلهم وغزل العذريين أن العذريين أهدروا الحياة الخارجية ، وأغنىوا الحياة الداخلية ، أما ابن أبي ربيعة وجماعة اتجأه فقد اجتمع لهم المال والشباب والفراغ والجدة ، فأولوا الحياة الخارجية عناية فائقة . إننا نجد عند العمريين قفزة حادة واضحة في اتجاه آخر فيما يتعلق «بالمنازل والديار» ، انتقال من التذكر وبكاء الديار الى حبها والارتحال اليها . إنهم لا يكون الديار وآثارها ، إنما يسمعون جاهدتين للقيها ، ذلك لان الديار عند هؤلاء الشعراء غير مهده دارسة بفعل الرياح والأمطار والزمن ، بل على العكس انها مصدر الراحة والهناء واللهو والنعيم ، ومكان عيش المحبوبة حيث ترتاح عواطف الشاعر ، وترى كل شيء جميلاً لجمال الحياة بقرب الحبيبة والمعشوقة .

المنازل والديار عندهم - هي مكان الراحة ، والسرور والتلذذ مع المعشوقة « قد أرانا بغبطة فيه فلمو ونجذل » (١) . ان هذا النموذج من الاتجاه الشعري والانتقال الحاد في التوجه الى الديار انما فرضته ظروف حياة هؤلاء الشعراء .

لقد ضاق عمر بن أبي ربيعة ذرعاً بالبقاء طويلاً في « المصلى » ، وشنى البقيع » ، وسعى جاهداً لزيارة « ديار » معشوقته « هند وسعدى » (٢) . وكذلك عند العرجي (٣) « أما الديار فقلما لبثوا بها » ذلك لجهم الرحلة والتنقل . وشبا شوقهم بسياط وضعت في أعناق العيس لتحثها على العودة الى ديار الاحباب (الى الاوطان) .

عناصر جديدة في التوجه الى موضوع

« المنازل والديار » ومعاملتها

وعلاوة على العناصر والاتجاهات التقليدية التي انطلقت تعبيراً عن حياة العربي - البدوي الواقعية في الجاهلية ، وكانت مادة أساسية للتقليد في المصور الزمنية اللاحقة ، علاوة على كل هذا فقد ظهرت في الشعر عناصر

١ - المنازل ، ص ١٤ ؛ ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص ٢٠٧ (بيروت)،

ص ١٢٥ (ليزينغ) .

٢ - المنازل ، ص ٩٧ ؛ ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص ١٧٤ (بيروت) ،

ص ٢٣٨ (ليزينغ) .

٣ - المنازل ، ص ٩٢ .

جديدة في معالجة موضوع « المنازل والديار » . فالجاهلي مثله وقيمه التي تمسك بها وقاتل من أجل الحفاظ عليها . فالكرامة وحفظ الشرف من أهم ما تمسك به الجاهلي ، وضحي في مسيله بكل شيء . ورغم أن الاتجاه الغالب حتى الآن عند الجاهليين هو الوقوف على الديار ، والبكاء عليها ، وتذكر الأجنة من خلالها ، أو تذكرها من خلال الأجنة ، والدعوة لها بالسقيا ، والتأسف على ماضيها ، وماضي الحياة مع الحبيبة ، فأننا في شعر قيس بن الخطيم (شاعر قروي مات عام ٦١٢ م) نلمح عناصر تجديد واضحة ؛ إنها دعوة ، إن لم تكن مباشرة صريحة لكنها تلمح بوضوح من خلال الأسطر ، إنها الدعوة إلى الرحيل وترك الديار التي لا تؤمن فيها للبرء كرامته :

وما بعض الإقامة في ديار يهان بها الفتى إلا عناء (١)

ولقد كان ذكر المنازل عند بعض الشعراء الآخرين في المراحل اللاحقة تقليداً للجاهلية حتى ان الشاعر يعيش بين أيدي الملوك ، في القصور الفخمة ، واذ به يذكر المنازل القديمة في الصحراء والحجاز وليس بينه وبينها أية صلة . تقليد الشعراء هنا جاء مفتقراً للعاطفة التي كانت تشيع في شعر الجاهلية ، معوزاً لصدقها . ثم لم يعد ذكر المنازل أحياناً مثيراً للأحزان والأسى بل تشعر بأثر الحضارة في التوجه الى

١ - المنازل ، ص ٩٣ ؛ ديوان ابن الخطيم ، ص ٩٥ (القاهرة) ، ص ٥٣ (بغداد) .

المنازل وذلك بتحيتها عند جرير «حي المنازل بالبردين قد بليت » ، «حي المنازل اذ لا ينبغي بدلا » ، «قل للمنازل ... حيث»^(١) (بصيغة المجهول). تلك التحية التي تظهر عليها بوادر التكلف . ان جريرا هنا ، في اختلاف عن الشعراء الآخرين ، غالباً ما يستعمل الفعل (حي - أبلغ التحية)... الخ ... حتى إن شعر المهجاء بدوره قد أثر على الشعراء في توجيههم الى أماكن وقوف القبيلة . انهم يتوجهون الى هذه المواقف والمنازل بدم بعضها لظهار مكانة الأخرى :

ذُمَّ المنازل بعد منزلة الملوى والعيش بعد اولئك الأقسام^(٢)

وتظهر آثار الحياة الجديدة بوضوح في شعر أبي الحية النميري [من محضرمي الدواتين] ، (القرن الثامن الميلادي) . إذ يصف في مقطوعته ظمائن حبيته التي أعولته احوالاً لا يجدي ، لكنه يدها بأن لا ينساها (ما دعت مطوقة ورقاء شجوا على غصن)^(٣) . فالذي يذكره بحبيته هنا هي الحمامة على غصن الشجر المجاور ، وهذا ما يشبه قول أبي فراس الحمداني الأسير :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تشعرين بحالي

١ - المنازل . ص ١٦ ، ٣٢ ، ٣٧ ؛ ديوان جرير ، ص ١٥٣ ،

٥٩٣ .

٢ - المنازل ، ص ١٤ .

٣ - المنازل ، ص ٤٤ .

وكمادة القدماء فان ذكرى الأيام الخوالي في المنازل والديار تهيج الشاعر ، لكن هذه الذكرى ان لم تهيجها قوافل الطاعنين فان شيئاً جديداً يهيجها، انها « حنائم ورق في الديار وقوع »^(١) . هذه الحنائم التي تنوح فتبكي الأحبة الممزين الذين يتذكرون أيامهم الخوالي .

أما عمر بن أبي ربيعة الذي اعتاد التفرل بالجميع ، والتنقل من عشيقة الى أخرى - خلافاً لغيره - فانه ينهال بالوم على العاشق الذي يطير ليه (إن دار الرباب تباعدت أو ابت حبلى الوصل) ، ويدعو للصحوة من السكر (أفق) ، إذ إن العاشقين قد أفاقوا وتركوا الهوى ، واستحكموا عزيزتهم ، (وكف النفس) ، واستقن الحياء (التزم) ، فان المقادير المحتومة هي التي تباعد وتقارب ؛ (أمت حبها) (واجمل مكان وصالها) أمثالها ، الذين تجاورهم فان كنت قد تعلقت بها ، فلا تكن مادة حديث ولوم البدو والحضر . تم يدعوهم دعوة صريحة الى نسيانها والتخلي عنها :

وهبها كشيء لم يكن، أو كنارح به الدار ، أو غيبته المقابر^(٢)

التجديد في شعر أبي تمام من هذه الناحية انما يتمثل بدعوتيه بالسقيا ، ليس فقط لبقايا آثار الديار ، كما هي العادة ، ولكن أيضاً لتلك

١ - المنازل ، ص ٨٢ ، ٨٧ ، شعر ذي الرمة .

٢ - المنازل ، ص ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ديوان عمر بن ربيعة ، ص ٩٨ (بيروت) و ص ٧ - ٨ .

الامكنة التي يصل اليها الاهل والاحبة .

اذ إن التصابي قد حسن لديه (دار البؤس) فصارت (جنات النعيم) . إنها في الوقت الذي أصبحت فيه ميدان السوافي ، صارت أيضاً ميداناً لهمومه ، لقد شكّا الى مشتك إليه غير رحيم ، ودموعه في بكائه على الرسوم ستترك في خده آثاراً ورسوماً (١) .

والبحتري الذي كان في معظم المجالات مقلداً في هذه المطالع (بعمانيها) وباستخدام (المنازل) فتارة (البلى لم يبق من عراسها سوى أرسم) ، (المنازل أضحت للرياح منازل) ، (منازل ما تجيب من خرس ومن صمم ، تظهر آثار الحياة الجديدة في مطالعه الطللي ، كما وتظهر عنده بعض الاستخدامات الجديدة ، فلم تعد المنازل في صحراء مقفرة ، بل ترى « بين ملتف الأراك منازل » ، والصبابه تقسم قسمين : « فشوقه للظاعنين ، ودمعه للمنزل » ، والمنزل شامخ ثابت رغم تعاقب نكبات الزمان عليه . لم تعد معالم المنازل بالية قديمة لا تقوى على الجواب ، لكنه يحكي « منزلاً جديداً معاله » ، « حتى يكاد يرد رجوع جوابي » . والبحتري لا يقل ثورة عن بشار عندما يعلن بصراحة :

ومن السفاهة أن تظلّ مكفكفكاً دمعاً على طللٍ تأبّدَ مُقْفِرٍ (٢)

١ - المنازل ، ص ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ؛

ديوان أبي تمام ح . II ص ، ٣٥١ ، ٤٥٦ ، ح . I ، ص ،

٣٤٦ ، ٢٦٩ ، ح . III ، ص ، ٢٢٢ .

٢ - المنازل ، ص ٤٨ ، ٤٥ ، ٤٣ ؛ ديوان البحتري ، ح . II ،

ص ٢١٢ ، ٢١٧ .

أما في شعر المعري فأننا نعثر على فصل كامل من عناصر التجديد.
فعندما يخاطب خاله محمد الذي هاجر من الشام الى المغرب يدعوه (لحب الوطن،
والحنين ، والعودة إليه) :

« علام هجرت شرق الارض ؟ (حتى) أتيت المغرب » ؛ [يقصد
بشرق الارض - سورية الشام ؛ أي قسم من الارض الواقع شرقاً بالنسبة
لقسم آخر (المغرب) الواقع غرباً] ؛ إنك لن تجد « الديار » - البلاد
الجديدة - المهاجر اليها كما يتوخاها لك الصديق ، فأنت فيها غريب وحيد.
ثم يدعوه للعودة إلى الشام وأهلها إن لم يعجبه المقام قائلاً : وعلى كل حال،
حتى ولو طاب لك العيش في غير الشام فانما بطيب لك ظاهره ، ذلك
لأنك فيه غريب لا يستقيم أمرك كما يستقيم في بلادك ، بين عشيرتك .
لماذا رحيلك إذأ ؟ أترحل لتجد في الغرب أخاً يفى بحق الاخوة ؟!
لكنك بذلك تضيع أخاك القديم الذي كان قد حصل لك من عيشك في
في أرضك ووطنك :

علام هجرت شرق الأرض حتى أتيت الغرب تختبر العبادا
فان تجد الديار كما أراد غريباً فما الصديق كما أرادا
إذا الشعرى اليانية استقلت فجدد للشامية الودادا
فللشام الوفاء وإن سواه توافي منطوقاً غدر اعتقادا
ظعننت لتستفيد أخاً وفيّاً وضيعت القديم المستفاد(١)

١ - المنازل ، ص ٦٥ ؛ سقط الزند ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

وبغض النظر عن ذكر المعري لعناصر الحياة البدوية (الجمل ،
الناقة ، الأطلال ، الأعلام . الخ) ، فإنه يسوقها في صورة جديدة ؛
فالناقة من ضعفها أشبه بحرف « نون » ، والآثار ، وبقايا الاطلال ومعالم
الديار أشبه بسطور إبهام وألغاز ، ويدعو لدار الحبيبة أن تسقى ،
ويتفائل لها بالسعادة ، وبغفران ذنوب أهلها ، فلحبيته وأهلها رحلة في كل
شتاء هي سبب التناهي والفرقة ، ويدعو على الشتاء الذي هو سبب الفرقة ،
وَيَتَمَنَّى أَنْ يَعَاقِبَ بِجَدْعِ الْأَنْفِ ، وَيَبْكِي فِي دِيَارِ الْحَبِيبَةِ الَّتِي لَمْ تَوْرَقْ
أَوْتَادَهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ سَقَاهَا مَطَرًا مِنَ الدَّمْعِ . إِنَّ حَنِينَهُ الْحَقِيقِي لَوَطْنِهِ
الْأُمِّ [المَعْرَةِ] ، إِذْ وَهُوَ فِي الْكَرْخِ حَيْثُ النَّاسُ فَرَحُونَ ، يَشْتَاقُ
لِلْمَعْرَةِ ؛ فَلَا شَأْنَ لَهُ بِالْكَرْخِ وَبَغْدَادِهِ :

فيا برق ليس الكرخ داري وإنما رماني إليه الدهر منذ ليالٍ

وَيَتَمَنَّى وَهُوَ بِالْكَرْخِ أَنْ يَحْصَلَ وَلَوْ عَلَى قَطْرَةِ مَاءٍ مِنْ مَاءِ الْمَعْرَةِ
تُرْوِي ظَمَأَهُ ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي يَحْنُ إِلَى الْوَطَنِ :

وما بلادي كان أنجع مشرباً	ولو أن ماء الكوخ صهباً جرباً
فيا وطني إن فاتني بك سابقٌ	من الدهر فلينعماً لساكينك البال
وإن أستطع في الحشر آتاك زائراً	وهيهات لي يوم القيامة أشغال

وقال أيضاً في مناجاة البرق :

فهل فيك من ماء المعرة قطرةٌ تررّي بها ظمآن ليس بسال
فليت سنيراً بان منه لصحبتى بروقيّ غزالٍ مثل قرن غزال

(سنير : جبل بالشام على طريق العراق ، روقي غزال : موضع
على شط العرب^(١) .

إن طبيعة الحياة المستهترّة ، في بعض المجالات ، بما فيها من مجالس
شراب ولهو كانت صفة الحياة مجموعة من الشعراء الشبان ، ولاقت انعكاساً
واسعاً في مجالات شعرهم . « فالديار » التي ببرقة قد :

أصبحن بعد نعيم عيش منوق قفراً ، وبعد نواغم أدغانا^(٢)

وإنه لمن المثير أن نلاحظ أن آثار الديار البالية لم تعد وحدها
الباعث على بكاء الاطلال والديار ، بل على العكس فإن حياة النعيم والترف
واللهو وحياة اللذة الشخصية هي التي تثير البكاء ، وتحرك الشاعر . ففي
أيام المعتصم ، وعندما يكون الحديث حول منازل الخلفاء [القصور] ، التي

١ - المنازل ، ص ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٣٠ ، ٣٤٣ ؛ اللزوميات ،
ح . ١ ، ص ٢٦٧ ؛ سقط الزند ، ح . ١ ، ص ١٩٨ ،
ح . ١١ ، ض ٤١ ، ٩٩ ، ٥٩ .

٢ - المنازل ، ص ٩١ ؛ ديوان جرير ، ص ٢٨٠ (أو المنازل ، ص
١١٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣) ، شعر جرير .

تمج بالنعيم والعيش المرفه ، وزخرف بمختلف أنواع الزخارف ، تبدو أطلال
هذه المنازل ثابتة دائمة غير بالية :

يا منزلاً لم تبلى أطلاله حاشا لأطلالك أن تبلى

ولم تمد الأطلال مدعاة للبكاء « لم أبك أطلالك » ، لكن العيش
في تلك المنازل ، حياة النعيم فيها هي « أولى ما بكاه الفتى » . وغدا
المكان الذي يؤمن الراحة والعيش هو المكان المأسوف عليه الذي يستدر
الدموع ، وكأن التعلق « بالمنزل » قد غدا تعلقاً بالعيش في ذلك
المنزل :

يا منزلاً لم تبلى أطلاله حاشا لأطلالك أن تبلى
لم أبك أطلالك لكنني بكيتُ عيشي فيك إذ ولّيتُ
والعيش أولى ما بكاه الفتى لا بُدَّ للمحزون أن يـأـى
قد كن لي فيك هوىً مرّةً غيرَه الدَّهرُ وما ملأ (١)

فابن زريق الكاتب عندما يتحدث عن فراقه لحبيته في الكرخ ،
وآثار ذلك في نفسه لا يبكي الاطلال والمغاني ، ولا يصور عيها ، وعدم
جوابها ، إنما يستحلف « منزل الـهـو الذي درست آياته » بالله ، ويسأله :

١ - المنازل ، ص ١٢ ؛ قصة باسم زنام الزامر .

« هل الزمان معيد فيك [في المنزل . و . ط] لذتنا !؟ » (١) .

إن البكاء على مواقف القبيلة ، والاطلال ، وآثار الديار قد تحول عند الشريف الرضي إلى التغني ، ووصف الازهار الرائعة ، التي تفوح منها أجمل المطور ، وأروع الروائح ، والتي تنمو على آثار «المنازل القديمة» ، المملوءة بزهر الأقحوان الخلاب :

يَقْرُءُ بَعْنِي أَنْ أَرَى لَكَ مَنْزِلًا بَنِمَانِ يَزْكُو تُرْبُهُ وَيَطِيبُ
وَأَرْضًا بِنُورِ الْأَقْحِي صَقِيلَةً تَرْدُدُ فِيهَا شِمَالٌ وَجَنُوبٌ^(٢)

والخطوة الجريئة في تناول الشعري « للمنازل والديار » وآثارهما يمكن العثور عليها في شعر الكميث بن زيد [توفي ١٢٦ / ٧٤٣ - ٧٤٤] ، إذ إنه يقف ضد المطالع الطلمية ، وبكاء آثار الديار ، وبقايا أطلالها رغم أنها تذكره بسكانها السابقين :

مَالِي فِي الدَّارِ بَعْدَ سَاكِنِهَا وَإِنْ تَذَكَّرْتُ أَهْلَهَا أَرْبُ
لَا الدَّارَ رَدَّتْ جَوَابَ سَائِلِهَا وَلَا بَكَتْ أَهْلُهَا إِذَا اغْتَرَبُوا^(٣)

١ - المنازل ، ص ٣٣ - ٣٤ ؛ طبقات الشافعية » > ١ . ص ، ١٦٥ .

٢ - المنازل ، ص ٣٨ ؛ ديوان الرضي ، ص ٨٠ - ٨١ . [نعمان : وادٍ كثير الاراك] .

٣ - المنازل ، ٢٨١ ؛ هاشميات الكميث ، ص ٧٤ .

إن الدعوة الواضحة الصريحة للامتناع عن بكاء الاطلاع ، وعين المطالع الغزلية - كما أشرنا سابقاً - إنما ظهرت بشكل جلي في شعر بشار [توفي عام ١٦٨ / ٧٨٤ - ٧٨٥] وفي شعر أبي نواس [توفي عام ١٩٨ / ٨١٣ - ٨١٤] . لكن الطليعي الاول لهذا الاتجاه في الشعر - كما نرى الآن - إنما هو الكميّ الذي عاش قبل بشر وأبي نواس بمحالي نصف قرن . إنه يمتنع عن بكاء لا الرسوم وحدها ، بل الديار بأكملها وهذا تأكيد لما ذهبنا إليه من وجود البذور الجنينية للتجديد منذ القديم ، حتى في قول عنتره : هل غادر الشعراء من متردم .. [وهذان كيديّان على أن الوقوف ضد المطالع وبكاء الديار كان اتجاهاً فرضته ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية بعد أن استقر العرب في المدن ، وبعثوا من الصحراء ، وليس بدافع الشعورية فقط عند أبي نواس وبشار كما يرى بعض الباحثين العرب^(١) . وقريبة من دعوة الكميّ دعوة أبي عبدالله بن الحجاج الذي يحن إلى خلانه كما تحن « النيب العطاش إلى الورد » :

« فلا مرحباً بالدار لا تسكنونها ولو أنها الفردوس أو جنة الخلد »^(٢)

إلى جانب مناحي التجديد هذه - المشار إليها سابقاً - في تناول موضوع « المنازل والديار » شعرباً ، والتي ظهرت تحت تأثير الحضارة ، وتغير الشروط المادية للحياة في العهد الاسلامي ظهرت معانٍ جديدة أيضاً

١ - الكفراوي ، ص ٧٣ - ٧٧ .

٢ - المنازل ، ص ٣٢٣ .

لألفاظ « دار » ، « بيت » واستعملت هذه الألفاظ بمعانيها الجديدة في الشعر العربي .

إن لفظة « دار » ، مثلاً ، قد امتلكت - بعد ظهور الاسلام - معانياً إضافية أوسع مما كانت عليه في العصر الجاهلي . المدينة [مدينة الرسول] سميت « دار » سكنى المؤمنين ، و « دار الهجرة »^(١) . وبعد ، فإن كل الارض التي امتلكها المسلمون ، وشاع فيها الاسلام سميت « دار الاسلام ، ودار الايمان » ، أما أرض غير المسلمين - « دار الحرب ، أو دار الكفر »^(٢) . ولقد دعوا الجنة « دار الله » ، و « دار المؤمنين » ، أو « دار السلام »^(٣) . أما « بيت الله » أو « البيت الحرام » فقد قصد بهما « الكعبة » ، و « آل البيت » - « أهل الرسول »^(٤) . وكذلك فإن لفظة « دار » قد استعملت بمعنى « القبر » ، وهذا ما يؤكد الحديث النبوي عن زيارة القبور ، وبمعنى « الدنيا »^(٥) وأطلق على الحياة الآخرة « دار الفناء » أو « دار الهلاك » كما يرد في شعر أبي العتاهية .

١ - المنازل ، ص ١٦ .

٢ - H. Krus, Studies in Islam, Vol. VI, No 1, 1965, p.8 .

٣ - لسان العرب ، ج ٧ ، ص ٣٨١ وما بعد .

٤ - لسان العرب ، ج ١١ ، ص ٣١٧ ؛ تلج العروس ، ج ١ ، ص ٥٢٩ .

٥ - هكذا استعملها سعيد بن حميد الكاتب . انظر : المنازل ، ص

٢٧٧ - ٢٧٨ ؛ والمرضى ، انظر : المنازل ، ص ٧٤ .

السعادة في الدار [الحياة الدنيا] - قصيرة ، والناس يعيشون في « دار
الفناء ، دار الهلاك ، (الدنيا) حيث سيتقلون بعدها إلى « دار الأزل ،
الدار الابدية » - (الحياة الآخرة) .

إن أبا العتاهية يدعو الانسان لأخذ عبرة وعظة من الماضي ، كي
يفعل الخير والاعمال الصالحة ، ذلك لان الحياة قصيرة ، وما هي إلا
« دار الفناء ، ودار الهلاك ، ودار الخلداع ، ودار العذاب » (١) .
و « المنازل » المهجورة عند أبي فراس ليست فقط أماكن سكن، ودوراً ،
بل إنها أحياناً « جوامع » و « مراكز العبادة والصلاة » (« فالنسيجد
الجامع المروعة والمجد عفا ») (٢) . وهذا أثر من آثار الاسلام حتى ولو
جاء على لسان أبي نواس الذي لم يكن كثيراً متقيداً بشرائع الدين الجديد.
وإذا كان أبو نواس قد قصد بلفظة المنزل « المسجد » ، فإن أبا العلاء ،
بنظرته التشاؤمية الفلسفية ، قد قصد بالمنزل « القبر » ، لاليكيه ، بل
ليجعله مكاناً لراحة المرء : « أعفى المنازل قبر يستراح به » .

« داري ، من يقول ، وأعبُدي مَهْ فالعبيد لربنا والدارُ » (٣)

كما استعمل اصطلاح آخر هو « دار الغربة » ؛ الموت - إنه

١ - المنازل ، ص ، ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ؛ ديوان أبي
العتاهية ، ص ، ١٠٦ ، ٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

٢ - المنازل ، ص ١١ .

٣ - المنازل ، ص ٢٣ ، ٢٩٤ .

الباب إلى « الدار - الجنة » ، فـبـيـا إذا كان الإنسان تقياً ورعاً ،
أما إذا كان عكس ذلك فإلى « النار » ؛ وحيـاة المـرء في دار الهلاك والحـقارة
ضعف ؛ والدار - ما هي ، أحياناً ، إلا الحياة الدنيا بكاملها ،
المتغيرة المتبدلة .

أما في أشعار الشعراء الذين لم يتمكن نسبتهـم إلى عصر أدبي
معين ، والشعراء المجهولين (قال آخر ...)^(١) فإتينا نعتـر على ذات الأطـر
العامة المطروحة سابقاً : « فالدار » استعملت في هذه الأشعار بمعنى
(الدنيا) ؛ الزمان يذهب بالناس ، وتبقى ديارهم كالرسوم . ويعتـر أيضاً
على ألحان ونغمات الحنين إلى « الدار » التي خلق فيها الإنسان ، وعلى النغـمات
الزهدية ، إذ عبثاً يطلب الإنسان الخلود في دار الفناء (الدنيا) ، وما
(الدنيا) للناس بدار إقامة ، وليس أهل الدنيا للناس بأهل ، ولادار
الحياة لهم بدار ، والدنيا دار فرقة ومصائب ..

ولا بد من الإشارة إلى ظهور التلاعب بالالفاظ ، واستعمال المعاني
المجازية عند مهيار :

« ديار الحي من خبت السلوى عُدت ظناً بعدما كنت حقيقة »

(إذ يقصد أن الناظر إلى هذه الدار يشك الآن في معرفتها ،
بعد أن كان يعرفها فوراً) .

١ - انظر : الننازل « الفصل عن الدار » . (الخبت : ما أطمأن من
الارض واتسع) .

(لقد أخذ الدهر قشياً رائماً من مغانيها وأعطاهما سحوقه) .
ولقد ظن أن الدمن مستطيق حمل النوى ، في الوقت الذي لم يطق هو
ذاته تحمله ، لكنه عندما رآها ناحلة كنجوله أيقن أنها مشتاقه
كشوقه :

خِلْتُ لِمَا لَمْ أَطِيقْ حَمْلَ النَّوَى أَنْ تَلُلَ الدِّمْنُ مِنَ الصَّمِّ مُطِيقَهُ
لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ حَتَّى نَحَلْتُ كَنَجُولِي إِنَّهَا مِثْلِي مَشُوقَهُ
أَيْنَ جِيرَانِي بِهَا لَهْفِي لَهُمْ لَهْفَةً سَكَّرَتْهَا غَيْرُ مُفِيقِهِ (١)

وكذلك فإن لفظه «بيت» تستعمل أيضاً بمعنى مجازي ، وإسلامي .
كما أن الشمر دل وجري يستعملان اللفظة بمساعدة المرافقات اللفظية الأخرى
الموضحة بمعنى « قبر » - « دار الهجرة » ، « بيت الهجرة » (٢) . أما عند
ابن المغربي فتستعمل بمعنى « الكعبة » (٣) . وفي المرحلة التي امتازت
بقوة العصية القبلية ونحوها (العصر الأموي) ، فإن لفظة « بيت »
تصادف في أشعار الفرزدق وجري بمعنى « شرف القبيلة » :

١ - المنازل ، ص ٧١ ، ٨٣ ؛ ديوان مهيبار ، ج ١ . ص ٣١٧ ،
و ج ٢ . IV ، ص ٥٥ .

٢ - المنازل ، ص ٣٨٥ ، ٢٨٢ .

٣ - المنازل ، ص ٣٨١ .

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائه أعزّ وأطول
يتأّ بناه لنا المليك وما بنى حكم السماء فانه لا ينزل (١)

العناصر الفلسفية والوعظية :

في الشعر الجاهلي - كما هو الحال ايضاً في الشعر الاسلامي- يمكن العثور على عناصر تحمل الصفات الفلسفية والوعظية . ففي توجه الشاعر الجاهلي « لبيد » إلى « الديار والمنازل ، مناجاة للديار من وجهة نظر أخرى مغايرة جديدة - إذ لم يبك « الديار » كما بكأها الآخرون ، ولم يبك آثارها وبقاياها ، بسبب نظراته الفلسفية إلى الامور : (لماذا بكاء الديار ، إننا نحن الرائلون أما المنازل والديار فهي الباقية) .

« بلينا وتبقى الديار بعدنا والمصانع (٢) »

ولن يجزع لبيد إن فرقه الدهر عن أحبابه إذ « كل فتى يوماً به الدهر فاجع » ، « وما الناس إلا كالديار » حلها أهلها اليوم ، ولكنها

١ - النقائض ، ص ، ١٨٢ ، المنازل ، ص ٤١٠ .

٢ - لاحظ هنا أثر الجاهلية في المعنى ، فالمصانع ما يصنع لجمع الماء نحو البئر والصهر بيج ، وفي اللسان : مادة « صنع » ، ما يصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرها [ويورد بيت لبيد شاهداً على ذلك] .

غداً منهم بلاقع خالوة ، والمرء كالشهاب الذي يضيء ، وهو ساطع يبدأ
بالتحول إلى رماد ، فكأنه بسطوعه يسير إلى هلاكه ، وكذا الانسان ،
وهو يحيا ، يموت ، إذ يقترب من نهايته (١) .

أما في شعر أبي العتاهية فتصادف عناصر الوعظ والارشاد بكثرة:
الحياة الدنيا غير أبدية ، إذ إن الموت هو نهاية الانسان المحتمة ، وكل
بيت لا بد وأن يسير إلى الهدم والدمار مهما طال به الزمن ... الخ ...
ويسمع أبو العتاهية الجميع في مناجاته أن البيت والمنزل إلى زوال،
والمرء في أواخر أيامه كالثوب يخلق بعد جدته ، ومصيره من بعد أنسه
بالناس « ظلمة بيت وحدته » ، بيت وحدته هو قبره (٢) . إن هذه
الصفات التي أشرنا إليها مع عناصر ولغات التجديد يمكن أن يعثر عليها
في أشعار البحري حيث يذكر الديار ، لا للبقاء عليها ، إنما ليعطينا من
خلالها نظراته الفلسفية إلى الحياة : فمن يزداد عمره يزداد غرفه من
مصائب الحياة ، والانسان المضلل هو الذي يسر « لعمران الديار » إذ
إن عمرانها يدنوها من خرابها (٣) . وكذلك المتنبي الذي يصور خراب
منازل أقربائه : « أبداً غراب الين فيها ينق » ، لا يبكيا ، بل يأخذ
عبرة من الحياء ، فالأكامرة - من جمعوا الكنوز - قد فنوا ، وفنيت
معهم تلك الكنوز (٤) .

١ - المنازل ، ص ، ٩٩ ؛ ديوان لبيد ، ص ١٦٨ - ١٧٢ .

٢ - المنازل ، ص ٧٣ ، ١٨٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ؛
ديوان أبي العتاهية ، ص ٢٤٧ ، ٧٣ .

٣ - المنازل ، ص ٧٠ ؛ ديوان البحري ، ج I ، ص ٤٧ .

٤ - المنازل ، ص ٨٢ ؛ ديوان المتنبي ، ج I ، ص ٤٧٨ .

أماكن السكن في شعر القرن الثاني عشر، وبخاصة في شعر أسامة وأهله

إن دراسة موضوع الوطن - [المنازل والديار] في شعر القرن الثاني عشر ، وفي أشعار بني منقذ ، وخاصة في شعر أسامة تعطينا إمكانية توضيح تطور أنغام وألحان معاملة أماكن السكن ، مع تطور مفهوم الوطن ، وتعطينا الأساس لمتابعة بحث ودراسة هذا الموضوع في شعور المراحل اللاحقة على امتداد العصور حتى أيامنا هذه .

لم يكن ذكر الديار عند القاضي المذهب - عصر أسامة - للبكاء على ماضيها ، ورسومها ، إنما وسيلة لاثارة مشاعر الشاعر تجاه الديار وأهلها ، فخيال أجنبية ثابت أبداً أمام ناظره ، وذكرهم قائمة في قلبه . وهو ، وإن بكى ، فأنما يبكي من الحنين والشوق :

« وإلى دياركم نحن صباية ونفض أوعية الدموع ونرسل (١) »

ولن تظفر بحبابة تلك المنازل إلا وتنسكب دموعه منيرة من حنين إليها .

ويمر على المشاعر الصادقة أيضاً في شعر طلائع بن

رزيك (١) ، الصديق الجميم لاسامة الذي تناهت إليه أخبار نكبة بني منقذ ، فلا حول ولا قوة له إلا أبيات شعر يضمنها صدق حبه ، وتأثره ، باكياً حيناً ، بمشاركة وجدانية صادقة ، مواسياً أحياناً ، جاهداً نفسه لايجاد الغزاء لخراب (ديار بني منقذ) - بلدهم شيزر ، عن بكرة أبيها ، وبتعابير بسيطة واقعية ، وألفاظ توحى باللوعة يعبر عن عظم المصيبة لدمار الامل والديار :

لهف نفسي على ديار من السكّا ن أقوت فليس فيها عريب

تلك الديار التي كثيراً ما حلها الغرباء ، فلطيب لقيا أهلها ، وحسن معشرهم ، أنستهم حتى أوطان صباهم وأهلهم . وليس لاسامة - حسب قول ابن رزيك - إلا الصبر على حادثات الدهر إذ : « حكمه الجور والعدل وفيه المكروه والمحبوب » . وإن تخصصت النوائب آل منقذ فلأنها تأخذ العقلاء المقدمين ، كالقنا في ساعة الروع « تكسر منها صدور وتبقى كموب » .

وعندما يتناول والد أسامة الحديث عن الديار - ربما ليظهر براعته في هذا المجال ، ومجارة الاقدمين ومباراتهم ، إذ لم تكن النكبة هي الدافع لشمره هذا ، حيث توفي قبلها بمدة - فهو في غالب الاحيان لا يخرج عن مناحي مناجاة القدماء . فلا يلوم الواقف على الديار على وقوفه ، بل يدعو بصيغة الامر : « فأفص شؤون العين » للبكاء على « أربع

درست « ، ولم يبق منها للناظر أي مجال للتمتع والنظر لولا هواه
الذي شغفه ، وبياهي الاقدمين في التعبير لكن بأسلوب المبالغة . فقد شبه
البابكي بالحمامة « كهاتفة تنوح وتسيج » (١) . والمواسون لا يفيدونه
شيئاً ، ولا ينقذونه من لوعة كامنة في النفوس ، ذلك لان مقدار أسفه
وحسرتة - حتى ولو تقطعت منه الاحشاء - يبقى قليلاً تجاه شوقه لها .
وعلى كل حال فله عذره - على حد تعبيره - في البكاء لانه الحلي الباقي
المعذب بعد الديار الهالكة الدارسة . إذ قد رغب بحياة جميلة مع الاحباب
في الديار ؛ فان لم تكن فراحته بالموت تؤمن .

وكذلك الامر في شعر أقرباء أسامة [جده ، وعمه ، وأخيه] .
« فالدار » هي « دار الاقامة » ، إنها « دار التصابي والتصافي » ، « عفاها
كل منهمر » غزير رائح غادر .

« والعيش بعد الاحبة لؤم » . وتقرن عندهم الدار بالاخوة والاهل
وذوي القربى :

يا إخوتي وذوي ودي وخالصتي حزني عليكم مدى الايام متصل
إن ديارهم التي كانوا فيها كشمس النهار خلت وأقفرت ، لان الزمان
لا أمانة له : « ولا تدوم به الايام والدول » (١) .

وما اللفظة في أشعار بني منقذ إلا واسطة التعبير عن مشاعرهم ،

١ - المنازل ، ص ٧٥ .

٢ - المنازل ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٦٥ ، ٦٦ .

وآلامهم المبرحة . فمُشاعر الألم والحزن هذه تطفئ على جميع المشاعر
الآخري في شعرهم . وانعكاس [تراجيديا] بني منقذ وتشخيصها في هذه
المصطلحات « دار » ، « بيت » ، « منزل » يظهر أيضاً بشكل خاص في
أشعار علي بن مرشد - أخي أسامة ، وبشكل واضح في أشعار أسامة
ذاته .

لقد تأخر علي بن مرشد عن أسامة وأخويه اللذين خرجا إلى
دمشق ثم مصر ، وأسف كثيراً لبعدهما ، وخلو منازلهما منها . وبمناظرة
الابن الذي فقد أباه ، والابن الذي تأسف فرقة أخوية اللذين كانا في حكم
المنفيين نتيجة قرار عمه بتركهم مسقط رأسهم شيزر ، بهذه العواطف
الصادقة الاليمة بكى منازلهم الخالية منهم دموعاً صادقة :

« فاسق الربوع من الدموع سجالها إن الرسوم لها عليك رسوم »

وايست المنازل عنده صماء بكاء ، بل ناطقة تحيب [وعظاً بلا لفظ] ،
لأنها كانت شاهداً عياناً على اضطراع (آمال ساكنيها - مع المنايا) ؛
ساكنيها بني منقذ ، اللذين رغم إن الدهر فرقهم عنه : « فهم نفسي بكم
ماعتشت مجتمع » .

إنه يبكي الديار ولا يخشى في هذا لومة لائم « فهل بعد الديار
أكاتم ؟! » ، ويتذكر ماضيه في الديار مع أهله . « إخوان صدق كالثرثرا
نفوسهم سمعت » ، لاحقد في نفوسهم ولاضغينة ، بات يبتهم مسروراً لاهم
لديه ولا غم « حيث » « الربع للشمل جامع » ، ولكنها الكارثة قد
حالت فغيرت كل شيء :

« أفقرت منهم الديار وأضحت دارسات كأنهن رقوم »

ولم يعد له ، وهو المحزون ، إلا البكاء والذكرى ، حتى إذا تذكر ظن وكأنه حلم ، يتمنى الموت « فعيشي بعد الاجة لؤم » . ولياليه طوال من الارق والسهاد والحزن والالم ، ومن البكاء والتذكر . إنه يعتب على الزمان ، ويواسي نفسه بأن لاحول ولا قوة أمام القدر (١) .

أما أسامة فهو ذلك الشخص الذي يحب وطنه (شيزر) حباً كبيراً ، وأهله ، بالرغم من أن بعض المقربين الاقرباء ناصبوه العداة (عمه سلطان) . وشعره هو ذلك الشعر الذي يفيض حزناً وأسى ، ويفعم بعواطف الألم والمرارة والصدق ، دون تقليد متقدم ، أو وصف قصر عز ونعيم ، إنما هو شعر صاحب الرزية الذي ابتلي بالمصائب ، هو ذلك الشعر الذي أنطقته المصيبة بشوق إلى منازل عاش بحكم المنفي عنها ، بعيداً ، وعاد إليها ليجدها هباءً متهوراً ، كأن لم تكن بالامس . لم يبق منها حتى الاطلاع يبكىها ، وحتى القريب يواسيه في المصيبة . هذا ما يشير إليه أسامة إذ يقول : « قلت : لي على ما تقدم ذكره من الشعراء فضل المزية ، إذ كنت دونهم صاحب الرزية ، وإن كنت وهم كما قال نر لآبيه : يا أبه ! مالك إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكمهم ؟ قال : يابني ! ليست النائحة المستأجرة كالكلى » (٢) .

١ - المنازل ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٦٥ ، ٦٦ .

٢ - المنازل ، ص ٢٥ .

إن أسامة يصور الكارثة العامة التي حلت بأهله (بني منقذ عامة) ، وبنازلهم حيث كانوا فيها « في نعمة محروسة » [المـز كان مقتراً بالسيف والمال مقروناً إلى الكرم] ، كانوا كالأسود في عرينها ، وصعبوا على كل ذي ملك ، وذي قدرة :

« ما استطاعوا ذو ملك ، ومن الذي يلج العرين على الهذبر الخادر؟! » (١)

لقد كان وقع الكارثة كبيراً على أسامة ، وهو الإنسان الذي أحب شيزر ، وجعلها محطة يعبرها كلما منحت له الفرصة ، تربي فيها ، وأخذ كل عدته للحياة منها - الثقافية ، والحربية ، والسياسية - ، وإذبالكارثة تقضي على كل شيء : على ذلك الماضي الجميل بما فيه « ديار الهوى » التي كانت « أفقاً للأسود » « وغياًئاً للمهوف ، وذخراً لفقير » ؛ وعلى ما كنيها « الانجم الزهر » ، أما عصرها - فـ « فصل الربيع نضارة » . وإذ بالكارثة تقضي على عشيرته بني منقذ ، الذين لم ينقذوا من زمانهم ، « وكم أنقذوا من مرهق وأسير » ، فتغدو الديار وقد خلت من أهلها ، وتوحشت ، يعلوها البلى ، وتعفو رسومها ، فلم يعرفها بالرؤية البصرية إنما بالرؤية الروحية « أنكرها طرفي وأثبتها القلب » . لقد أصابها العذر المحتم الذي أهلك كل من فيها . وحول شائخها إلى رسم دارس ، ولم يبق منهم إلا الحديث عنهم « كما تحدث عن عادٍ وعن إرم » ، وآثارهم عظة لمن يتوسم :

أنظر منازل آل منقذٍ إنها عظة اليب ، وعبرة للناظـر

ونبلغ الحسرة ذروتها ، والصدق غاية في مقطوعته حيث يبكي
دياره ، وبكاء أي انسان داره وأهله إنما يكون سبباً لبكاء أسامة أهله
وأوطانه وخاصة وقد غدا بلا دار ولا سكن :

إذا بكى لديار باد ساكنها ذو وحدةٍ ساء في داره الزمنُ
بكيت أهلي وأوطاني وآسفني أن ليس لي بعد هم دارٌ ولا سكنُ

لقد قضى الزمان على قومه أجمع ، وملك أوطانه سواهم ، ففدا
شريداً غريباً ، لا يجد من يشتكي إليه حزنه إن حاول الشكوى :

أخنى الزمان على قومي وملتي أو طاني سواي ، فلا أهل ولا وطنُ
ولم تدع لي المنايا مُشتكى حزنٍ أبته كمدي إن عادني حزن
والبون شامع بين ماضيه وحاضره ، فما أجمل ذلك الماضي ، وما
أقبح هذا الحاضر :

يا حُسن أول ذلك الدهر الذي قد كان فيك وقُبِحَ هذا الآخر !

لقد عفت هذه المنازل - منازل بني منقذ ، لكنها ، إن سألتها
عنهم :

تخبرك أن الأرض قد وارتهم وأبت لهم أن يسمعوا أو ينطقوا

كان وقع الكارثة عظيماً على أسامة ، فلا يبكي الديار بقدر ما يبكي
أهل الديار ، و كارثة فريدة من نوعها ، فقد غدا بلا دار ولا أهل ،
ولم الديار إن لم يكن الأهل فيها :

وماذا انتفاعي بالديار وقربها إذا أقفرت من كلِّ مَنْ أنا آلف
وببكي أهل الدار تارة :

وقالوا: أبكي للمنازل؟ قلت: لا ولكننا أبكي لأهل المنزل (١)

لقد نظر إلى دار الاحبة الفقراء التي لم يبق لها إلا الوجد والحنين
فبكى ، ورأى صحبه هذا ، فشاركه بعضهم ، وعنفه بعضهم الآخر :

وقالوا : أفقّ ، للأرض تبكي ؟ فقلتُ لا
ولكنني أبكي لمن وارت الأرض

وببكي حيناً آخر المنازل وأهلها ، وشبابه الضائع ، ويعبر عن هذا
باستفهام العارف المؤثر الحزن ، يعبر عن حيرة مؤلمة ، ووجد فائق :

أبكيك ؟ أم أبكي زماني فيك ؟ أم
أهليك ؟ أم شرح الشباب الزائل ؟

من شدة الوجد والاسى ، وفقدان الحيلة أمام الكارثة المروعة ،
لا يقوى أسامة على فعل شيء ، وهو كإنسان مؤمن يتوجه بشكواه المؤلة
إلى الله ، عليه يجب في ذلك مواساة لروعته ، لمنزله ، ووجده على أهل تلك
المنازل . والتوجه إلى الله عند المؤمن غاية المطاف .

إلى الله أشكو روعتي لمنازل خلّت ، وجوى قلبي لأهل المنزل
ويدعو أسامة الباكي على الديار « دموعاً تسجم » أن لا يقف
عليها لأنها بكاء لا تخفيه شيء عن أهلها :

ماذا وقوفك في الديار مسائلاً عن أهلها ، ومتى يحيب الأبكم؟!
وأخذت المنازل على أسامة كل دموعه ، وأفقدته صبره ، وجعلته
في رقاد مستمر ، فإن لم يبكيها فكأنه غدر بمهد من سكنها . ويدعو لها
بالسقى - سقى المطر - كمادة الشعراء الرب « وسقتك وطفاء» (١) ،
وببكيها دموعاً مندرة تفوق غزارة المطر ، إذ إنه لا يريد أن يحمل
هذه الأطلال منة السحاب :

أأحمل الأطلال منة عارض وسحابٌ دمعي مستهل ماطر؟!
لا يبكيها دمعاً فقط ، بل لشدة الألم والحرقه يدعو إلى البكاء
عليها دماً :

فأسفح دموعك في ثراها أو يمازجها الدم

ويسبها أحياناً ، ويدعو لها بعدم السقيا [على غير عادة الشعراء
الأقدمين] طالما أنها أقفرت من أهلها :

وما كنت أهوى الدار إلا لأهلها وبعدهم لاجاد ساكنيها القطر
فما الدار تملك الدارُ بعد قطينها ولا الدهر فيها بعدهم ذلك الدهر
- « لاجاد ربك من ديار أقفرت من أهلها صوب الغمام الماطر »

أصبحت حياته بعد أهله بدون معنى : فلم « أحظ بعدهم من العيش
الطويل بطائل » . وصعب عليه العيش ، فتمنى الاحتاق بهم : « أرجو
الاحتاق بهم » . إذ لا شيء يعزيه لفقدهم ، ويواسيه :

وإذا فرغتُ إلى العزاء دعوت من لا يستجيب، وُرمتُ نصرة خاذل (١)
ويعود أسامة ليواسي نفسه طالما أن مواساة الناس خائبة لا تجدي،
فهذه باعتقاده - سنة الكون منذ كان الكون ، يد تبنى وأخرى تهدم :
هي شيمة الأيام : كف تبتني - مذكاة الدنيا وكف تهدم (٢)
وكان واعياً للمصير المحتم إذ يخاطب صاحبه :

ما أنت أول من تناءت داره فعلام قلبك ليس تحبو ناره ؟!
إما السلو أو الحمام ، وما سوى هذين قسّمُ ثالثُ تختاره (٣)

١ - المنازل ، ص ، ٢٦ - ٢٨ .

٢ - المنازل ، ص ٢٦ .

٣ - المنازل ، ص ، ٣٠٢ - ٣٠٨ .

والموت عند أسامة مصير كل انسان ، ورحلته ستنتهي إلى تلك
القبور التي انتهت إليها عشيرته :

وغداً تخيمُ حيث حلُّوا في القبور وخيموا(١)

فالنازل والديار عنده محددة ، إنها منازل آل منقذ الكائنة في
شيزر ، أصابها كارثة ، وهزها الزلزال فدمرها بكاملها . وكل كلمة قالها
أسامة في هذه الديار كانت تنفيساً وحرقة وحسرة ، إنها مسـلوان عن
مصابه وألمه .

٢ - المعنى الاوسع لمكان السكن

(المغاني والربوع)

تستعمل في اللغة العربية أيضاً بعض الالفاظ التي تمتلك معنى أكثر اتساعاً وشمولاً ، وتدل على رقعة من الارض أكبر ، حيث ينتشر عليها أكثر من منزل أو دار أو بيت أو خيمة . هذه هي :

آ - « المغاني » :

« المغاني » جمع ، مفردة « مغنى » ، و « المغنى » : المنزل الذي كان به أهله ، وقيل : المنزل الذي أقام به أهله ، أو الذي أقام به أهله ثم رحلوا^(١) . « والمغنى » مصدر واسم مكان من الفعل الثلاثي « غنّـي » بمعنى [أقام] . قال الراغب : غني في مكان كذا ، إذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره^(٢) . وتأتي « غني » بمعنى [عاش] [نقله الجوهري] ، وبمعنى (بقي) : غنيت لك مني مودة = بقيت ؛ وبمعنى (كان) ، إذ يقال لشيء إذا فني : كأن لم يغنْ بالأمس ، أي كأن لم يكن . وغنيت المرأة

١ - لسان العرب ، ج ١ ، XIX ، ص ٣٧٢ وما بعد ؛ تاج العروس ،

ج ١ ، X ، ص ٢٧١ وما بعد .

٢ - انظر هناك أيضاً .

زوجها غُثَيَانًا وغَنَاءً ، أي استغنت به عن غيره . ومنه اشتقاق الغاية .
وأغن عني شرك : اكفيني شرك .

ب - « الربوع » :

« الربوع » جمع ، مفردة « ربع » ، « والربع » المنزل ودار
الاقامة والوطن . أي كان وبأي مكان كان . « ربع القوم » : محلاتهم ،
وجمه (أربع ، رباع ، ربوع ، أرباع) . يقال : أراد بيع رباعه ،
أي منازلها ، ومنها (الرباع) : الرجل الكثير شراء الرباع وهي المنازل .
« والربع والربوع » جماعة الناس . « والربع » مشتقة من « ربـعـ »
بالـكان يربع ربعا إذا اطمأن وأقام ، والاصل « ربع » : أقام في الريع ،
ثم أطلقت على كل إقامة ، وكل وقت حتى سمي كل منزل « ربعا » ،
وإن كان ذلك مختصا في الاصل بالريع . « والربعة » أخص من « الربع » :
(وهي قسم من المنزل تشبه « المنزل »)^(١) .

العناصر التقليدية :

في التوجه إلى المعاني و الربوع كما عند الشعراء الجاهليين ، كذلك
عند معظم الشعراء في المراحل اللاحقة ، نمتز على نفس تلك العناصر
التقليدية التي أشرنا إليها سابقا . فأما كن السكن الواسعة - نسبيا - مقفرة ،
معفاة ، والربع « ... قفر كأنه لم يله في ساحته سامر » ؛ قد ألبس

١ - لسان العرب ، ج . IX ، ص ، ٤٥٥ ؛ تاج العروس ، ج .

V ، ص ، ٣٣٧ .

ثوب البلى ، حتى إن علاماته أو آثاره خلقة بالية بعد أن كان قبل
الكارثة التي حلت به : « يعجب من بهجته الناظر » (١) .

إن هذه المغاني والربوع خالية من الالهل ، ومسكن الوحش
والطيور ، وملعب الرياح ، ومدعاة للبكاء وهي أحق بقلب الشاعر « وإن
هجن لوعة وزفيراً » (٢) .

لم يبق من هذه الربوع غير الأثافي (حجارة القدر) الثلاثة
المتهتمة التي تشبه ثلاث حمامات سود متلاصقة بالأرض ، بلا حركة ولا
حراك ، ولا شيء يخبر عن العيش الجميل في الربع البهيج البديع
- فيما مضى - ، حيث « الحي الحلول بساوة » عاشوا فيه بنعيم ورخاء (٣) .
« إن قشيب ربهم دريس » ، « حبس على البلى » ، فحبس الشاعر
دمعه ، وغدت « ربوع الربع موحشات » ، بعد أن كانت مألوفة ،
مأنوسة ، إذ حقق الفراق مراده في الربع الذي ارتحل مكانه ، فلا يلام
الشاعر في الوقوف ، لأنه يسأل الربع عن خيرهم . لم يدم في الربع
العيش المرفه السابق بل إن الرياح في هبوبها السريع قد أثرت على هذه
الربوع فغيرتها « هرمت بعدي » : « إن ربع موسم الذات قد غالته

١ - المنازل ، ص ١٣٩ ، شعر حفص .

٢ - المنازل ، ص ١٠٦ - ١٠٨ شعر مهيار .

٣ - المنازل ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، شعر ذي الرمة
والبحتري .

النوى فغدا للصباية موسماً» (١) .

« المغاني » و « الربوع » عند الشعراء العرب واسطة البكاء على الأوطان والأهل . وتذكر هؤلاء الأهل ، وهذه الأوطان يقود بدوره إلى تذكر الحياة الماضية السعيدة ، وبصور الوضع المؤلم المر الحالي : « أشجاك الربيع أم قدمه ؟ » (٢) .

ويستفهم الشاعر عن سبب حزن صاحبه : « أشجاك الربيع أقوى والديار ؟ » (٣) . وبمنظرة ألم وحزن أفهمته المغاني كل شيء : العز الغابر والحاضر المرير . وبلوعة مريرة لفقد جماعته من إخوانه يدعو بالمرض والسقم لكل عين تنظر الديار :

« أي عين أصابت الدار أقذى الله بعدي أجفانها وأضرا » .

وبكاء المغاني ليس بغريب على الشاعر ، إنما الغريب أن يعيوا عليه ووفاه لمن يحب ، فشكل عاشق يبكي عندما يطالع معنى أحبه :

« كأنني أول عاشق طالعه معنى الأحبة فارفضت مدامعه ؟ » (٤)

والربوع والمغاني لا ترد جواباً إذ :

١ - المنازل ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٥٣ شعر أبي تمام .

٢ - المنازل . ص ١٤٦ ، شعر طرفة .

٣ - المنازل ، ص ١٣٨ ، شعر الفند .

٤ - المنازل ، ص ١٠٦ - ١٠٨ ، شعر مهيار .

لو أن ربعاً راجع القول قبله لرد السلام ربعٌ سعدى وسلماً (١)

والرياح الشديدة الهائجة تعصف في هذه الربوع والمغاني - دورياً - :
رياح تنثر الرمال فتلبس الربع ثوباً أبيض قشياً ، وأخرى تذرّي تلك
الرمال ، فتسجل عنه هذا الثوب القشيب .

من الضروري أن نشير إلى أن « الربع » و « المغنى » عند
الشعراء العذريين مقرونان باسم المحبوبة (ربع عزة ، مغنى بشينيه) .
وإن كان جميل (٢) قد عبر في أبياته عن ذلك بصورة غير مباشرة ، إذ
إن الربع الذي كان يسكنه لم يعد يزار « وكيف يزار الربع قد بان
عامره » ، « أتصرم هذا الربع أم أنت زائرته : ففي نفظة [هذا]
تحديد للربع ، فان كثيراً (١) يحدد هذا مباشرة إذ يقول :

خليليّ هذا ربع عزّة فاعقلا قلو صيكم ، ثم ابكيما حيث حلّت

وخلو الربع من عزة كان المحرك لأحزان كثير وبكائه ، ومن
العجب اضطرب قلبه على الفراق الذي لا يرجى بعده لقاء ، إذ إنه كالمرتجي
ظل الغمامة ، كما أراد الهدوء تحتها زالت وانتشعت ، أو كسحابة رجاها
المحلى أن تسقط عليه لكنها لما جاوزته أمطرت .

١ - المنازل ، ص ١٥٣ ، شعر نصيب .

٢ - المنازل ، ص ١٤٦ ، شعر جميل .

٣ - المنازل ، ص ١٤٧ ، شعر كثير .

أما عند ابن أبي ربيعة فإن الربع والمغنى مرتبطان لا باسم امرأة محددة ، بل « بربيع الحلي » ، - حيث عاشت عدة نساء ، كان قد تنزل بهن .

عناصر التجديد :

إلى جانب العناصر التقليدية هذه ، وبصورة خاصة بعد ظهور الاسلام ، يلاحظ تجديد واضح في معالجة وتناول المغاني و الربوع . إذ نعتز على التناول الادبي - الشعري الجديد للربيع عند قبيصة المهلي^(١) : إنه يصف ربوع مدينة حضرية (واقعة في الرصافة والكرخ ببغداد) ، لا أماكن تقليدية منتشرة في الصحراء القاحلة ؛ القوى المؤثرة [الرياح] ليست عاصفة ، מזرية للرمال ، إنما هيئة لينة ، ناعمة لطيفة الهبوب ؛ لم يصور نؤيها وأثافيها وأطلالها المافية ، بل صورها تعبق بالروائح الطيبة ، وتنفج فيها الزهور فهي كالدار أيام الربيع :

إِذَا مَا كَسَاهُنَّ الرِّبْعُ رِيَاطُهُ تَأْرَجُنَّ مَسْكًا أَوْ تَضِلَّ حَكْنُ عَنْ دَرٍّ

وإذا كان الشعراء غير قادرين على التحكم بدموعهم عند رؤيتهم بقايا الربوع المافية فإن هذا البكاء عند البحترى إرادي حسب مشيئته ، إنه طريقة مصطنعة :

إِذَا شِئْتُ أَجَرْتُ أَدْمَعِي مِنْ شَتُونِهَا رُبُوعٌ لَهَا بِالْأَبْرَقِينَ وَأَرْسَمُ

١ - المنازل ، ص ١٤٠ ؛ المخطوطة ، ٨١ ب .

ويدعو المطر للسقوط في المحل رغم إقواء « مغانيه » ، ويوحى لنا
 إيجاء بجز الماضي ، حيث ان « الايام » الحاليه « والايالي » ، « يضحكن »
 نيابة عن أيامه ولياليه الماضية ، وهذا كناية عن فرحة المغنى الماضية .
 لقد تغيرت عند البحري صفات المحبوبة المناجاة فغدت - تحت تأثير تجديد
 العصر [غانية] ، وهذه صورة من صور التجديد عند الشاعر .
 والمغاني عنده لم تعف من الامل والافراء ، كما إنه لا يحن إلى هؤلاء ،
 بن إلى [الغواني] ، اللواتي كن في هذه الديار ، حتى إن المطر الذي
 لا يشعر بالالم والعذاب يبكي على هذه الغواني « وإن كان خلياً » من كل
 ما يعانيه الاحبة . جاء الغيث بنفسه على هذه المغاني فأكسبها « حللاً حمة
 الالوان » (١) . والمغاني لم تقو لرحيل أهلها فقط ، إنما أقوت لعدم وجود
 الشاعر فيها أيضاً : « شهدت لقد أقوت مغانيكم بمدي » ، ويخص
 الشاعر السقيم بالسلام والتحية دون الاطلال [اطلال المغاني] التي لا يتركها
 في وجدته وبكائه :

« فعمليه السلام لا أشرك الاطلال في لوعتي ولا في نحيبي » ويصرح
 أنه ليس ممن يقف على الاطلال ، وسواء عنده أن يحيب من غير أن يدعى
 أو يدعو من لا يحيب :

« فسواء إجابتي غير داعٍ ودعائي بالقفر غير مجيب (٢) »

١ - المنازل ، ص ١٠٠ ، ١٤٠ ، ١٤٦ ، ١٤٥ ؛ ديوان البحري ،

ح ١١ ، ص ٣٢١ ، ٢٨٥ .

٢ - المنازل ، ص ١٠٣ ؛ ديوان أبي تمام ، ح ١ ، ص ١٢٢ .

من عادة الشعراء العرب الدعاء بالسقيا لدار الاحبة ، أما المتنبي فانه يدعو على الربوع بالعطش ، ويسأل المطر إن لم يعطشها فعليه أن يسقيها سماً قاتلاً ، ويدعو على كل ما فيها عدا ما كان له فيها من « زمن الانس ووصف الخود » . وليست المغاني عند الشاعر بقايا مساكن القوم الذين رحلوا ، إنما هي أماكن الإقامة المسكونة ، التي لم يرحل أهلها ، إذ إن « مغاني الشعب أطيب المغاني » ، وهي بالنسبة للأرض المحيطة بها « بمنزلة الربيع من الزمان » نضرة ، خضراء . إنها مغاني عامرة ، تغني فيها « الحماهم الورق » وتردد أصداء غناها « القيان » الحسنات الجميلات (١).

التناول الأدبي الشعري الجديد لموضوع « المغاني والربوع » نـمـثـر عليه أيضاً عند المعري . فالمغني عنده لم يقتصر على المعنى التقليدي فقط ، إنما هناك « مغني من خيال » الحبيبة « محلال » . إن هذا نوع من التعبير والاستخدام الجديدين ، وفيه كناية عن التفكير الدائم بالمحبة . والمعري من خلال حنينه لحبيته (المزعومة) ، وهم مقيم في بغداد - دار السلام ، يحن إلى وطنه - مسقط رأسه المعرة - . فان فارق بغداد وأهلها ، ورحل ، وإن اشتاقوا إليه ، وسألوا عنه فليس عنده سؤال عنهم ، ولا شوق إليهم ، لأن شوقه كله منصب نحو أهله ووطنه ، لا يعدل بهم غيرهم :

متى سألت بغدادُ عني وأهلها فاني عن أهل العواصم سال

شوقه لأهله ووطنه لا يفارقه ليل نهار ، يكابد ، ويعاني منه

١ - المنازل ، ص ١٠٥ ؛ ديوان المتنبي ، ج ٢ ، ص ٤٨١ .

دائماً ، فماء بلاده أفضل من ماء دجلة ، وأنفع وأمرأ ، وإن كان ماء دجله صافياً عذباً لذيذاً :

وماء بلادي كان أنجع مشرباً ولو أن ماء الكرخ صهباءُ جريالُ

ويتناول الربوع بتحديد لم يسبق إليه ، إذ بمخاطبته حبيته يصرح بأن الواجب يقضي عليه بتحية ربعها ، لكنه لا يحويه هذه المرة تحية تقليدية بالدعاء والسقيا ، بل كما يحوي الملوك (ملوك العجم والعرب) . يعظم الربع ويكبره كتعظيمه ركن الكعبة والحجر .

«أقرُّ ربع كنتُ فيه كأنما أمرُّ من الاجلالِ بالحجروالركن» (١)

في بقايا الربوع تعيش الضباع :

«ورباعٌ كانت عرين أسود أصبحت للضباع مأوى ومنغنى» (٢)

إن هذه الصورة إنما تحمل شيئاً جديداً بالنسبة للعلاقة مع الربع ، ذلك لأنه لا يعثر على الضباع في الحالات المشابهة عند الشعراء الآخرين .

١ - المنازل ، ص ١٥١ ، ١٤٣ ، ١٠٥ ؛ سقط الزند ، ح . II ،

ص ١٣٩ ، ٦٠ ؛ ح . I ، ص ٢٦٠ .

٢ - المنازل ، ص ١٤٩ ؛ شعر المرتضى .

٣ - بقايا أماكن السكن

المعاني اللغوية :

أ - « الطلل » : ما شخص من آثار الديار بخلاف « الرسم » :
ما كان لاصقاً بالأرض ، و « طلل » كل شيء شخصه ، جمعها « أطلال
وطلول » . وقيل : « طلل الدار » موضع من صحنها يهيا لمجلس أهلها
كالدكانة يجلس عليها (دكانة : معطبة) ، عليه المشرب والمأكـل . ويقال :
طالك وأطالاك : أي : دكانة شخص من جسدك . وطالك وطالأك : أي
شخصك ، وأطلال السفينة : أشروعها^(١) .

ب - « الدمن » جمع مفردة « دمنه » . « والدمنه » : آثار
الدار والناس ، وما سودوا من آثار البقر وغيره ، و « الدمن » : البعر
أو الزبل المتلبد، ومنه دمنت الماشية المكان تدميناً : بعرت فيه وبالت
فهو متدمن . ودمن القوم الموضع : سودوه وأثروا فيه بالبعـر ، قال ذو
الرمة :

منزلُ دمنَه آباؤنا الـ مورثون المجد في أولى الليالي

ومثلها « الدمان » بمعنى الرماد أو الزبل أو عفن النحلة وموادها

١ - لسان العرب ، ج XII ، ص ٤٣ ؛ تاج العروس ، ج VII ،

« والدمنة » أيضاً : الموضع القريب من الدار . قال الرسول : « إياكم وخضراء الدمن » أي المرأة الحسناء في منبت الصوء . وقال زفر بن الحارث :

وقد ينبت المرعى على دَمِنٍ الشَّرى وتبقى حزازات النفوس كماهي

ومن الجواز « الدمنة » : الحقد القديم الثابت المدمن للصدر ، وقيل : لا يكون الحقد « دمنة » حتى آتي عليه دهر ؛ ومنه « دمن عليه » : حقد .

ومن الجواز أيضاً : دمن فلان المكان تدميناً ، إذا غشيه ولزمه . قال كعب بن زهير :

أرعى الأمانه لا أخونُ ولا أرى أبداً أَدَمِّنُ عَرَصَةَ الدار
ومنها « مدمن الحجرة » : شاربها وملازمها (١) .

ج - « الأثر » : هو بقية الشيء ، أو ما بقي من رسم الشيء ، وجمعها « آثار وأثور » . « آثار المنزل » : بقاياه ، « والآثار » : الأعلام يستدل بها . ومنها « أثر السيف » : ضربته ؛ « وأثر الجرح » : ما يبقى بعد برئه . « أثر » في الشيء ، أي ترك فيه أثراً ، ومنه الأثره من الدواب : أي العظيمة الأثر في الأرض بخفها . وتأتي « الأثر » بمعنى الاجل ، الموت ، ذلك لأنه يتبع العمر . قال زهير :

١ - لسان العرب ، ح . 11 ، ص ١٤ ؛ تلج المروس ، ح I ،

والمرءُ ما عاش محدود به أمل لا ينتهي العمر حتى ينتهي الاثرُ

وأصله من « أثر » مشيه في الارض ، فاذا مات لا يبقى له أثر ولا يرى لاقدامه ذلك الاثر . « والاثَرُ » : سمة في باطن خف البعير يفتقر بها أثره ، وجمعها « أثور » . « والاثَرُ » : بمعنى الخبر ، جمعها « آثار » . ومنها « الآثر » : الخبر ، وهي اسم فاعل من الفعل أثر الحديث عنه أي أخبر . « وقول مأثور » أي يخبر الناس به بعضهم بعضاً وينقلونه وهو اسم فاعل من الفعل المذكور . ومنه « المأثرة » : المكربة ذلك لأنهم يأتونها أي يتحدثون بها . « وأثرة العلم » : بقية منه تؤثر أي تروى وربما تفضل (١) .

د - « الرسم » : هو الاثر ، وقيل : بقيته أو مالمصق بالارض منه ، « رسم الدار » : ما كان من آثارها لاصقاً بالأرض ، وجمعها « أرسم ورسوم » ، وفعلها « رسم » . رسم الغيت الدار : عفاها وأبقى فيها اثرأ لاصقاً بالأرض ، « ورسم في الأرض » غاب فيها ، ويكنى بها عن الموت ، ورسم على كذا : بمعنى كتب . « ترسم الرسم » : نظر إليه بتمعن ، « وترسم » : نظر إلى رسوم الدار بتأمل « تفرس » . قال ذو الرمة :

أَنْ ترسَمْتِ من خرقاءَ منزلةً ماءُ الصبابةِ من عينيك . سَسْجُوم

١ - لسان العرب « > V ، ص ٦٠ : تاج العروس ، العروس ، ح .

ومن المجاز : « ترسم » القصيدة : أي تبصرها ودرسها وتذكرها ،
ومنها : ثوب مرسوم : أي مخطط بخطوط خفيفة ، وناقة رسوم : تؤثر في
الأرض من شدة الوطاء . وبظهور الاسلام اكتسب الأصل معنى إضافياً ،
فارتسم الرجل : « أي كبر ودعا وتعوذ » . والارتسام : التكبير والتعوذ ،
« ورسوم الدين » : طرائقه التي تبقى ، « ورسوم الخلافة » : عاداتها
التي توارثت (١) .

هـ - وهناك مصطلحات أخرى منها : المعهد ، جمعها « معاهد » .
و « المعهد » اسم مكان من الفعل « عهد » الشيء عهداً بمعنى عرف ،
والمعهد : هو الموضع كنت عهده أو عهدت هوى لك فيه أو شيئاً ، وأيضاً
المنزل الذي لا يزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه . ومنه المعهد :
القديم المتيق الذي مر عليه العهد (٢) .

- « علم » : « أعلام » ؛ « معلم » : « معالم » . علم الشيء علماً :
أي وسمه . يقال لما يبنى على الطريق من المنازل يستدل بها على الطريق ؛
و « المعلم » ما جعل علامة وعلماً للطرق والحدود مثل أعلام الحرم ومعالمه
المضروبة عليه . وقيل : المعلم : الأثر ، والعلم : المنارة .

قال ابن سيدة : العلامة والعلم : الفصل يكون بين الأرضين ؛

١ - لسان العرب ، ج ٧ ، ص ١٣٢ ؛ تاج العروس ، ج ٨ ، VIII ،
ص ٣١٢ .

٢ - لسان العرب ، ج ٨ ، IV ، ص ٣٠٥ ؛ تاج العروس ، ج ٨ ، II ،
ص ٤٤٢ .

والعلامة والعلم : شيء ينصب في القلوات تهتدي به الضالة ؛ والعلم :
العلامة . ومعلم الطريق : علامته . ومن المجاز : أعلام القوم =
ساداتهم (١) .

- عَرَصَة الدار : ومسطها ، وقيل : وهو ما لانباء فيه . سميت
بذلك لاعتراض الصبيان فيها ، أي لنشاطهم فيها . « والعروة » : كل
بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء ، وجمعها عراض وعرصات (٢) .

لا بد من الإشارة إلى أن أشعار الاطلال في فصلي الأطلال في
كتاب أسامة إنما مختاطة مع أشعار الرسوم ، والأعلام ، والآثار ؛ وفي
الواقع فإنه في الاستعمال المعنوي المحدد الدقيق لا يمتز إلا على اختلاف
بسيط بين هذه المصطلحات .

إن أماكن وقوف البدو تتغير بعد خروج سكانها ، وتبقى منها
فقط الآثار ، والرسوم ، والأعلام والأطلال ، ولهذا فمن الصعوبة بمكان
التعرف على أماكن الديار المهجورة . والشاعر وهو لا يتمكن من التعرف
على أماكن الديار يسأل : لمن طلل بندي خيم قديم؟ (٣) .

١ - لسان العرب ، > ٧ ، باب «عَلَمَ» ؛ تاج العروس ، > VIII ،
ص ٣١٢ .

٢ - لسان العرب ، > VIII ، ص ٣١٩ ؛ تاج العروس ، > VI ،
ص ٤٠٥ .

٣ - المنازل ، ص ١١٢ ، شعر طفيل .

لمن دمنةٌ أقفرت بالجَنابِ إلى السَّفْحِ بَيْنَ المَلَا فالحِضَابِ (١)

وإن تعرف عليها فأنما بجهد وتوهم ، فلم تعد تعرف (الأطلال إلا توها) ، وهل يمكن أن تعرف أطلال ونؤي (كخطك فيرقِ كتاباً منمناً) (٢) .
ويتذكر الشاعر جيداً مكان أماكن السكن المهجورة ، وبالتالي ، فعلى هذا المكان لا بد وأن تكون « بقايا الخيمة ، والمعالم ، حتى والرسوم الدوارس » .
لكنه بوقوفه هناك وبسؤاله لا يتمكن من العثور عليها ، وإن قدر له التعرف على هذه الاطلال فلن يكون ذلك إلا بمساعدة ضوء الشمس الساطع في وضح النهار . والسكان القاطنون بعد خروجهم ورحيلهم عن ديارهم إنما يتركون وراءهم « الرسوم الدوارس » ، حيث يقف الشاعر عندها مندهشاً سائلاً : « من طلل برامة عفا ؟ » . « أمن آل سلمى عرفت الطلولا ؟ ! » (٣) .

الرياح والأمطار والزمن قد غيرت الديار وأبقت منها فقط الأطلال ،
وبدلت الحياة السعيدة الهنيئة السارة بالآلام والحسرات والمذاب . والمصائب
غيرت « الرسوم الدوارس » .

وتتابعت الرياح والأمطار الواحدة تلو الأخرى على الديار ففنتها :
« عفت الجنوب مع الشمال رسومها » .

١ - المنازل ، ص ١٧٣ ، شعر لقيط بن زرارة .

٢ - المنازل ، ص ١١٢ ، شعر حاتم الطائي .

٣ - المنازل ، ١٢٣ ، ١٢٨ ؛ شرح ديوان زهير ، ص ٢٠٦ ، ١٩٣ .

وغدت الدمنة قفراً بعد أن كانت « محلة محلاً » . إنه الدهر :
« بديل الابدال » . « وآثار الاجبة بلين » ، وبقيت الهموم عليها في صدر
الشاعر ، ويناجي الشاعر الربيع :

« محوت آثارنا » وتركت « آثاراً برقع الحبيب لم تكن »^(١) .

بقايا هذه الاطلال : [علامات خفيفة كوشى على ثوب يمانى
مزرکش] ، « هاج الفؤاد معارف الرسم قفراً كالوشم » .

أو « كخطك في رقٍ كتاباً منمنماً » ، أو « يلوح كأن بقيه
وشوم » ، أو [ككف فتاة أعيد صنع الوشم فيها أكثر من مرة لعدم
وضوحه] ، أو [كجلد رقيق يكتب عليه فتبقى آثار الكتابة غامضة] ،
(والربيع غدت آثاره كترقيش الأفاعي) ، (والطلل البالي غدت فيه
مرابط الخيل المهمة كأنها التراب القليل الذي تخرجه النمل من بيوتها) ،
(وأطلال مية قد غدت كالرقش في الثياب^(٢)) استمرت الرياح العاصفة
في هذه الرسوم حتى عفتها ، ولم تترك إلا كل صلب قاس من الحجارة
- (الاثافي الثلاثة - التي تبدو وكأنها حمامات متقابلة متوثبة للماركة)^(٣) .

١ - المنازل ، ص ١٢٢ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٩٢ ، ١٨٦ ، ١٨٥ ،
١٧٥ وغيرها . أشعار^٢ ، طفيل ، النابغة ، بشر ، جرير ،
علي السكاتب وغيرهم .

٢ - المنازل ، ص ١١٨ ، ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٢٣ ، ١١٤ ، ١٢٩ ،
١٧٨ ؛ أشعار طرفة الطائي ، زهير ، ذي الرمة ، أبي نواس .

٣ - المنازل ، ص ١٧٨ شعر الصمة القشيري .

لقد عفت الرسوم رغم بشاشتها فغدت وكأنها (سطور كتاب) :

أرسوم دار أم سطور كتاب درست بشاشتها مع الأحقاب؟ (١)

وشبه المتنبي دهمتي (ريثا) في الصحراء بخالين في خد فتاة ،
والطلول في العراص الداكنة بالنجوم في الليلة الظلماء ، إنها الدمن التي
تكاثرت الهموم على الشاعر في عرصاتها كتكاثر اللوام :

قِفْ عَلَى الدَّمْنَتَيْنِ بِالْدَّوِّ مِنْ رِيَا كَخَالٍ فِي وَجْنَةٍ جَنْبَ خَالٍ
بَطْلُولٍ كَأَنْهُنَّ نَجُومٌ فِي عَرَاصٍ كَأَنْهُنَّ لِيَالِي

وقال :

ذِكْرُ الصَّبِيِّ وَمَرَابِعُ الْأَرَامِ جَلَبَتْ حِمَامِي قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِي
دِمْنٌ تَكَاثَرَتِ الهمومُ عَلَيَّ فِي عَرَصَاتِهَا كَتَكَاثَرِ اللُّوَامِ (٢)

إن الشعراء يكون هذه البقايا والاطلال دموعاً غزيرة مدرارة ،
رغم يقينهم بعدم جدوى البكاء :

يَا أَبَى الْخَلِيِّ بَكَاءُ الْمَنْزِلِ الْخَالِي ، وَالنُّوحُ فِي أَرْسَمِ أَقْوَتِ وَأَطْلَالِ (٣)

١ - المنازل ، ص ١٧٧ ، شعر البحتري .

٢ - المنازل ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، شعر المتنبي . [ذكر: جمع ذكرى] .

٣ - المنازل ، ص ١١٣ ، شعر البحتري .

ورغم أن الوقوف على الرسم لا يعني [لو أغنى الوقوف على
الرسم !!] فإن الشاعر يقف ويكيي الرسوم والديار « بكاءً على الأسى » ،
« بكيت فما أبقيت للرسم من رسم » ، إنها الديار الحزينة مثله لفقد
أهلها ، كلاهما ناحل سقيم ، سقاها المطر ، لكنها لم تزهر إلا عندما
سقاها هو دموعه :

هو الرسمُ لو أغنى الوقوفُ على الرسم
هو الحزمُ لولا بُعدُ عهدكِ بالحزمِ
عشية جُنَّ القلبُ فيها جنونه
ونازعني شوقي منازعةً الخصمِ
فلمّا أبى إلا البكاءَ على الأسى بكيتُ فما أبقيتُ للرسمِ من رسمِ
سقاها الحيا قبلي فلما سقيتها
دموعي رأتُ فضل الولي على الوسمِ (١)

إن هذه البقايا [الآثار والاطلال والرسوم] بكاءً ، تكون
واسطة إيقاظ الشوق والحنين ، والحزن والام والحسرة . ويدعو لها
الشعراء - كالمادة - بالسقيا والمطر ، وأحياناً ، « بالسلام والخلاص » (٢) .

١ - المنازل ، ص ١٧٧ ، شعر ابن الخياط .

٢ - المنازل ص ١١٩ ، شعر عمارة بن بلال .

من الضروري أن نشير إلى أن الاطلال والدمن والرسوم والآثار
المقفرة ، المقفرة ، التي درستها الرياح والأمطار المتقادمة تبقى دوماً - كما
كانت المنازل والديار - مبعثاً للشوق ، ومهيّجاً للمحبة ، ومصدرراً للذكرى
عند الشعراء المذريين .

فكل من جميل وكثير يكثر من استعمال ألفاظ [تهييج ، اشتاق ،
تذكر] : [فالمعارف والطلول] اللواتي [عفون وخف منهن الجمول]
قد (أشاقت) جميلاً (وذكرته دنيا قد تولت) ، ولكن سؤال هذه
الطلول لا يجدي أحياناً أخرى إذ :

[كيف سؤال خيماتٍ بوالٍ ونؤي عهداً أحدثه مَحِيل؟! (١)]

وكذلك الامر عند كثير (لعزة اطلال تهييج مغانيها الطروب) ،
(أهاجك من سمدي طول) ، (طلل أقوى من الحي) ، (تهييج)
المنازل (أحزان الطروب) ، وإذا ما سأل عن سمدي فإن (سمائم أو
اطلال دارٍ موائل) (يهيجنه لذكرها) ، تلك الاطلال التي أضرت
بها (الأنواء والرياح والندى) وغير مغناها تناقب الايام (٢) .

وكذا الحال - في هذا المجال - عند الشعراء العمريين [فالاطلال]
المقفرة التي [تعفت] حتى [رسومها] - وهناك تفريق بين الطلل

١ - المنازل ص ١١١ ، ١٢٦ . شعر جميل .

٢ - المنازل . انظر . أشعار كثير وجميل في فصلي « الاطلال » ،
والرسوم .

والرسم - ، والتي غدت مع تعاقب الايام وكأنها وشم خافت في كف الفتاة قد [هاجت الذكرى والشوق] للعجبية عند عمر بن أبي ربيعة^(١).
وعلاوة على تلك النغمات والعناصر التقليدية في التوجه إلى أماكن السكن ، وفي استعمال هذه المصطلحات الدالة على بقايا الدار يمكن العثور على عناصر أخرى جديدة .

يورد أسامة من أشعار ذي الرمة ثمانية مقاطع [٤٢ بيتاً] ، فيها وصف للطبيعة والصحراء البدويتين . ولا عجب في هذا وذو الرمة الشاعر الذي برز في وصف الطبيعة الصحراوية خاصة ، حيث نشأ في الصحراء . ثم نزل في البصرة والكوفة ، فتلقن ما كان فيها من ثقافات ، وبقي رغم ذلك شغوفاً بصحرائه القديمة ، يرحل إليها ، ليتأملها ويصور جمالها وسحرها تصوير الهائم المفتون ، وبهذا الهيام دبج لوحات رائعة لصحرائه ، محملاً شعره في كثير من جوانبه رؤى وأحلاماً بهيجة . إن هذا الاكثار في وصف الاطلال والدمن كان في أي الفرزدق سبباً في عدم ذكر ذي الرمة في طبفة الفحول^(٢). تغنى بصديقه (مي) فكثير ورود اسمها في هذه المقطوعات ، وارتبط بالاطلال والرسوم والآثار . وهو

-
- ١ - المنازل ص ١٢١ ، ١٣٢ ، انظر . أشعار عمر بن أبي ربيعة .
 - ٢ - انظر . ابن قتيبة ، طبقات ، ص ، ٣٣٣ . (جاء الفرزدق فوقف عليه (على ذي الرمة) فقال له : كيف ترى ما تسمع (من شعر ذي الرمة) يا أبا فراس . قال : ما أحسن ما تقول . فقال : ما بالي لا أذكر مع الفحول ؟ . قال : قصر بك عن غاياتهم بكائك في الدمن والاطلال، وصفتك للمطن والابعار) .

بأستخدامه طرائق جديدة في المعاملة - معاملة هذه البقايا - إنما يعطينا لوحة فنية حية عن بقايا ديار البدوي - المسلم . يدعو إلى التسليم (على الطلل) البالي : « عليك يا أطلال مي سلام » ، رغم حداثة عهده مع إيمانه بأن الربع الذي غدت آثاره كترقيش الافاعي لن يرد على التسليم ، كما أن الطلل صامت لا يجيب . ويدعو خليليه إلى المرور على (الطلل) البالي الذي غدت فيه مرابط الخيل المتهمة وكأنها شبيهه بالتراب القليل الذي تخرجه أنمال حول بيوتها .

الصورة الحية الكاملة لبيوت وأطلال وبقايا البدوي الاسلاميـة يعطيها ذو الرمة بلهجات جديدة في التناول والوصف : طاب من صاحبه أن يقف في (أطلال مية) ليسأل الرسوم الخارقة ، دموعاً لا ألفاظاً : فلم ير إلا الدمن التي هاجت شوقه ، إذ لم تبق إلا مرابط الدواب (وجوانب المسجد) ومناصب القدر ، التي هي رواجل للمرجل ، والريح الحارة تجر فيها التراب الرقيق كأنها تسكبه من ثقب المنخل .

وتعرف بصعوبه على (أطلال ميه) التي غدت كالرقش في الثياب ، فعليه الهوى ، وتذكر ، وهل له عذر في التصابي ؟! لم يجد عذراً « بعد عشرين حجة ، مضت لي وعشر قد مضين إلى عشر » ، فكان ذلك ميباً لاخفائه شوقه عن رفيقة ذي العقل الراجـح ، لكن لا حول بذلك ، فالدار هيجهته رغم أنه يخادع قلبه بالنسيان . وعندما يذكر « يتكلف النسيان ويتظاهر بالسوان » (١) .

والدموع والامطار قد سقت « الاطلال والدمن وأرسوم » ،
وغطتها بالاعشاب الخضراء الجميلة ، وبالأزهار المتفتحة المطرة^(١). ولم يتوان
أبو نواس - وهو الذي وقف ضد التقليد والمطالع الغزلية والأطلال - عن
استعماله لتعايره المتصنعة بوخز الاطلال والتهكم عليها : « لمن طلل عافي
الحل دقيق ؟! » .

« لمن طلل لم أشجبه وشجاني وهاج الصبى أوهاجه لأوان؟ » (٢)

وعبر أحياناً أخرى بوخز شديد - وهو في معرض التأسف
عليها - إذ شك في معرفة الرسم الذي لغرابته تتأذى منه العين ويلفظه
الوهم :

ألا لأرى مثلي امترى اليوم في رسم تَغَصُّ به عيني، ويلفظه وهمي (٣)

لكنه ، أحياناً يعود لمناجاة هذه الاطلال مناجاة لطيفة جديدة
بمناصر جديدة ، إذلاول مرة نسمع ان الدمن حسنة الرسوم ، وطية
النسيم ، كما أننا لأول مرة نرى ان الدمن لا تبلى ، وبقاؤها من سكانها
لبست ثوب النعم :

١ - المنازل ، ص ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ،
شعر يهس ، جرير ، ابن خباب ، أبي تمام .

٢ - المنازل ، ص ١١٤ ، ١٢٩ ، ديوان أبي نواس ص ٤٦٨ ، ٦٨ .

٣ - المنازل ، ص ١٧٦ : ديوان أبي نواس ، ص ٨٧ .

تجافى البلى عنهنّ حتى كأنها لبسنَ على الاقواء ثوبَ نعيم (١)

أما « الايادي » فانه يدعو إلى ترك الحنين والبكاء على هذا
الرسوم :

أَمِنْ رَسْمٍ تَحْفَى أَوْ رَمَادٍ وَسُحْمٍ كَالْحَمَامَاتِ الْفِرَادِ
أَطَاعَتِكَ الشُّوْنُ فَظَلَّتْ صَبّاً كَأَنَّ وَكِيفَهَا وَهْيُ الْمَزَادِ
وَهَلْ يَشْتَاقُ مِثْلُكَ فِي دِيَارٍ عَفَّتْهَا الرِّيحُ وَالْدَّيْمُ الْغَوَادِي
ذَكَرْتَ بِهَا سَعَادَ فُعِجْتُ جَهْلًا عَلَى رَسْمٍ تُسَائِلُ عَنْ سَعَادِ (٢)

لم ير الربيع مرة « على الاطلال » عند أبي تمام إلا وسقاها
أمطاراً كثيرة . والجديد عنده أنه - بعكس باقي الشعراء - يوضح آثار
فعل هذه الأمطار ؛ فهي في كل مرة تنهمر فوق الاطلال تغطيها بالاشجار
الكثيفة ، والازهار الكثيرة الفواحة (٣) .

بقايا آثار أماكن السكن

عند أسامة

لم يكن أسامة ، في استخدام الانعام الشعرية المرتبطة بقايا

١ - المنازل ، ص ١٦٨ ؛ ديوان أبي نواس ، ص ٤٤٧ .

٢ - المنازل ، ص ١٨٥ .

٣ - المنازل ، ص ١٨٢ .

أماكن السكن ، إلا مقلداً للشعراء الجاهليين ، بغض النظر عن كون حياته مرتبطة بأكبر مدن الشرق وقتها (حلب ، دمشق ، القاهرة وغيرها) . إن « الرسوم » التي أيقظت مشاعره وأهاجته فوقف عليها لم تكن حضرية بل بدوية : إغما [وقفت على رسم يبيداه بلقع] . بقايا أماكن السكن عنده « بكاء لا ترد على الدعوة » ، والرسم [صموت إذا دعي] ، لم تعرفه عينه إغما البلى أفهمها أنها دار الحاجة . ولا تستغربي من الدهر (اخلاق جدة وتشيت آلاف وإبحاش مجمع) ، إذ (الموت سكان الديار ، وللبلى منازلهم ، وشملهم للتصدع) .

فما على المرء إلا الصبر على هذه الفواجيع الاليمة لأنها سنة الكون^(١) . أما فيما تبقى من أشعار فان أسامة لم يذهب بعيداً عن هذا بل كان مقلداً .

لكن من الضروري أن نؤكد على التالي :

آ - « الآثار » عند أسامة لم تقتصر على معناها المادي فقط ، فقد ذكر بمعناها المعنوي إذ كي يؤكد رأيه يورد خبراً : بأن أرسطاطاليس كتب إلى الاسكندر كتاباً يوصيه فيه بمصالح ملكه ، ثم قال فيه : (اعلم أن الأيام تأتي على كل شيء ، فتخلق الافعال ، وتميت الذكر ، إلا مارسخ في القلوب بحجة تتوارثها الاعقاب ، فاجهد أن تظفر بالذكر الذي لا يموت ، بأن تودع الناس محبة يبقى بها ذكر مناقبك) . وكأن (الذكر) هو الجانب المعنوي (الآثار) . ثم يورد أبياتاً للمعري

يدعو فيها إلى ترك الآثار بوادي ملحوب ، إذ باتباع طريق المهدي يبقى
الذكر الحسن :

اتبع طريقاً للهدى لاجباً وخلّ آثاراً ملحوباً (١)

ب - إن الشعراء على امتداد جميع العصور لم يوردوا تغييرات
واضحة ملحوظة في استعمال مصطلحات (بقايا أماكن السكن) وفي التوجه
إليها ، رغم تطور الحياة الاجتماعية والحضارية . فقد كان تقليد الماضي
شائعاً في هذا المجال ، وصفة واضحة بارزة . ولقد نتج هذا برأينا - لأن
المطالع الغزلية للقصيدة إنما تعتبر عناصر تقليد أسامية في بناء القصيدة ،
وحافظت بذلك على هذا التقليد والنهج .

١ - المنازل ص ١٩٥ ديوان الازوميات ، I ، ص ١١٧ . [الاجب: الواضح] .

٤ - معنى الوطن الواسع

كما أشرنا سابقاً ، للدلالة على « أماكن السكن » في الشعر العربي قد استعملت عدة مصطلحات ، تعود بمعانيها إلى الحياة البدوية . وتوجد أيضاً مصطلحات أخرى تعني « أماكن السكن » ، لكنها توسع هذا المعنى حتى تصل إلى مفهوم الوطن ، وهذه هي :

آ - « المدينة » . « مدن بالمكان » : أقام فيه . فعل ممات ، ومنه « المدينة » ، وجمعها « مدائن » أو « مدُن » أو « مدن » وهو الأكثر استعمالاً . ومدن الرجل : إذا جاء المدينة . « والمدينة » : الحصن يبنى على مرتفع الأرض ، والنسبة له (مدائي) ، جمعها : مدائن . « والمدينة » : اسم مدينة بجانب الكعبة (مدينة الرسول) ، ويقال للرجل العالم بالأمر هو (ابن مدينتها) ، وللأمة : مدينة أي مملوكة ، وللعبد : مدين^(١) .

ب - « الوطن » : المنزل تقيم به وهو : موطن الانسان ومحله . جمعها « أوطان » وأوطان الغنم والبقر : مراتبها وأماكنها التي تأوي إليها ، كقول الاخطل :

كروا إلى حرثكم تغمرونها كما تكرر إلى أوطانها البقر

١ - لسان العرب ، > XVII ، ص ٢٨٨ ؛ تاج المروس ، > .

IX ، ص ٣٤٣ .

فعله (وَطَنَ بِالْمَكَانِ) (وَأَوْطَنَ) : أقام به واتخذ موطناً أو محلاً ومسكناً . وأوطنت الأرض ووطنها توطيئاً واستوطنتها أي اتخذتها وطناً ، وكذلك الاتطان . ومن المجاز : مواطن مكة : مواقعها . والوطن : المشهد من مشاهد الحرب . وواطنه على الأمر : أخضر فعله معه وواقفه ، ووطن نفسه على الشيء وله فتوطنت : حملها عليه فتحمته (١) أما في اللغة الحديثة فإن المعنى الاساسي للفظ (وطن) إنما يدل على المفهوم المصري الحديث الشامل .

ح - « البلدة والبلد » : كل موضع من الأرض عامر أو غير عامر ، خال أو مسكون . « والبلد » من الأرض ، ما كان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء . جمعها بلاد وبلدان . وقال بعضهم : « البلد » : جنس المكان كالعراق والشام ، « والبلدة » : الجزء المخصص منه كالبصرة ودمشق . « والبلد الحرام » : مكة والمدينة (معنى اسلامي) . « والبلدة » : الأرض أو الفلاة . « والبلد » : المقبرة من الفعل « بلد » بالمكان ، أي أقام به ولزمه . « والبلد » : الاثر ، جمعها أبلاد . قال القطامي : (في النحور كلوم ذات أبلاد) . وقيل للمتجبر متبلد لأنه شبه بالذي يتحير في فلاة من الأرض لا يهتدي فيها (٢) .

١ - لسان العرب ، ح XVII ، ص ٣٤٢ ، تاج العروس ، ح IX

ص ٣٦٢ .

٢ - لسان العرب ، ح IV ، ص ٦٢ ؛ تاج العروس ، ح II ، ص

٣٠٥ - ٣٠٦ .

د - « الأرض » : التي عليها الناس - مؤنثه وهي اسم جنس تأتي بمعنى الموضع والمكان نادراً . والأرض : سفلة البعير والدابة ومأوى الأرض منه . وأرض الإنسان : ركبتهما فما بعدهما ، وأرض النمل : ما أصاب الأرض منها . فعلها « تأرض » بمعنى ثبت ، وقيل : التأرض : التأنى والانتظار (١) .

إن حياة التنقل والترحال عند العرب - البدو ، وعدم الاستقرار ، وضرورة الانتقال من مكان إلى آخر سعيًا وراء الكسب والمرعى - كل هذا ينعكس في الشعر الجاهلي . ولهذا فإن مفهوم «الوطن» منذ الجاهلية كان مرتبطاً بظروف الحياة المادية : الحياة في مكان ما تستمر ، طالما أن هذا المكان يؤمن للشخص حفظ كرامته ، وحياة هنيئة سعيدة ؛ أما إذا لم تكن الظروف تناسب هذا وإن نبهت المقام ، فعلى الشخص أن يبدعه ، وينتقل إلى مكان آخر جديد إلى الوطن الجديد الذي يؤمن الحاجات فيه . وبغض النظر عن هذا ، فإن الإنسان (البدوي) بحياته الجديدة في مكان آخر جديد - [وطن] ، يحن إلى « الوطن القديم » . إن زامل بن عفير الذي غادر وطنه مكرهاً إلى الشام ، والتقى به الحارث الغساني الأكبر ، وأكرم مثواه ، حن إلى وطنه الأول ، إلى مواطن طي في الحجاز . ورغم نزوله عند الحارث ذي الجند والمكرمات الواسع الشهرة والمالك ، رغم نزوله بمثوى كريم ناعم البال بقي وطنه الحجاز يجتذبه :

١ - لسان العرب ، ج ٨ ، VIII ، ص ٣٧٩ ، تاج المروس ، ج ١ .

٧ ، ص ٣ .

غير أنَّ الأوطان تجتذبُ المرءَ إليها الهوى وأن عاش كدًا

ورغم حياته الناعمة بالشام ، فإن حسراته على وطنه تقد قلبه قدًا.

إذ :

ليس يستعذب الغريب مُقاماً في سوى أرضه، وإن نال جَدًّا (١)

ذلك لأن الأوطان جواذب .

« وطن » الانسان هو مسقط رأسه ، ومكان سكن أهله وأقربائه ، أكان خيمة أو منزلاً ، ربماً أو مغنى ، إنه المكان الذي أمضى فيه المرء طفولته وفتوته (٢) . وتألف النفس الوطن حتى كأنه [لها جسد إن بان غـودر هالكاً] ، ومحبة الرجال للأوطان لأنها تذكرهم بتأرب قضاها فيها في فتوتهم :

إذا ذكروا أوطانهم ذكـرتهم

عهد الصبى فيها فحنّوا لذلك (٣)

وأغلى « البلاد » على الانسان ، ذلك « البلد » الذي ولد فيه ، وترعرع ، وتلك الأرض التي أول ما لمسها (٤) . « والوطن » هو موطن

١ - المنازل ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، شعر زامل بن عفير .

٢ - المنازل ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٢٩ .

٣ - المنازل ، ص ٢٢٢ ؛ ديوان ابن الرومي ، ج ١ ، ص ١٣ .

٤ - المنازل ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

قد نالت نجد والحجاز بشكل عام ، والمدينة ومكة بصورة خاصة اهتماماً أساسياً عند الشعراء . وهم موجودون في بعد عن هذه المواطن ، يحنون إليها ، رغم أن بعضهم - أحياناً - لم يعيش فيها :

ذهب الرجال فلا أحس رجالاً وأرى الإقامة بالعراق ضللاً
وأرى المرجي للعراق وأهله ظمآنَ هاجرةٍ يُؤمِّلُ آلا
وطربتُ أنْ ذكر المدينة ذاكر يوم الخميس فهاج لي بلبلاً
وجعلت أنظرُ في السماء كأنني أبغي بناحية السماء هلالاً
طرباً إلى أهل الحجاز وتارة أبكي بدمعٍ مسبلٍ إسبالاً (٢)

فالمدينة هي مدينة الرسول في الحجاز وموطنه ، وبما زاد حنين الشاعر هنا وشوقه لإخفاقه في العراق ، فالارتباط بالوطن قرن بالحالة الاقتصادية المادية حتى إنه يتلمس المساعدة من السماء .

أما فيما بعد - في الوقت اللاحق المتأخر - فإن لفظه « وطن » عني بها « مدينة » مع التي تربط الشاعر روابط معينة ؛ فالتبني وهو بمصر يشناق إلى حلب ، إلى بلاط سيف الدولة ، حيث كان عزه ورفاهيته ،

١ - المنازل ، ص ٢٥٠ ، شعر المازني .

٢ - المنازل ، ص ٢٤٥ . شعر ابن المولى . [اللبال : شدة الهم] .

فبأي شيء يعمل نفسه ، وهو بعيد عن وطنه وأهله ، وليس له ما يلهو به ، ولا أحد يسكن إليه ؟ . مواسماته في أن ظروف الزمان القاسية زائلة ، ولا بد من عودة إلى الوطن^(١) . وعليه بنت المهدي ، في صحبتها لأخيها الرشيد الخليفة : وهي مغتربة بعيدة عن بغداد ، بالقرب - من همدان ، اشتاقت وحنّت إلى بغداد ، حتى إذا ما أتتها [الركب من نحو أرضها تنفست تستشفي برائحة القرب] ، فأرضها - بغداد ، لا أرض الخلافة كلها ، وحنينها للساكنين المحبين هناك^(٢) .

أما اليمنية ، التي زوجها عمها إلى شامي نقلها إلى الشام ، فإن الشوق يأكلها إلى بلادها ، داعية لتلك البلاد بالسقيا ، حبث قومها مجتمعون ، رغم بقينها أن لا مجال للقاء . وداعية على كل عينية تترك اليمن (إذ لا بارك الله في وجه كل يمانية تحب شامياً)^(٣) .

و « الوطن » عند أبي العباس الأعمى هو سورية عامة ، ودمشق بصورة خاصة ، حيث يعيش أهله وأبناء قومه بنو أمية . وهو في الحجاز يحن إلى دمشق والأقرباء^(٤) . وأبو العلاء ، وهو في بغداد ، يحن إلى سورية وخاصة إلى مدينته الصغيرة ، مسقط رأسه المصرة^(٥) .

١ - المنازل ، ص ٢٢٥ ؛ ديوان المتنبي ، ج II ، ص ٤٦٧ .

٢ - المنازل ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

٣ - المنازل ، ص ٢٤٩ .

٤ - المنازل ، ص ٢٥١ ، وانظر : أيضاً ص ٢٥٢ ، شعر ابن حمدان .

٥ - المنازل ، ص ٢٥٨ .

إن عمران بن حطان - برأينا - نموذج لشعراء العقائد الدينية والسياسية ، الذين كثروا في عصره ، وكانوا محط اضطهاد الخليفة وولائه ، قلا مكان إقامة دائمة له ، أزدى مرة وأوزاعي أخرى ، متنقل في الاقطار الاسلامية عليه يجد مأمناً على حياته ، إلى أن نزل بهمان بين قوم من عقيدته فاستقر وطابت له الحياة ، إذ نزل في خير أسرة ، يقوم يجمع الله شملهم من الأزد إن الأزد أكرم معشر يمانية إذا انتسب البشر ، وأهله وقبيلته هم رجال معتقده ، « ووطنه » المريح هو مكان سكناهم :

فنحن بنو الاسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله من شكر (١)

« والوطن » عند مجموعة من الشعراء « ليس مكان لعب الصبي ، حيث ولد الانسان وترعرع » ، لكنه ذاك البلد الذي يؤمن الحياة الاقتصادية الكريمة للمرء . إذا كان الانسان في بعد عن وطنه ، ونال معاشاً ، فلا عليه أن يكثر نزاعاً إلى الوطن ، فها هذا « البلد الجديد » إلا وطناً كالتقديم ، لكن خيرها ما كان عوناً على الزمن ، وكم تنقل في البلاد ، لا يعبأ بالحنين أيؤمن راحته وحياته إذ (وأحب أوطان البلاد إلى الفتى أرض ينال بها كريم المكسب) . لقد غدت الدعوة صريحة لللازمة المكان الذي (يكسب) فيه بشكل جيد (٢) .

إن موافقة البلاد وطيب العيش فيها هما معيار ارتباط بعض الشعراء

١ - المنازل ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٥ ؛ المبرد ، الكامل ، ٥٣٠ -

٥٣٤ ؛ انظر أيضاً ، ص ٢٣١ ، شعر ابن حيوس .

٢ - المنازل ، ص ٢٣٧ ؛ ديوان البحري ، ج ١ ، ص ٦٠ .

بالوطن . (وشر البلاد بلاد) لا يوجد فيها من يستراح إليه ، ويؤنس
بوده ، وشر ماكسبه الانسان هو ما عابه وأذله ، وشر صيد صاده
مشاركته فيه اللئام ، و « بلد الانسان » هو ما يوافقه ، وأقاربه هم أصدقاؤه ،
وكل مكان وافقه ، وطاب فيه عيشه « بلده » ، وكل قوم صادقوه ، وأصفوا
له المحبة هم رهنه الأذنون . فإذا ما أعجزته صداقة صديق لم يعجزه
الرحيل عنه ، إذ في سعة الأرض بشرقها وغربها مكان واسع الذهاب
والجاء ، وبسهولة يستفيض عن هذه البلاد ببلاد أخرى (١) .

أما عند إيلس بن قبيصة الطائي فيعثر أيضاً على عودة الى الارتباط
العام « بالارض الرحبة الفسيحة » ، التي لا يمجزه إدراك أية بقعة من
بقاعها . ينكر انتسابه إلى أم ربيعة أو مضرية ، ويؤكد أن وطنه « هو
الأرض بأكملها » . في هذا تنعكس وحدة الارض السكاملة ، هذه الوحدة
التي تماكس التصور القبلي المحدد (٢) . وعلى العكس من هذا فإن حب
وجبهة بنت أوس للأرض يتعلق لا بالأرض بأكملها ، لكن بأرض عشيرتها
فقط :

فما لي أن أحبت أرض عشيرتي وأبغضت طرفاء القصية من ذنب؟ (٣) .
إن هذا المفهوم الانساني العام للأرض « كوطن » معبر عنه بشكل
ساطع في شعر شاعر متأخر عاش في عصر لاحق ، هو ابن الفرات .

١ - المنازل ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

٢ - المنازل ، ص ٢١٧ .

٣ - المنازل ، ص ٢٠٨ .

إنه في تنقل وترحال دائمين ، في شرق الأرض ومغربها ، فان بان عن وطنه ، فله من أكوار العناق النجائب موطن . ولا ضير عنده في هذا فطالما أصله من تراب [فكلمها (كل الأرض) بلاده ، وكل العالمين أقاربه] . إنها دعوة إنسانية مفتوحة (١) .

في المفهوم الجديد « للوطن » والحنين إليه تظهر آثار دينية إسلامية . « فالكعبة » - « البلد الحرام » « موطن » المسلم ، حتى لو لم يولد فيها أو بعث . إنه يحن إلى الكعبة ، وإلى شعائر الحج ، وإلى « المساجد هناك » .

أعلمتَ كيف تصبُّري	عن رؤية البلد الحرام
والمشعرين	بالخيف يشهد كلَّ عام
وعن التزام المشعر	ين وعن صلاة بالمقام
وعن زيارة للنبي	المصطفى خير الأنام
كتصبير المدفوع بالأ	سقام عن طيب المنام (١)

« وطن » الانسان هو « بلدة » ، إنه الحياة الدنيا (دار الفناء) .
والانسان بتركه الحياة الدنيا يبقى على الدوام في الغربة :

١ - المنازل ، ص ٢٢٣ .

٢ - المنازل ، ص ٢٤٧ ؛ شعر « الرجل المريض » .

تَيَقَّنَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ جِيرَةٍ فَأَزْمَعَ عَنْ دَارِ الْفَنَاءِ رَحِيلاً
فَإِنْ أَقْفَرَتْ مِنْهُ الْعَيُونُ فَإِنَّهُ تَعَوَّضَ مِنْهَا بِالْقُلُوبِ بَدِيلاً (١)

إن بعض الشعراء يأخذ العبرة والعظة من « الدائن » الخالية ؛
فمصير الجميع إلى زوال ، ونهاية الجميع الموت ، ويتساءل أبو نواس عمن
كان قبله من ذوي البأس والخطر :

أَيْنَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِنْ ذَوِي الْبَأْسِ وَالْخَطَرِ
سَأَلُوا عَنْهُمْ الْمَدَا ئِنَ وَاسْتَخْبَرُوا الْخَمَرَ
سَبَقُونَا إِلَى الرَّحِي لِ وَإِنَّا لَبَا لِأَثَرِ
مَنْ مَضَى عِبْرَةً لَنَا وَغَدًا نَحْنُ مُعْتَبَرٌ (٢)

ويسأل أبو تمام المدينة الخربة على شط الفرات لماذا أصبحت
خراباً ؟ على الرغم من كونها عجماء ، لا تنطق . فالبلد والتغير بينان
فيها ، معربان عن هلاكها ، كأنما سكن الفناء في فنائها ، أوصال فيها
الدهر صولة مغضب :

١ - المنازل ، ص ٢٤٨ ، ٢٢٩ ، شعر ابن حديد
الأندلسي .

٢ - المنازل ، ص ٢٤٢ ؛ ديوان أبي نواس ، ص ٦١٢ .

قد قلتُ للزَّبَاءِ لما أَصْجَتْ في حدِّ نابٍ للزمانِ ومِخْلَبِ
لمدينة عَجَاءٍ قد أَمْسَى البلى فيها خطيباً باللسانِ المَعْرَبِ
فكأنَّا سَكَنَ الفناءَ فناءَها

أوصال فيها الدهرُ صولةً مُغْضَبِ (١)

ويدعو أسامة لسؤال (المدائن) عن كان يملكها ؟ وهل علمت
من بعدهم خبراً ؟ فلو أجبت - وهي عالمة بشأن الماضيين الغابرين -
قالت : لقد أرتهم الدنيا العبر ، فما اعتبروا ، فصيرتهم لقوم بعدهم عبراً :

سلِ المدائن عَمَّنْ كان يملكها هل أنست منهم من بعدهم خبراً
فلو أجابتك قالت وهي عالمة بسيرة الذهاب الماضي ومن عبرا
أرتهم العِبرَ الدنيا فما اعتبروا فصيرتهم لقوم بعدهم عبراً (٢)

في أشعار شعراء المراحل المتأخرة غالباً ما نصادف ألفاظ (غربة
وغريب وغرباء) . ويصف الشعراء في هذه الأشعار عذاب
وحسرة الانسان وهو في ديار الغربة ، ويعبرون عن شوقه وحنينه
للوطن .

١ - المنازل ، ص ٢٤٣ ؛ ديوان أبي تمام ، ج ١ ص ١٠٢ . (الزباء :
مدينة خربة على شط الفرات) .

٢ - المنازل ، ص ٢٤٣ .

- «الغريب ليس يستعذب مقاماً في سوى أرضه وإن نال جَدّاً»
- «لاتنهرن غريباً طال غربته فالدهر يضربه بالذل والحن
حسب الغريب من الدنيا ندامته

عضّ الانامل من شوق إلى الوطن» (١)

- «ما من غريب وإن أبدى تجلّده إلا سيذكر به الغربة الوطن» (٢)

- «فكل حرّاً إلى الأوطان ملتفت إذا ألح عليه الدهر بالحن؟» (٣)

- «لا يُذكر الرّملُ إلا حنّ مغتربٍ

لهُ بذى الرّملِ أوطارُ وأوطان

تهفو إلى البان من قلمي نوازعهُ وما بي البان بل من داره البانُ

أسدٌ سمعي إذا غنّى الحمام بها كي لا يبين سرّ الوجد إعلان» (٤)

» ومغتربٍ ينقضي ليلهُ فنوناً ومقملته تدمعُ

يورقه نأيه في البلادُ فما يستقر به مضجعُ

١ - المنازل ، الفصل عن الوطن .

٢ - المنازل ، ص ٢٢٢ ؛ ديوان الرازي ، ص ٥٢٤ .

٣ - المنازل ، الفصل عن الوطن .

٤ - المنازل ، الفصل عن الوطن ، شعرا الشريف الرضي .

إذا الليلُ ألبسه ثوبه تَقَلَّبَ فيه فتى موجعُ (١)

لقد أمضى أسامة معظم حياته في «الغربة» ، وهو في مصر ،
يحن إلى شيزر وأهله هناك ، ويشير إلى أن الوطن الحقيقي أغلى ما على
الدنيا إلى قلب المرء ، ولو توفرت للمرء في «الغربة» كل ملاذ الدنيا ،
فالحياة في الوطن تبقى دوماً أفضل وأنجع :

هَبْ أَنْ مِصْرَ جَنَّانُ الْخُلْدِ مَا لَش

تهتِ الشُّفُوسُ فيها من اللَّذَاتِ موجودُ
ما فيك لي سلوةٌ يا مصرُ عن بلدٍ في أهله الفضلُ والإقدامُ والجودُ
ماذا انتفاعي إذا كانت زخارفُها موجودةٌ وحبيبُ النفسِ مفقودُ
وما الحياةُ لمن باتَ أحبته رضى ولا هو في الأحياء معدودُ (٢)

لكن من جهة أخرى يبرر «غرفته» ويؤكد لها ، ويزيد من فضلها ،
ذلك لأنه في « الغربة » قد أمتلك المجد والشهرة وعلو المنزلة :

أظنَّ العِدى أنَّ ارتحالي ، ضائري ؟!
ضلالاً لما ظنُّوا ، وهل يكسُّدُ التَّبَرُّ ؟

١ - المنازل ، فصل في ذكر البلاد ، شعر أشجع السلمي .

٢ - المنازل ، ص ٢٥٣ .

وما زادني بُعدي سوى بُعْدِ هِمَّةٍ
 كما زاد نُوراً في تباعُدِهِ البدرُ
 وهل في ارتحالي عن بلاد تنكَّرتْ
 لثلي أو للساكنين بها فخرُ
 وإن بلاداً ضاق عني فضاؤها
 لأرحب من أكنافها للعلى فترُ
 وأرضاً نبت لي وهي آهلة الرُّبي
 هي القفرُ لا بل دونَ وحشَتِها القفرُ (١)

انطلاقاً من الأشعار المختارة في « كتاب المنازل والديار » ، في
 فصول : [المدن ، والبلاد ، والوطن ، والأرض] ، يمكننا تقسيم
 الشعراء إلى المجموعات التالية حسب ارتباطهم وعلاقتهم بالوطن :

آ - بعضهم يأبى الرحيل من مكان إلى آخر ، ويناضل ضده ،
 ويدعو إلى المقام في الوطن مهما كانت الظروف . والبحث عندهم عن
 عن الحياة المنعمة في بلاد غريبة إنما هو دعوة غير عقلانية :

يطيب خبيث الأرض بالقرب منكم : ويخبث عندي بعدكم كل طيب (٢)

« وقيل لبعض الحكماء : ما اللذة ؟ قال : الكفاية مع لزوم
 الأوطان ، ومحادثة الأخوان ، قيل :

١ - المنازل ، ص ٢٦٠ .

٢ - المنازل ، ص ٢٥٢ .

ما الذلة ؟ قال الزوج عن الأوطان ، والتنقل بين البلدان (١) .
وبعيد الدار يبكي دائماً وطنه ، وكلما طالت به المسافة ، طال به الشوق
والوجد :

« وارضمتا للغريب في البلاد الناء زح ماذا بنفسه صنعنا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعنا »
- « نأيتُ بشخص في البلاد مُشَرَّقِ

وقلب إليكم بالحنين مُغْرَبِ
لحى الله رأياً زَيْنَ البُعْدِ عنكم
وهيمّة قلب رخصت في القلب » (٢)

ويظهر هذا الانجاء أيضاً بصورة واضحة جليلة في شعر الموصلي :

ماذا ممتُ المُقام في بلدٍ قطُ . فعاتبته بغير الرحيل
إن تلقاني الزمانُ بمكرو ه تلقيتُهُ بصبرٍ جميل (٣)
وسعادة الانسان ، برأي الخليفة علي بن أبي طالب ، تكمن في

١ - المنازل ، فصل « الوطن » .

٢ - المنازل ، فصل في ذكر البلاد .

٣ - المنازل ، ص ٢٥٤ ، أيضاً : ص ٢٥١ ، ٣٥٢ .

حياة الانسان بشكل لائق في وطنه .

« قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : من سعادة الرجل خمس :
أن تكون زوجته موافقة ، وأولاده أبراراً ، وإخوانه أتقياء ، وجيرانه
صالحين ، ورزقه في بلده . »

ب - وفي الطرف المعاكس لهذا الاتجاه يقوم اتجاه المجموعة الثانية
من الشعراء التي ترتبط علاقتها بالوطن بتوفر الكرامة ، والعزة ، والحياة
الوديمة . الانسان سعيد إذا كانت خباته في وطنه كريمة اجتماعياً واقتصادياً ،
أما إذا كان الأمر خلاف هذا فعليه الحرب من الظلم والدنية ، وهجران
الوطن ، والبحث عن وطن آخر حيث تؤمن له الحياة الهنيئة . إذ
- حسب تعبير الشاعر - لا يقبل الهوان إلا الحمار ، أما الناقة الحرة
فتنكره . وإذا كانت العداوة في البلد فلا بد من الرحيل إذ لا يرضى
بالدنية أحد :

إن الهوان حمار البيت يعرفه	والحر ينكره والرّسلة الأجد
وفي البلاد إذا ما خفت نائرة	مشهورة عن ولادة السوء منتفد
إن الدنية لا يرضى بها أحد	إلا الأذلّ لأن غير السوء والوتد
هذا على الخسف محبوساً برّمته	وذا يشج وما يكي له أحد (١)

١ - المنازل ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، شعر المتلمس . [الرسالة : الناقة
السهلة ، والأجد : الموثقة الخلق ؛ المنتفد : المنتحي ؛ الرمة :
قطعة من جبل] .

فالأرض واسعة عريضة ، خلقت « ليسكن منها السهل والجبل » ،
ولهذا ما على المرء إلا أن ينتقل من مكانٍ إلى آخر طلباً للمكاسب والحياة
الحرّة الكريمة :

- إن كنتَ تزعمُ أنّ الأرضَ واسعةٌ

فيها لغيرك مرثادٌ ومرثحلٌ

فارحلٌ فإن بلاد الله ما خُلِقَتْ إلاّ ليُسكنَ منها السهلُ والجبلُ

وابغِ المكاسبَ من أرضٍ مطالها

من حيثُ يحملُ حتى ينفدَ الأجلُ (١)

- ففي الأرض منأىً للكريم عن الأذى

وفيهما لمن رام القلي متحوّل (٢)

فالأرض واسعة عريضة ، ليس فيها ضيق على المرء الذي يحكم
عقله في تسيير الأمور ، والمرء يجارب الجوع ، ولا يقبل الضيم والأذى ،
والمضايقة النفسية . لولا اجتناب العار والميـب لأقام في الشرب والمأكل
المؤمنين له ، لكن هذا لا يكفي ، فالمرء يطلب الكرامة في موطنه ،
فإن لم تتوفر فما عليه إلا هجران ذلك الوطن ، ذلك لأن الرحيل عن

١ - المنازل ، ص ٢١٤ ، شعر حاتم الطائي .

٢ - المنازل ، ص ٢١٣ ؛ لامية العرب . في ملحقات المعلقة ، ص ،

٩٧ ، وانظر . المنازل . ص ٢١٤ ، شعر الكلابي .

مثل هذه الارض ضرورة حتمية لا مناص منها ، لأن الداء العياء لا بد
من حسمه جذرياً بلا هوادة :

تحمّل عن الأرض المريضة غادياً ولا ترض للداء العياء سوى الحسم
وما فتئت روح الفتى في نوائب تمارس سُهاحتى استقلت عن الجسم
إذاماتقرقنا خالصنا من الأذى ولم يحتج الراعي المسيم إلى الوسم (١)
وفي أشعار الشعراء المجهولين تظهر الدعوة صريحة للتنقل والترحال
عن الوطن ، فعلى المرء ان :

(لا يصرفنه عن عزم يهيم به نزوع إلى أهل وأوطان) .

وهو في الوطن الجديد يلقي الأهل والأخوان :

يلقى بكل بلاد هو ساكنها أرضاً بأرض وإخواناً باخوان
إن محالفي أوطانهم أشبه بسكان القبور ، لانه بالرحلة والتغرب
- الغنى والتقدم ، إذ لولا التغرب ما ارتقى در البحور إلى النحور ،
وليرحل المرء حتى لو كان إلى الصين أو عدن إذ :

كل خلٍّ إذا صافيته سكن وكل أرض إذا أحمدها وطن (٢)

١ - المنازل ، ص ٢١٣ ، ٢١٧ ، شعر المعري ، وانظر ، ص ٢٤٠ ،
شعر السليمانى .

٢ - المنازل ، ص ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ ،
٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

وفي أشعار معاصري أسامة [ابن أبي جردة ، ص ١٧٠-١٧١ ،
وأبي نصر ، ص ٢١٩] نعت على الحنين إلى مساقط الرأس ؛ والشاعران
يعيشان حياة كريمة هائلة في «الغربة» بسعيان إلى العودة إلى الوطن ،
والموت خير لهما من أن يبقيا على الدوام في «الغربة» :

أصبح شملي إلى الشتات وأصبه حثُ غريباً وما نبا وطني
الناس لاهون في أماكنهم ونحن في رحلة وفي ظمَن
كأننا من مُتيممي العرب الـ عرباء تهوى المعاج بالدَمَن
لا صبرَ لي قد خرجتُ من جلدِي

وقد سُلِبْتُ الحصين من جُنتي
ومجَّ سمعي لَغَوَ الحديث فما يطُورُ شيءٌ منه على أذني
جمعتُ ، والهِفَتاه ! قلبَ فتى يغرُّ عن همِّ شارخٍ يقنِ
ورتبةً في الملاء تتبُّها صورةٌ مُستبذلٍ ومُمتَهَنِ

[الشارح : الشاب ؛ اليفن : الشيخ]

وسيد الملك - جد أسامة ، المدافع عن ملكه ووطنه شيزر ،
والمستعد لاعطاء كل شيء في سبيل حفظ شيزر ، وصيانة حرّيتها ،
يستغرب تصميم المهاجر على الرحيل ، وقطع النياقي كأنه قاصي القلب ،
لا يقلل حسب الوطن عنده من عزمه على الرحيل ، ولا يهدي
الحنين إلى رسوم الدار :

لله ما طيفُ ألمٍ بفتيةٍ تحنو رؤوسهمُ على الأكوار
يطوي بهم عرض الغلاةِ مُسرَّبلٌ حُللَ الثناء ممزقُ الأطمار
لا تفتُ الأوطانُ عزمته ولا يهدي الحنين إلى رسوم الدار (١)

أما أسامة فقد غادر وطنه الأم مكرهاً وأمضى قسماً كبيراً من حياته « غريباً » ، وحن إلى وطنه طيلة حياته سواء أعاش في نعيم أو في عذاب . لقد كان ارتباطه بأهله ووطنه من الصفات المميزة له ، وهو الذي عاش كالطريد من بلد إلى آخر ، بلا وطن ولا خلان ، عيدا الآخرين موسم لعويله بما يشيره من الذكرى ، ومرورهم عنده أحزان ، إذا ما رأى شملاً مجتمعاً نزاحت في قلبه الهموم والاحزان لا حداً بل من الذكرى المؤلمة لماضيه ، لقد أفردته الحوادث فلم يبق له أنيس ، ولا في طسارق الخطب أعوان ، حتى لكأنه ليس كباقي البشر ، فقد نبت به البلاد فماله على وجه الأرض وطن ، ينقل ويجول بلا استقرار ، فإذا ما حط عصا الترحال ، وحاول الاستقرار دعاه إلى الترحال ظلم وعدوان ، حتى غدا القبر أرفق به من دار سكنها [بصور] . حتى إن مصر التي قضى فيها من حياته عشر سنوات لم تنسه وطنه ، ولم تغنه عنه . إنها ليست أول أرض مس تربتها جلده ، فليس له فيها وطن ولا وطر ، إنما وطنه هو مكان مولده ، لكنه قطن مصر مكرهاً إذ : « إذا حمت الاقدار كان لها قوى تؤلف بين الماء والنار » (٢) .

١ - المنازل ، ص ٢٣٩ .

١ - المنازل ، ص ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ؛ ديوان أسامة ،

ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ٧٥ .

بعد استقراء هذه المعلومات التي أوردناها فيما سبق ، ونتيجة
لدراستنا وصلنا إلى تقرير النتائج التالية :

إن البكاء على أماكن السكن ، [البيوت والدور والمنازل]
وآثارها في الجاهلية ما كان إلا فناً شعرياً منفصلاً مستقلاً مفعماً بالحياة
والمشاعر الصادقة . وفي العصر الأموي كان التوجه إلى أماكن السكن
بشكل عام ، وإلى آثارها بشكل خاص في الحب العذري ، كما في الحب
العمرى الواسطة للتعبير عن المشاعر والآلام والمعاناة عند الشاعر . وأماكن
السكن هذه عند الشعراء العذريين مرتبطة عند كل منهم باسم محبوبه
محددة واحدة ، وعند العمريين - بعدد من المعشوقات ، أما شعراء البلاط
فكانوا مقلدين في هذه المطالع - مطالع القصائد الطللية ، لا يمتلكون أية
رابطة مع هذه الأماكن [أماكن السكن] التي يكوونها ، وآثارها
وبقاياها ، باستثناء بعض الحوادث عندما وصفوا القصور الفخمة [قصور
الخلفاء] ، أو بكوا دمارها وخرابها ، ذلك الخراب الذي أيقظ عند
الشاعر المشاعر الحزينة الصادقة . أما فيما بعد - في الوقت المتأخر - فقد
ظهر اتجاه التجديد الذي وقف ضد هذه المطالع ، ودعا إلى نسيانها وإهمالها :

دع الرسم الذي دثرا يعاني الريح والمطرا

لقد وقفنا على حقيقة جديدة وهي أن الدعوة إلى الكف والامتناع
عن بكاء المنازل في المطالع الطللية يجب ربطها باسم الكمية بن زيد
الذي عاش تقريباً بنصف قرن قبل بشار وأبي نواس ، لكنها لم تأخذ
عنده ، كما لم تأخذ عند من سبقه صورة اتجاه أدبي متكامل .

وبالاستناد إلى هذا فقد قررنا أن الدعوة إلى الامتناع عن هذه المطالع الظلمية ، وبكاء المنازل والديار ، كانت قد ظهرت لا بدافع الشعورية عند بشار وأبي نواس ، بل بسبب الشروط والظروف الاجتماعية والاقتصادية الجديدة في حياة العرب التي كانت قد توطدت في البلاد والامصار الجديدة ، لاستقرارهم الدائم في المدن بعيدين عن الصحراء .

لفظة « منازل » تستعمل ايضاً بمعنى « القبر » و « المسجد » و « القصر » ، أما « البيت » فبمعنى « القبر » و « الحمام » و « شرف القبيلة » ، كما انها امتلكت ايضاً بعض المعاني الدينية الجديدة . وعند بعض الشعراء ، في تناولهم لموضوع « البيت » تنتشر بعض الإلحان الاجتماعية الطبقية .

إن العناصر التقليدية في وصف وتصوير أماكن السكن مع بقاياها تركزت في كونها : [معفاة ، غير معروفة ، غير مسكونة ، خالية ، أماكن سكن الحيوانات والطيور ، تغيرت تحت تأثير الرياح ، والأمطار ، والزمن ، والقدم ، والفراق ، بقاياها شبيهة ببقايا الوشم في ظاهر اليد ، وبرسوم واهية على ثياب خلقة ، وبآثار القلم الباهتة على الورق ، وبجلد الافرعى المزركش .. الخ] .

وتحت تأثير شروط الحياة الجديدة يلاحظ تجديد واضح في وسائل التجسيم والتصوير ، وفي طرائق تناول أماكن السكن ، وبقاياها : لقد غدت المحبوبة [غانية] ، والمغاني تكتسي ألبسة جديدة ، إنها غير خالية ، هي الريمع بالنسبة لما يحيط بها من أرض ؛ على أغصان أشجارها يغرد الحمام ، وصدى هذا التغريد تردده الغانيات المدهشات الجميلات . وأصبحت

الربوع مدنية ، يهب عليها النسيم اللطيف العليل الرطب ، وتغطيها - مع بقايا الديار (الرسوم والاطلال .. الخ) - الحدائق الجميلة المزدهرة ، ويرتبط بها بمشاعر أشبه ما تكون بمشاعر الاحترام والاجلال للكمبة ، وتبجل كالملوك والقيصرة ، إنها لا تغفو ، لكنها على العكس ، تلبس مع الايام الثياب الغنية الجميلة القشمية .

أما فيما يخص المصطلحات التي المعنى المعنى الاوسع للوطن (مدينة ، وطن ، بلد ، أرض) فيلاحظ أن معظم الاشعار إنما تخص شعراء العصر الاسلامي . عندئذ لم يعد « المنزل ، أو « المغنى » هما « الوطن » و « مكان السكن » ، إنما غدا « الوطن » هو « المدينة » ، « قطعة من الأرض » ، « بلد » حتى « والأرض » بشكل عام كامل .

ويتكلم هؤلاء الشعراء أكثر وأكثر عن « الغربة » و « الغراء » في الوقت الذي يعثر فيه على هذه الألفاظ بشكل قليل نسبياً في الشعر الجاهلي . وربما كان هذا مرتبطاً بحياة التنقل والترحال عند العرب - البدو ، الذين ينتقلهم في مناطق واسعة من الارض لم يحددوا المعنى بشكل دقيق محدد لكلمتي « وطن » ، و « غربة » .

لقد دعا بعض الشعراء الجاهليين إلى التنقل في كل الأرض ، وإلى ترك ذلك القسم من الأرض الذي يفتقر للعدالة . أما علاقة الشعراء بالوطن فقد كانت على مر العصور مهزوزة غير ثابتة . إذ دعوا في أكثر الجالات إلى التنقل والرحلة ، وإلى عدم الاستقرار في الاماكن التي هم فيها مظلومين ، وكرامتهم مهانة ، ولا عدالة عندهم ، وأحياناً قليلة دعوا إلى الاستقرار الدائم في هذه الاماكن رغم كل المعوقات والظروف .

في شعر بداية القرن الثاني عشر XII الميلادي لا تلاحظ تغيرات كبيرة في تناول موضوع الوطن ، وتطور هذا المفهوم . فأسماء ومعا صروه لم يسيروا هكذا بعيداً عن الشعراء السابقين لهم ؛ اتصف شعرهم أيضاً بذلك الأسلوب ، وتلك التعبيرات اللغوية السائدة سابقاً ، وتلك المجموعة من أنغام المطالع الطالعية للقصيد أيضاً . وما « الوطن » في مفهوم أسماء إلا ذلك المكان المحدد ، غير الكبير ، ما هو إلا « شيزر » مسقط رأسه ، حيث ولد ، ويعيش أهله . لكن (دراما) حوادث عصره ، وعميق آلامه الشخصية - كل هذا صبغ شعره بالاخلاص والصدق والواقعية . ونحن نقرأ شعر أسماء نشاركه أحزانه ، ونحس بآلامه ، ذلك لأن ما يخرج من القلب يدخل في القلب مباشرة . إن هذا الاحترام للتقليد [للشكل التقليدي] ، ولحيوية المحتوى « إنما مدين له شعر أسماء ، ومدين له أيضاً ظهور هذا الكتاب « كتاب المنازل والديار » .



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثاني

الأهل والأخوان (المواطنون)

« أهل الرجل » هم عشيرته وذوو قريبه ، وأخص الناس به ،
وعلى التخصيص زوجته وربما أولاده فقط . وقيل : من يجمعه وإياه نسب
أو دين . أو ما يجري مجراها من صناعة وبيت وبلد . « فأهل الرجل » -
من يجمعه وإياه مسكن واحد ، « وأهل المذهب » و« أهل الاسلام » :
من يدين به . « وأهل الأمر » : ولاته . « وأهل النبي » : أزواجه
وبناته وصهره علي . « وأهل كل نبي » : أمته . « وأهل القرآن » :
حفظته . « وأهل الله » المؤمنون به . جمعها : أهالي وأهلون . مأخوذة
من الفعل : أهل الرجل يأهل أهولاً : فهو آهل ، ومأهول به أهله .
واتهل وثأهل : اتخذ أهلاً ، وقيل تزوج ، والحيوانات الأليفة : أهلية ،
والمستوحشة : برية . وفي الدعاء : أهلاً : أي أتيت أهلاً لا غرباء ،
فلاستأنس ولا تستوحش ، وأهل به : قال أهلاً ، ومنها آل الرجل :
أهله (١) .

أما الاخوان : فجمع مفردة : أخ . وهو من ولده أبوك وأمك ،
وأحدهما ، ويطلق على الاخ في الرضاع ، وقد يكون الصديق أو الصاحب
وخصص في (التمهيد) « الاخوة » : إذا كانوا لاب في الولادة ،
« والاخوان » : إذا لم يكونوا لاب ، في الاصدقاء . وهذا رأي أهل
البصرة ، إذ يقولون : رجل من إخواني وأصدقائي ، فإذا كان أخاه في
النسب ، قالوا : إخوتي ، ويرى بعضهم أن هذا خطأ إذ [إنما المؤمنون

١ - لسان العرب ، ج . XIII ، ص ٢٨ ؛ تاج الفروس ، ج .

VII ، ص ٢١٧ .

إخوة] في القرآن الكريم لا على النسب . وعلى المجاز : « إخوان الغزاء » و « إخوان العمل والصدق » : أي أصحابه وملازميه . فعلها - آخى - رجل مؤاخاة وإخاءً : أي اتخذ أخاً ، « آخى » بين المهاجرين والانصار : أي ألف بين قلوبهم . « والاخوة » : قرابه الاخ ، أما التأخي : اتخاذ الاخوان (١) .

يقول أسامة في مطلع هذا الفصل : [هذا الفصل كان موضعه صدر الكتاب ؛ إذ كانت المنازل والديار إنما تبكى لسكانها من الاهل والاخوان والاحباب ، لكني أخرته ؛ لاختم به الكتاب] .

ومن أشعار أسامة ايضاً - إضافة الى قوله هذا - يظهر انه من أولئك الناس الذين يكون الديار لسكانها لا انفسها . فالتعلق بالارض والوطن إنما تعلق من خلال التعلق بأهلها .

« الاهل والاخوان » في شعر شعراء المراحل الاولى (امرئ القيس والجمعي ، وأبي دواد الأيادي وربان بن منظور ومقاس بن شريك وابن مقبل ودريد بن الصمة) ما هم إلا أفراد القبيلة ، أو الفخذ ، أو العشيرة ، أو الاسرة (الاقرباء بالدم) ، فامرؤ القيس في سيره هارباً إلى قيصر باحثاً عن حماية عنده تذكر اهله الصالحين (أبناء عشيرته) ، وهو في بعد عنهم ، في حوران ، وحماة ، وشيزر ، يحن إليهم ، ويفقد الامل باللقاء بهم . إن رحلته شاقة ، تتطلب منه الجهد والصبر . فهو

١ - لسان العرب ، ج . XVIII ، ص ٢٠ ؛ تلج المروس ، ج .

X ، ص ١٠ .

« أخو الجهد » (١) . و « الاهل » ايضاً في شعر الجعدي هم اقرباؤه
 اعضاء « فخذ » عشيرته الاقربين ، الذين مرت عليهم عوادي الزمان .
 إن مقطوعاته الشعرية في رثاء اهله تجسد احزانه واتراحه وتقطر حزناً
 واسى . إذ لسنوات ثمان خلت قد ألت بهم الكارثة ، فما الدار الآن
 كعده بها ، لقد عهد فيها (حياً كراماً) . كأنهم الملوك عظيمة وفروسية ،
 فتيان صدق من معدن اصيل ، اغنياء كرماء ، فُرت عليهم عوادي الايام
 ولم يبق سرى الليل والايام من تلك الديار واهلها إلا (مغانياً) ، مغاني
 قوم غالتهم المنية ، فعدت اماكن حلولهم تبكي وتبكي ... لقد عفت ديارهم ،
 فعدت كأغطية السيوف الرقيقة المربلة . إنها (دار قومه) الذين حلوا
 بها قبل ان تصيبهم البلية ، وهم (من خير حي على الارض) ، يغيثون
 من يستنجد ، ويكرمون الضيف ، ويرتاحون للعطاء والكرم السريع ،
 ولا يستخفهم الطيش عند الغارة لانهم ذوو رزانة ، علاماتهم واضحة
 يعرفون على الدوام بفعلهم الخير ، اصحاب مروءة وشرف ، هلكوا فسألته
 جارتة (زوجته) عن (أمته) (اهل قومه) (٢) - وذو العقل يسأل
 إذا لم يعرف الخبر اليقين - سأله عن اناس هلكوا ، واكل الدهر عليهم
 وشرب . إن اولئك الذين يرقدون في القبور - هم (ربعة الاقرب - اهل
 داره ، فخذ من عشيرته ورهطه ، إخوته بالدم) (٣) .

-
- ١ - المنازل ، ص ٤٣٩ ؛ ديوان امرئ القيس ، ص ٦١ .
 - ٢ - هناك ، ص ٤٦٣ - ٤٦٧ ؛ شعر الجعدي ، ص ١٦٦ ، ٨٥ ،
 ١٣ ، ٢٢٣ .
 - ٣ - هناك ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٥ ، ٤٥٢ .

بعض الشعراء المخضرمين (الخنساء و قس بن ساعدة وأميمة بنت
عبد شمس وابو خراش، وابو زيد الطائي ، وابو طالب (يستعملون
المصطلحات « اهل » ، « إخوان » تقريباً بهذه المعاني المشار إليها سابقاً .
فالنكبة المؤلمة قد قضت على « إخوة الخنساء » ، « واهل بيتها » ، تاركة
لها الالم والاسى ، والقلب الجريح المكسوم^(١).

وموت « أخي » قس الصميمين (بالدم) الاثنين جلب له الارق
والحزن ؛ يبكيها وهو قائم على قبريها . ولو كانت الفدية ممكنة لفداهما
بجسمه وحياته^(٢) . وفقد أميمة لقومها ، وابي الخراش لاختوته ايقظ عند
الشاعرين شعور الالم والنجوى والحزن على الاقرباء ، والتفني بتجدهم الغابر
وكرمهم^(٣) . وفي اختلاف عن هذا فان الخليفة علي بن ابي طالب يحزن
ويبكي بكاء مرأً على « رفاقه » ، الذين غادروه واعتزلهم الموت ، « فهو
يتذكرهم دائماً ناسياً من يحيطون به حتى لو كانوا اهله ، إنهم بالنسبة له
ليسوا رفاقاً ، واصدقاء فحسب ، بل « إخوان في الصداقة » ، ومن
الشوق والحنين إليهم يشتهي الموت ليلتقي بهم^(٤) .

لقد كانت الصفة الاساسية عند شعراء عصر بني أمية ، كما هو

١ - هناك ٤٥٠ ؛ ديوان الخنساء ، ص ١٤٢ .

٢ - المنازل ، ص ٤٥٣ ؛ الأغاني ، ص XV ، ص ٢٤٧ (دار
الكتب) .

٣ - المنازل ، ص ٤٤٥ .

٤ - المنازل ، ص ٤١٨ .

الحال عند شعراء الجاهلية ، بكاء العشيرة ، والمائلة ، والاقرباء ، والاصدقاء ، مما جعل أشعارهم مملوءة بمشاعر الألم الصادقة ، والغذاب ؛ يبكي الشعراء هنا فقدهم لأقربائهم ، ويتغنون ، ويمجدون ، ويفخرون بد [أجداد الشهداء ، ويعزون ويواسون نفوسهم] ، بعزاء ديني : [إن الانسان لا يستطيع أن يهرب من القضاء والقدر ، الذي حسب قوائمه يسير كل الناس للنهاية - الموت . لفظة « الأهل » تستعمل عندهم كما عند من سبق وأشرنا اليهم بمعنى : « عشيرة » ، و « قبيلة » و « عائلة - أسرة » ، و « أقرباء » ؛ أما لفظة « إخوان » : فبمعنى « الاخوة بالدم » ، و « الاصدقاء » ، و « الرفاق » ، و « الرفاق بالمتقصد الديني » . وأصبح ابن نورية الذي يبكي أخاً بالدم (مالكاً) رمزاً للبكاء في الرثاء . ويرثي أضرم بن حميد « بني أسد » ، وحرثة الغداني - أهله ، وبصورة خاصة عائلته وأسرته ؛ ويندب ابن ميادة « بني ذر » ، وبهس - اخوته المقتولين ، وثوبه بن المضرس : إخوته ، وأصدقاء القتال ، والفرزدق : الاقرباء الموتى - أعضاء قبيلته ، وأولاده المقتولين ؛ والعتبي وأبو ذؤيب بكيان أيضاً أولادها ، (عند الاخير قد ماتوا دفعة واحدة بالطاعون)^(١).

وكذلك فان السموعل ، ونهار بن توسحة وليلي بنت طريف يعبرون عن أحزانهم في قصائد رثاء يرثون بها إخوانهم ، ووضاح اليمني - إخوته وإباه ، أما شبيب البرصي ، وأبو سعيد ، وعبدالله العبلي ، فانهم

١ - المنازل ، ص ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٣٥ ، ٤١٥ ، ٤٥٠ ، ٤٢٤ ،

٤٣٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٦٠ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ .

يرثون قبائلهم والأقرباء المقربين^(١) . ويعطي محمد بن خالد - في رثائه غمر بن عبدالعزيز - المعنى العام والمواساة الدينية ، إذ لا يمكن صد المنون ، فاللوت قدر محتم على كل مرء حيث سيموت في وقته دون تأخير أو تقديم . أين الملوك ، وعيشهم ، وزمانهم ؟ إنهم ذهبوا ، ونحن على طريقتهـم ، فمن مفجوع إلى مفجع ...:

إن معظم الشعراء سيكون أقرب المقربين لهم بالدم ، لكن ، علاوة روابط القرابة الدموية ، فإن الناس يرتبط بعضهم ببعض بعدد من الروابط الأخرى القوية المتينة ؛ هكذا ، مثلاً ، المعتقدات الدينية - السياسية التي تجمع حولها الرفاق الأصدقاء بالمعتقد ، أصحاب الرأي الواحد . ومثله في هذا أيضاً عمر بن الحسين ، وأبو عباس الآغمي . عند مرداس ، كما عند جميع شعراء الخوارج ، الشعر ممتلىء بالصدق والاخلاص ، ويعتصر بالآلم والحزن والامسى ، وبمعكس تلك الروابط القوية بين أبناء مذهب الخوارج ، هذه الروابط التي صبغت بالدم ، والثبات والقتال^(٢) . وشبيهة بهذه الأشعار أيضاً : أشعار ابن الحسين الذي يبكي فيه مقتل (الاباضية)^(٣) . لكن أبا العباس الآغمي ، على العكس ، يبكي أعداء الخوارج - الخلفاء السابقين ، بعد أن قضى على ملكهم^(٤) .

١ - المنازل ، ص ٤٣٩ ، ٤١٢ ، ٤٧٤ ، ٤٢٩ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ ، ٤٤٣ .

٢ - المنازل ، ص ٤٦٧ ، المبرد ، ض ٥٨٦ .

٣ - المنازل ، ص ٤٥٨ - ٤٥٩ .

٤ - المنازل ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، الاغانى ، > . XV ص ٦٠ (بولاق) ، > . XVI ، ص ٢٩٩ (دار الكتب) .

وفي أشعار شعراء العصر العباسي غالباً ما يعثر أيضاً على بكاء
 الاقرباء والاهل ؛ لكن في هذا العصر - إضافة إلى ذلك - وبشكل
 ناصع واضح يعبر عن بكاء الاصدقاء - « الاخوة بالصدقة » ، وبكاء
 أولئك ، الذين قضت عليهم النوائب . ويعثر على الاشارات الدينية في
 في أشعار أبي العتاهية ؛ إذ يبكي « الاخوة » ، الذين أتى عليهم الموت ،
 (فالوت لن يبق على أحد ، إن الناس لا يعبأون به ولا يهتمون ، لكنه
 بينهم ، وسيفضي على الجميع^(١)) .

إن « تراجيديا » البرامكة مشهورة لنا ، إذ بعد مقتلهم ، غدوا
 مادة بكاء ورتاء عدد من الشعراء . هذه النكبة قد أبكت جارياتهم :
 (إن التفرق الاحباب بكاء) ، إذ دارت عليهم عواذي الايام حتى أفنتهم ،
 فظلت تبكيهم طوراً ، وطوراً تندبهم حتى نضبت الدموع في عينيها^(٢) .
 ويقوم الشاعر الزبير بن دحمان بتسجيل هذه النكبة بطرف خفي ،
 ويمدد أنجادهم ، وحكمتهم وإخلاصهم^(٣) . أما الخليفة المتوكل ووزيره
 ابن خاقان فانها بالنسبة للبحثري كقبيلتي الاوس والخزرج عند الرسول .
 ولقد عكس شعره نكبتها « تراجيديا » مؤلمة^(٤) . إن بعض الشعراء -
 محمد بن صالح والمرتضى وابن خفاجة يكون أصدقاءهم - « إخوان

١ - المنازل ؛ ص ٤٣٤ ؛ ديوان أبي العتاهية ، ص ٢٨٥ .

٢ - المنازل ، ص ٤٣١ .

٣ - المنازل ، ص ٤٤٥ ، ٤٧٧ .

٤ - المنازل ، ص ٤٥١ ؛ ديوان البحثري ، ح I ، ص ١٠٥ .

الأخلاص» (١) . وآخرون ، وهم يحنون إلى الاهل والاقرباء ، يمدحونهم ، ويمدحون مفاخرهم وآثرهم ؛ ويندب دعبل قبياته خزاعة ، وابن الرومي .
المقربين والاهل (أهل وده) « وابن المعتز - الاهل ، والراضي -
ابناء ابيه (٢) . ويعثر ايضاً في المقطوعات الاخرى ، المساقاة من قبل اسامة
في هذا الفصل على بكاء الاقرباء ، والاصدقاء ، والاهل . وندب الاخوة
موجود ايضاً في شعر البراء ، والمفضل ، والبريق الهذلي وفارعة المريه (٣) .
ندب الاصدقاء في شعر الغزاز (ص ٤٣١) والاب في مرثيه فاطمة بنت
الاحجم (ص ٤٤٩) ، والاولاد في شعر في شعر ابي الشغب العبسي
(ص ٤٦٧) . إن معظم الشعراء يكون الاصدقاء ، وافراد القبيلة (٤) .

من المواد التي قدمناها فيما مضى ، يرى بأن الشعراء بمرائهم ،
عادة ، إنما يندبون من الاقرباء الذين اصابتهم المصائب ، والاصدقاء ،
والقبيلة والعشيرة ؛ لكن يعثر على بعض الحالات حيث لا يندب الشاعر
قومه وعشيرته وقبيلته ، بل على العكس يدعو عليهم ، ويطلب لهم الشر .
وكثال على هذا يمكن ان نسوق اشعار عصيمة التميمي ، الذي يبكي بني
غباب ، عندما المت بهم المصيبة ، ويدعو لقبيلته بهذه المصيبة ذلك لانها

١ - المنازل ، ص ٤٥٦ ، ٤٧٦ ، ٤٣١ .

٢ - المنازل ، ص ٤٤٤ ، ٤٤٣ ، ٤١٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ،
٤١٧ ، ٤٧٢ .

٣ - المنازل ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٨ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٧٥ .

٤ - المنازل ، ص ٤١١ ، ٤٢٦ ، ٤٦١ ، ٤٧٤ ، ٤٧١ .

لم تكن مخلصاً عادلة معه (١) .

إن أشعار الشعراء الآخرين [غير المعروفة أسماؤهم] بحثواها ومضواها
إنما تشبه المقطوعات التي حملناها فيها سبق . فالأموات عندهم هم « أبناء
الأرض » ، ومن بقي حياً لاحق بهم ، وبعد حلاوة الحياة من معايشرة
الأحباب لم يبق إلا ذكرياتهم . لقد ذهب سرور الشاعر بعد صبحه كأنما
طار به نسر فأرق وتعذب ، وأصبح يعفو عن ذنوب كثيرة ، ويتحمل
زلات الاصدقاء . ويتحول إلى الناس في الأرض وإليها مرجعهم ومآلهم .
أما « أهل القبور » - الموتى ، فلا يسمعون دعوة ، ولا يرجعون جواباً ،
ولا يطلبون حاجة . لقد سكنوا ظهر الأرض ثم بموتهم باطنها . إنها الأمم
تتعاقب على ظهر الأرض . وبموت الاصحاب تقوض صبر وتجلد الصاحب ،
فلم يستطيع حيلة لدفع الموت ، أما حياته الوحيدة فهي البكاء ، إذ ان
البكاء سلاح كل مصاب ، ويدعون على أنفسهم بالموت الذي أخطأهم وأصاب
من يرثونهم (٢) .

لا بد من تركيز الانتباه إلى أنه في شعر الشعراء الجاهليين ،
والشعراء الذين لم يتمكن من نسبتهم إلى عصر معين ، ولأول مرة ، في
الفصل عن « الدار » يعثر على تذكير « بالجيران » .

١ - المنازل ، ص ٤٣١ .

٢ - المنازل ، ص ، ٤٢٠ ، ٤٢٦ ، ٤٣٢ ، ٣٣٤ ، ٤٤٦ ، ٤٦٣ ،

٤٦٩ .

- رأيتُ دنوَّ الدارِ ليس بنافعٍ إذا لم يكن بين القلوب قريبُ
 - وأنزاني طولُ النوى دارَ غربةٍ
 إذا شئتُ لاقيتُ امرئاً لا أشاكِلهُ
 أحامقه حتى يتألَّ سجيَّةُ ولو كان ذاعَةً لَكنتُ أعافله
 وقال آخر :

- سقى الله داراً وأرضاً تركتها
 إلى جنبِ دارِيٍّ مَعْقِلٍ وتيار
 أبو مالكٍ جارٌ لها وابنُ بُرثنٍ
 فيالكَ (جارِيٍّ) ذِلَّةٌ وصغارٍ
 وقال آخر :

- إن [جار] السَّوءِ حِمْلٌ فادِحٌ فاستعِذْ بالله مِن [سوءِ الجوار]
 ما لجارِ السَّوءِ عندي جميلةٌ في جميعِ الأرضِ إلا يسعُ داري (١)

وبرأينا ، فإن هذه الظاهرة ظاهرة متأخرة ، ذلك لان الشاعر
 الجاهلي - البدوي ، يعيش في جوار مع أبناء قبيلته وأقربائه ، ومع أفراد
 عشيرته ، ولذا فانه قليلاً ما يتكلم عن « الجيرة » . لكن ، بعد استقرار
 القبائل العربية في البلاد المفتوحة ، حتى وبدءاً من المهاجرين إلى المدينة ،

١ - المنازل ، (طبعة المكتب الاسلامي) ، ح . II ، ص ١٥٤ ،

ووجودهم فيها ، فإن « الجار » قد امتلك مكاناً خاصاً في حياة العربي ،
والرسول العربي ذاته قد أعطى النصيحة بضرورة بشكل جيد مع الجار .

لقد أصبح الناس يهتمون بالجيرة الحسنة ، وهذا ما انعكس في
الشعر العربي ، إذ يدعو الكثيرون من الشعراء إلى حسن اختيار الجار
الحسن . والجار السيء يكون سبب يبيع « الدار » ، والانتقال إلى
جار أفضل (١) .

وأصبح الحنين إلى الأشخاص ، فيما بعد ، الموضوع العادي للرسائل
الاخوانية (٢) . وخلافاً لما قلناه سابقاً يعثر على أشعار لشعراء يقفون ضد
« الجيرة » ويرون الخـير في الزياره فقط ، لا في التعامل مع الجار
باستمرار :

لا تطُلبَنَّ دُؤُوداً رٍ منْ خليلٍ أومُعاشِرِ
أبقى لأسبابِ المودِّ ةِ أنْ تزورَ ولا تُجاوِرِ

وقال أحمد بن اسماعيل بن الخصيب : شكا إلى ميمون بن هارون
بعد داره إذا أراد زيارتي ، فقلت : من هذا المنزل أقصدك إذا زرتك ،
ثم كتبت إليه :

١ - هناك أيضاً ، ص ١٧٦ .

٢ - انظر ميثز ، ص ٢٠٧ .

لا تجلِسَنَّ بُعْدَ داري مُخَسِّسًا لِنَصِي
فَرُبَّ شَخْصٍ بَعِيدٍ إِلَى الْفَوَادِ قَرِيبِ
وَرُبَّ شَخْصٍ قَرِيبٍ إِلَيْهِ غَيْرِ حَبِيبِ
مَا الْبُعْدُ وَالْقَرْبُ إِلَّا مَا كَانَ بَيْنَ الْقُلُوبِ (١)

وبغض النظر عن بكاء أسامة أهله في الكثير من أشعار ديوانه ،
فانه في هذا الفصل من كتاب « المنازل والديار » ، قد قدم مقطوعة
واحدة ، تشرح - على حد قوله - حالاً صحيحة ، لا على مذاهب الشعراء ،
وذلك لانه مر به قول الرسول : [من زار قبر أبويه ، أو أحدهما في
كل جمعة غفر له ، وكتب برأ] ، فأسفه ما حرمه من زيارتهما ، لشتات
شملهم أحياء وأمواتاً فقال :

نافستني صروف دهرِي في الفوز زِيرَ الْآبَاءِ فِي الرَّجَمِ
لو كنتُ أسطيعُ أن أزورَّها مشياً على الرأس لا القدمِ
بأدرتُ أمشي إلى ثَرَى جَدَّتِي أعزَّ أَهْلِي عَلَيَّ كَالْقَلَمِ
لكن بمصر قبرٌ وفي شيزرٍ قَبْرٌ وَدَارِي بِمَنْتَأَى الْعَجَمِ
والظلمُ في الأرض ما يفي كلَّ ما أبغيه حتى زيارة الرَّمَمِ
وما ظننتُ الذي لقيتُ من الدُّ دُنْيَا تَرَاهُ عَيْنَايَ فِي الْحُلُمِ (٢)

١ - المنازل ، ص ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ - ٢٩٨ ، ٣٠٩ - ٣١٩ ،

٣٢٩ - ٣٣٧ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ - ٣٥٣ .

٢ - المنازل ، ص ، ٤١٩ .

في ختام دراستنا وتحليلنا يمكن القول أن كل المقطوعات المساقاة في هذا الفصل « فصل الاهل والاخوان » هي مقطوعات في رثاء أخ ، أو صديق ، أو أهل ، أو عشيرة ، فيها الحسرة على المفقود ، وبكاء مرير ، وتجلى وصبر طالما أن الموت قدر كل انسان ، ونهايته ، وضعف في الصبر أحياناً ، إذ المصاب كبير خطير ؛ ووصف للورثي بالكرم والشجاعة والقدرة . الدهر لا يخطيء ، والناس من تراب وإلى تراب يعودون ، مع دعاء بالسقيا للقبور ، وتوهم وتفجع .

ولا يلاحظ اختلاف بارز بين الشعراء ، وعلى امتداد المصور ، في تناولهم هذا الموضوع « بكاء الاهل والاخوان » .

وربما كان التشابه بين الشعراء في هذا نتيجة لوحدة التعبير عن الآلام ، والحزن على الموتى والشهداء ، عند جميع الشعوب ، وفي مختلف العصور .



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفضل الثالث

الحنين الى الوطن والمواطنيين

لقد كانت التجمعات الاسلامية الناشئة في المواطن الجديدة نتيجة من نتائج هجرة العرب من جزيرتهم ، ودخول مواطني هذه البلاد الاصليين في الاسلام . ولهذا فان تطور الادب العربي في هذه المناطق مرتبط بانتقال العرب إليها ، وبانتشار لغتهم هناك .

والجزيرة العربية - مهد العرب الاول وموطنهم - ليست فقط صحراء كما تصور ذلك الاشعار الاسلاميه ، عندما تتحدث عن وطن العرب الاول ؛ الامطار في الشمال غير منتظمة ، لكنها أحياناً كثيرة ، وكانت غزيرة ، بسيول عارمة غالباً ما هددت مكة والمدينة (١) لكنها كانت سيياً في توليد حياة زراعية ضعيفة ، حيث إن القسم الاكبر من الارض إنما كان واحات صالحة لرعي الماشية فقط . أما في الجنوب ، في عسير واليمن ، فان المناخ المطر ، على العكس ، كان سيياً في نشوء حياة زراعية راقية منتظمة .

كل هذا كان سيياً في نشوء نوعين من طراز الحياة عند العرب - « اما حياة استقرار ، وإما حياة تنقل وترحال » ، إلى جانب التجارة الناشئة بسبب موقع الجزيرة من العالم القديم المتحضر .

ولم تكن القبائل قبل الاسلام دائماً منعزلة بعضها عن بعض ، ولا متعادية على الدوام ، ذلك لان الحركة الدائمة في انتقال القبائل ، كانت

١ - البلاذري ، فتوح ، ص ٥٣ - ٥٥ . « سيول مكة » ، (طبعة بريل) .

سبباً في تقاربها بالجوار والمواسم والاحلاف . ويعثر على حوادث انتقال الفرد - في التبعية - من قبيلة إلى أخرى^(١) ، ومشهور أيضاً الانتقال الجماعي للعرب من الجنوب بعد دمار سد مأرب ؛ « فصار كل فخذ منهم إلى بلد ، فمنهم من خرج إلى العراق ، ومنهم من سار إلى الشام »^(٢) .

في الماضي القديم ، حيث كان لليمنيين دولتهم الخاصة ، وأدبهم ، وكتاباتهم الخاصة ، عاش العدنانيون ، في الشمال على شكل قبائل متفرعة ، لا تربطها وحدة عامة تؤلف بينها ، وتكوّن منها شعباً متحداً منظماً تقوم به دولة عربية كدولتي الفرس والروم اللتين عاصرتا العرب في ذلك الوقت . لقد عاشت كل قبيلة مستقلة إلى حد ما ، فأنحصر الفرد في القبيلة وكانت بالنسبة له كالدولة بالنسبة للإنسان الحديث . ولذلك فتبعية العرب الشماليين حملت الطابع القبلي ، لا الوطني الشامل .

وسمى علماء الاجناس والانساب أصل القبائل العربية - [الاصول الكبرى في انساب العرب] - ، كعدنان وقحطان - شعوباً^(٣) ، وأجذاماً^(٤) . أما فيما بعد ، في الاعمال العلمية ، فاننا نعثر على الترتيب

١ - المسعودي ، التنبيه ، ص ٢٠٧ ، يتحدثنا عن حاتم الطائي ، كيف ترك قبيلته ، والتحق ببني فزارة ، ومدحهم .

٢ - الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٠٦ - ٢١٠ .

٣ - العقد الفريد ، ح . III ، ص ٣٣٣ (١٩٤٠) ؛ النعمري ، الانباه ، ص ٤٥ ؛ نشوان ، منتخبات ، ص ٥٥ .

٤ - النويري ، ح . II ، ص ٢٣٥ ؛ ابن حزم ، جمهرة ، ص ٦ .

التالي لطبقات النسب ، [شعب ، قبيلة ، عمارة ، بطن ، فخذ ، عشيرة ،
فصيلة]^(١) . وإضافة إلى رابطة الدم المباشرة غدت المصالح ، والرغبات
المتبادلة المشتركة ضرورة جداً لحفظ القبيلة ، وتأمين ظروف البقاء ،
واستمرارها . ولذا فقد غدا في تعداد القبيلة ، إلى جانب العرب الاصلاء ،
الموالي أيضاً ، إذ لم تعد رابطة الدم وحدها كافية^(٢) .

وغالباً ما تصادف الألفاظ التي تدل على « التجمعات القبيلة » في
أشعار الشعراء الجاهليين والاسلاميين لكن الشعراء ، باستعمالهم هذه
الألفاظ ، لم يقصدوا التحديدات الدقيقة التي أكدها علماء النسب^(٣) .

١ - العقد الفريد ، ح . III ، ص ٣٣٥ (١٩٤٠) .

٢ - انظر : R.S Mith ; P . H ، وقف الباحث روبرتسن سميث
طويلاً عند رابطة الدم هذه ، ويرى أن الجماعة القائمة على وحدة
الدم هي أكثر قدماً في المجتمع السامي ، وأن إطلاق (الحي) على
الجماعة التي هي من دم واحد يعلل بالبدء السامي القائل بأن حياة
الجسد ثلوية في الدم .

٣ - النقائض ، ح . II ، ص ٦١٢ . الفرزدق مثلاً وهو يتكلم عن
قبيلته (بني تميم) يدعوهم (عمارة) : (وإني وإن كانت تميم
عمارتي) في نفس الوقت في مكان آخر سن هذه النقائض ، (ح .
II ، ص ٩١٧) ، وهو يتكلم عن (بني سعد) وهم فرع من
بني تميم يسميهم قبائل : لعلمت أن قبائلاً وقبائلاً من آل سعد لم
تدن لأمير .

ومن الشعر العربي يرى بأن لفظي « قبيلة » و « حي » قد استعملتا أكثر من غيرهما ، وكانتا تدلان على مطلق أبناء القوم ، قلوباً أو كثراً ، وعني بهما عامة « مجموعة من الناس » تحتوي على أقرباء الدم من الجنسين ، ومن مختلف الأعمار ، وكذلك الأبناء بالتبني ، بغض النظر عن كون عددهم كبيراً أو صغيراً (١) .

وانطلاقاً من التوزيع الجغرافي للقبائل العربية يلاحظ أنه كان عند كل قبيلة مكان محدد من الأرض ، حيث تعيش (٢) وفي حالات انتقال القبيلة ، فانها كانت تتحرك في مجال هذا المكان ، أو تتركه عاملة إلى مكان آخر ، حيث يصبح هذا بالنسبة لها موطناً جديداً . وعلى أساس هذه الحقيقة الحياتية يمكن القول بأن الوطن بالنسبة للقبيلة ولشاعرها ماهو إلا ذلك المكان المحدد ، الذي توجد فيه القبيلة في هذه اللحظة التاريخية المعينة .

أهل المواطن ، حسب التحديد القبلي ، هم أقرباؤه على الأغلب : والوالى ، والتابعون للقبيلة ، ونتيجة لهذا كانت القبيلة العربية وكأنها صورة مصغرة للدولة العامة ، وشاعرها - « صحيفة القبيلة » الرسمية ، التي تظهر برابطة الدم والمصالح المشتركة ، وتضم أفراد القبيلة في إطار واحد ، فيشعر كل فرد في القبيلة أنه مسؤول عن جماعته ، كما أن القبيلة كلها تشعر أنها مسؤولة عن كل فرد ينتمي إليها .

وتذكرنا العصبية في المجتمعات القبلية بالاتجاهات القومية الغالبة

١ - النص ، إ . ، العصبية ص ٦١ .

٢ - أمين ، إ . ، فجر الاسلام ، ص ٨ .

المتعصبة في النظام السياسي الحديث (١) ، فكما أن القومية المتطرفة تتعصب لجنسها وتمتد بتفوقها على مائر القوميات ، فكذلك العصبية القبلية تقوم على هذه العقيدة الشوفينية . والعصبية القبلية تنافي الشعور القومي ، لأن من شأنها تجزئة الجنس الواحد (الأمة الواحدة) . لكنها رغم كل هذا كانت متنفساً للعربي في الولاء ، كما يرتبط الانسان المعاصر بفكرة الوطن أو القومية أو المذهب السياسي .

إلى جانب هذا النظام القبلي في الجزيرة العربية قبل الاسلام كان أيضاً نظام اجتماعي آخر ، متمركز في الامارات ، والممالك العربية ، التي أقامها المناذر والفساسنة والكنديون ثم قريش في مكة . في هذه الامارات ، بصورة خاصة واضحة ، يظهر المفهوم الاوضح عن [الشعب ، والاقليم ، والسيادة ، والوطن] ، ذلك المفهوم الخارج عن نطاق التصورات القبلية .

وبعجيء الرسول حدثت الهزة العنيفة في هذا التركيب الاجتماعي ، والتوضع الاقتصادي في حياة العرب . فالنظام الذي ظهر بظور الاسلام وبعده ، أنكر ، نصاً وروحاً ، العلاقات والمفاهيم القبلية القديمة ، ووضع البداية ، على أقل تقدير في الأفكار ، للعلاقات الأخوية بين القبائل . إذ إن أقوال الرسول وأحاديثه وأفكاره نفت كلها العصبية ، وهذا ما جر إلى بداية التقارب بين القبائل ، هذا التقارب واللقاء المرتكزين على العقيدة ، والدعوة ، ووحدة الله ، ووحدة العلقوس الدينية ، والمساواة والتقوى . لقد قام كل هذا مقام الدم ، والتنافر ، والنسب ، والتمشتت والافتراق .

وأخذ الاعتبار القبلي يبدأ بالاضمحلال ليحل محله الاعتبار العربي ثم الانساني ، إذ «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» ، والناس جميعاً كأسنان المشط ، لا امتياز لقبيلة أو جنس . حتى إن الرسول نفسه قد ترك قبيلته قريش ، وهاجر إلى الأوس والخزرج وبدأ القتال ضد أقربائه ، ثم إنه بدأ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . لكن هذا كله لم يقو على سحق العصبية القبلية ، وهذا ما تؤيده الأشعار المكتوبة إلى الرسول من قبل وفود القبائل المختلفة [إذ لم تدخل الإسلام بعد] ، إن هذه الأشعار - أشعار الوفود - مثال للشعر القبلي الجاهلي .

لكن ما أن توفي الرسول الكريم حتى اتخذ هذا التناحر طابعاً آخر : مهاجرين وأنصار ، بني هاشم وبني سفيان .. الخ . إلا أن هذا لم يمنع من توسيع الأطوار ، والمساهمة في الاختلاط بين هذه القبائل العربية ، فكان لحروب الردة الأثر الأكبر في هذا الاختلاط ، وفي تقسيم المجتمع ، بشكل جديد . إذ انقسم كل العرب المسلمين بعلاقتهم مع الديانة إلى شطرين كبيرين : [المؤمنين والمرتدين] ، في نفس الوقت الذي حوى فيه كل شطر قبائل متنوعة . هذا ما خدم العلاقة الأقوى بين تجمعات القبائل العربية ، وأدى إلى ظهور نظام جديد في العلاقات الاجتماعية . لكن هذا لم ينف تماماً روح العصبية القبلية ، التي حملتها أيضاً هذه الحروب - حرب الردة .

هذا الخطيئة يقول :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثها بكر ، إذامات، بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

الجيوش التي تشكلت بعد وفاة الرسول وجهت من الخلافة الإسلامية إلى اليمن ، والبحرين ، وعمان ونجد ، وظفرت وانتصرت . وإذ بالجنود لا يعودون جميعاً إلى قبائلهم ، كثير منهم بقي بعد الفتح الإسلامي في البلاد المفتوحة ، ومن جديد بدؤوا بتفاعلهم مع هذه المجتمعات الجديدة التي أنشئوها (١) . وفي هذا المجتمع الجديد حدثت حوادث المزج بين جيوش الخلافة والعرب القدماء ، الذين كانوا مقيمين في هذه البلاد المفتوحة قبل مجيء هذه الجيوش .

نتيجة لهذه الحياة المشتركة (الموحدة) كانت حوادث زواج متنوعة بين مختلف القبائل (٢) ، هذا التزاوج الذي قاد إلى تكوين وتشكيل جيل جديد ، ذلك الجيل الذي أثر بشكل فعال على تكوين ذلك المجتمع الجديد .

في مرحلة الدعوة الإسلامية وفي مجرى الفتوحات الإسلامية ، استمر - أيضاً - هذا التمازج بين القبائل العربية . وبغض النظر عن كون التاريخ لم يحفظ لنا معلومات دقيقة محددة ، بغض النظر عن هذه

١ - الطبري ، المجموعة الاولى ، ح . ١٧ ، ص ، ١٩٧٤ وما بعد :

[فرجع إلا من أحب المقام] .

٢ - الطبري ، المجموعة الاولى I ، ح . ٧ ، ص ٢٣٦٣ - ٢٣٦٤ .

الحقيقة ، فإن كل المصادر في حوزتنا تسمح لنا أن نقرر بأن الخلافة لم تعتمد على قبيلة معينة في هذه الفتوح ، والخليفة لم يأمر قبيلة بذاتها ويلزمها على الجهاد، أي لم يتخذ الانتداب شكلاً قلياً ، بل اعتمد على التطوع الاختياري من القبائل جميعها ، إذ بعث الخليفة إلى القبائل والمدن يستنصرها ويرغبها في الجهاد فتوافد عليه الجموع ، وبصرفها في الوجهة التي يراها^(١) .

هذا الجمع بين القبائل (التوحيد) ساعد على امتزاج قبائل مختلفة وتشكيلها مجتمعة قوة عسكرية (واحدة) ، ذلك لأن ظروف الحرب تطلبت تعاوناً مشتركاً من قبل جميع المحاربين ، وترك العصبية القبلية ، والعداء القبلي والسمو بالروح الفالحة من نطاق القبيلة إلى التجمع من مختلف القبائل^(٢) . لقد أثرت هذه الظروف كلها على تشكل تجمع جديد [قوم] ، وقادت إلى حياة الاستقرار ، ونأكيد العيش في مناطق محددة ، كما أدت أيضاً إلى تدعيم نموذج الحياة في المدن .

ولم تكن غلبة قبيلة على أخرى في جيش خالد بن الوليد ، الذي فتح العراق ، بل على العكس ، فقد تميز هذا الجيش بوحدة القبائل ، وتآلف من صفوف المسلمين المقاتلين . ثم ظهرت التجمعات المدنية [في المدن] ، القرية بعضها من بعض ، مما أثر بشكل أقوى في تدعيم العلاقات بينها . إضافة إلى هذا فقد وحد هذه التجمعات من مختلف

١ - الطبري ، المجموعة الاولى ١ ، > . ٧ ، ص ٢٧١٤ .

٢ - الطبري ، المجموعة الاولى ١ ، > . ٧ ، ص ١٣٦٣ .

القبائل ؛ المسجد الواحد ، وممارسة الطقوس والفروض الدينية الواحدة .
شعر كل الناس بأنهم أعضاء مجتمع واحد ، وأبناء هذه البلدة في وقت
واحد ، ونتيجة لمثل هذه التوحيد بين القبائل ظهرت مصطلحات ، مثلاً :
أهل البصرة ، أهل الكوفة ، أهل العراق .. الخ ..

من الضروري أن نؤكد الحقيقة التالية : وهي أنه بعد كل هذه
الحوادث والتغيرات توسعت المصادمات والاتصالات والتمزج مع الشعوب
الآخرى ، وبصورة خاصة مع الفرس ، ذلك لأنه بعد انتصار جيوش
الخلافة فإن معظم البيزنطيين تركوا الاقطار التي فتحها العرب ، اكن
الفرس ، بصورة أساسية ، بقوا ، ولم يترك هذه الديار المفتوحة منهم إلا
الاغنياء ، والطبقة الحاكمة ...

بعد مقتل عثمان وقع الخلاف بين أهل الشام وأهل العراق ، بين
المهاشمين ، والأمويين ، وظهر التشيع السياسي : أنصار علي ، أنصار
الأمويين ، الخوارج ... الخ ... هذا التشيع قاد إلى ظهور الأحزاب
السياسية فيما بعد ، مما أدى إلى إضعاف الشعور القبلي ، وإلى تقوية التبعية
للأحزاب الناشئة والالتزام بها ، لكن رغم هذا فقد كانت العودة إلى
الجاهلية في العلاقة قد ظهرت وبقوة في عهد بني أمية، فلم تعد العصبية
للبنين أو للرهط بل غدت للشعب ، أو الجذم - للدنانية أو القحطانية ،
مما أدى بدوره إلى توسع رقعة الارتباط - ارتباط الانسان بغيره ، وساعد
على ظهور المشاعر القومية بمفهومها الأولي البسيط ، تلك المشاعر التي
كانت تطفئ على المشاعر القبلية بصورة قوية حية - خاصة عند اصطدام
العرب بالعناصر الأعجمية الأخرى .

لقد بلغ الصراع بين العرب والشعوب الأخرى درجة كبيرة من الحدة عندما نهضت الدعوة العباسية ضد الأمويين للاستيلاء على السلطة . وكان [الشعوب القومي] يقوى عندما يظهر خطر هجوم شعوب أخرى على العرب، مستلمي السلطة ، أو على السلطة العربية.

من المثير أن نلاحظ أنه عند بعض الشعراء العرب تظهر علامات التنبه واليقظة ضد خطر الصراع الداخلي ، ودعوة العرب جميعاً للوحدة ضد العدو . هذا مثلاً ، ما قاله القائد العسكري نصر بن سيار ، عندما توجه إلى القبائل المتقاتلة فيما بينها :

أبلغ ربيعة في مروٍ وأخوتهم فليغضِبُوا قبل أن لا ينفع الغضب
واينصِبُوا الحرب إن القوم قد نصبوا

حرباً يحرق في حافاتها الخُطَبُ

مابالكم تلحقون الحرب بينكم كأن أهل الحجا عن رأيكم عذب
وتتركون عدواً قد أظلمكم مما تأشَّب لادين ولا حسب
فمن يك سائلاً عن أهل دينهم فان دينهم أن يُقتل العرب

لقد قام حكم بني العباس على أنقاض التناحرات العصبية ، وعلى اكتناف الفرس ، وزاد ظهور المنصر الاجنبي في الحكم بعد أن كان شبه عربي خالص . واتصف العصر العباسي بتمازج وتبادل الثقافات - ثقافات الشعوب المختلفة . وطبعت الخلافة بطابع إسلامي بدرجة واضحة ، أكثر

من الصفة العربية . وتوسعت حدود الخلافة ، وغدا الناس يتقلون بكل حرية من طرف إلى آخر ضمن هذه الدولة ،

كل هذا قد ترك أثراً على معتقدات ، وتطلعات الناس ، وحياتهم الاجتماعية ، أو على فهم الوطن ، والوطنية ، والمواطنة ، كوحدة جامعة اجتماعية ، وهذا أوجد انعكاساً وصدى في الشعر العربي .

إن ارتباط الانسان مع الأرض يمكن رصده من ارتباط مادي عضوي ، كارتباط النبات بها ، إلى ارتباط معنوي ، حين اتصل بقضايا الحرية : « لا وطن بلا حرية ولا حرية بلا وطن » . وأحياناً يصبـح شعور الوطن بشكل مباشر متعلقاً بمفهوم الفقر والغنى ؛ « الفقر في الوطن غربة ، والغنى في الغربة يزيل شعور الاغتراب عن الأرض » . لكن ، بغض النظر عن هذا ، فإن الأرض التي ولد عليها الانسان وفيها نشأ وترعرع ، تشده إليها دوماً ، معها تطورت مفاهيمه عن الوطن ، ومهما حاول الاغتراب والتنقل والارتحال .

إن جذور هذا الاغتراب قديمة في الشعر العربي ، إذ إن العربي قد حمل ضروباً من الاحساس بالغربة في هذه الصحراء المترامية ، وربما كانت اسطورة الحارث الجرهمي - التي يذكرها وهب بن منبه في كتاب التيجان ، وتصور زوال الجراهمة ، وبقاء ، الحارث وحده في التيمه والغربة - في الواقع رمزاً لحياة العربي التي تضرب في المتاهات بلا انقطاع ، ورحيله الذي لا يهدأ وراء المطر والكأ . ولذلك كانت مطالع القصائد

الجاهلية في كثير من الأحيان حديثاً عن الأطلال - بقايا وطنه المهجور-،
وإحساساً بالفربة بعد الأُنس ، وحنيناً طويلاً إلى ديار أحبابه الراحلين ،
الذين هم بالنسبة له كأبناء ، الوطن بالنسبة للمعاصر .

إن الشاعر الجاهلي « مواطن » قبل يسخر كل شيء في مسـبب
قبيلته والدفاع عنها ، ويتجلى هذا في المملقات وبخاصة مملقتي عمرو بن
كثوم والحارث بن حازة ، فكلماتها سجل للقبيلة ، ومرآة لما أثرها ،
وهذا عبيد بن الأبرص يقول في مملقته :

أقفر من أهله محلوب فالتقطيئات فالدَّنُوب
وبُدلت منهم وحوشاً وغيَّرت حالها الخطوب
فكل ذي نعمة مخلوس وكل ذي أمل مكذوب

لا شك أن الاقفار والجذب هنا صورة لانعكاس المنظر على نفسية
الشاعر الذي أحس بتبدل المسكان ، وامتلائه بالوحوش . فهو ينقل الطرف،
مستوحشاً ، بين محلوب فالتقطيان ، فلا يجد إلا الامل الضائع . وتكرر
نفس الصورة فيما حلقناه من مطالع ومقدمات طلمية : فعند ابيد قد عفت
الديار ، وبذلك تقطعت الاسباب بينه وبين نوار ، وانظفت الحياة في
هذه الارحاء :

عَفَتِ الدِّيارَ مَحَلُّها فمقامُها بِمُنَى تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها
فمدافعُ الرِّيانِ عُرِّيَ رسمُها خَلَقًا كاضَمِنَ الوُحى سِلامُها

بل ماتَذَكَّرُ مِنْ نَوَارٍ وَقَدْنَاتٍ ° وَتَفْظَعَتْ ° أَسْبَابُهَا وَرِمَامُهَا (١)

وفي معلقة النابغة أقوت الدار ، وما بالربع من أحد ، وأضحت
خلاء بعد الانس ، والحركة ، والحياة ، لا رجعة لكل هذه الاحلام ،
لأنها جزء من الماضي ، الذي ابتلعه العدم :

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالْسِّنَدِ أَقَوْتُ ، وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبَدِ
وَقَفْتُ فِيهَا أَصِيلًا لَا أَسَائِلُهَا أَعَيْتُ جَوَابًا ، وَمَا لِرَبْعٍ مِنْ أَحَدٍ
أَضَحَتْ قِفَارًا ، وَأَضْحَى أَهْلُهَا احْتَمَلُوا
أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى ابْنِ عَبْدِ (٢)

ويعبر ذو الرمة - الشاعر الاموي - في شعره تعبيراً أشد وأقوى
عن هذه الوحشة :

١ - الزوزني ، شرح المعلقات . ص ٢٠٤ . [منى : موضع ؛ تأبّد :
توخش ؛ الغول والرجام : جبلان ؛ المدافع : أما كن يندفع
عنها الماء ؛ الريان : جبل معروف ؛ الوحي : الكتابة ؛
السلام : الحجارة ؛ الرمام : جمع الرمه وهي قطعة من الجبل خلقة
ضعيفة] .

٢ - المنازل ، ص ٣١٥ ؛ ديوان النابغة ، ص ٣٣ ،
[القاجرة] .

عشية مالي حيلة غير أني بلقط الحصى والخط في الدار مولى
أخط وأحو الخط ، ثم أعيده بكفّي ، والغربان في الدار وقع

فقد صور نفسه وحيداً في العراء إلى جوار بقايا الاطلال ، تبعث
يده بالحصى كأنما هي قطع من الذكريات يامسها ، فيثيره الحنين ، ولكن
إيماءً قوياً بالكتابة والغربة يأتي من توقيع الغربان ، وهي تنطق في رتبة
مذكرة الشاعر بأنه أمام بقايا دارسة لا حياة فيها . فلاغتراب هنا كامن
في فقدان الاحباب والاهل وفي دمار الوطن ، أو أنه معادل موضوعي
للعقم والجذب والعدم ، وهذه حقيقة كبيرة في بيئة الشاعر القاحلة التي
لا تعرف الخصب والعطاء . ومحاولة التخلص الوحيد لديه هي : الرحيل
على ناقته ، وكأنه يقابل الغربة باغتراب آخر كما علمته الصحراء (١) .

وربما كان امرؤ القيس ، وعنترة أكثر شعراء المعلقات شوقاً وحنيناً
وإحساساً بالغربة . فقد هام امرؤ القيس شريداً يبحث ضمن يستعين به
في استرداد ملك أبيه ، ولأخذ بثأره حتى وصل بلاد الروم ، وهناك
أحس بقرب منيته بعد أن امتلأ جسمه بالقروح . [لقد سبق امرؤ
القيس ، إلى أشياء ابتدعها ، واستحسنها العرب . واتبعه عليها الشعراء
كاستيقاف صحبه في الديار (٢)] .

١ - المنازل ، ص ، ١٦١ - ١٦٢ ؛ ديوان ذي الرمة ،
ص ، ٤٣١ .

٢ - ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص ، ٥٢ (بريل ١٩٠٤) . مع
اختلاف في تحديد أول من وقف على الديار ، وبكها .

وهو في أنقرة رأى قبراً لامرأة من بنات ملوك الروم هلكت
هناك ، فقال وهو يشعر بقرب موته :

أجارتنا إنَّ المزار قريبٌ وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إننا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب (١)

أما الشاعر الثاني - عنتره فهو غريب بين أهله ، إنه عبد أسود ،
فاغترأ به نفسي ، حين تنكر له أبوه وعمه ، وقامى الأمرين من لونه
وعبوديته ، أبه عبد وعبوديته وقفت حائلاً في وجه حبه . إننا عندما
نسمعه يقول :

العبد عبدكم والمال مالكم فهل عذابك عني اليوم مصروف (٢)

ندرك إحساسه بالهوان والضياع ، وكذا الأمر عندما يهتف « أنا
الـهـجـين عنتره ... » إن هذا لون من اغتراب الفرد في البيئة التي
يعيش فيها .

أما الأعشى فرغم تطوافه الطويل في البلاد ، واختلاطه إلى الملوك
لم يكن لينسى قومه ، ولا يخفي اشتياقه إليهم :

« إنني منهم وإيهم قـو مي وإني إليهم مشتاق (٣)

١ - ابن قتيبة ، الشعر والشعراء . ص ٤٠ ، ٤٧ ، (ربيل، ١٩٠٤) .

٢ - الاغاني ، ج VIII .

٣ - ديوان الأعشى ، ص ٢١٣ (طبعة لندن ، ص ١٤٣) .

الغربة والوحشة والحنين كانوا على أشدهم عند ذي الاصبع المدواني الذي فنيت قبيلته بتخاصمها مع بعضها ، فكان فناؤها مصدر ألم وحنين وتفن بماضيها وقوتها وشجاعتها وملكيها ، ولقد شاركته في بكاء هذه المفاجعة ابنته أمانة الشاعرة ، التي تحسرت على هؤلاء الفتيان من قومها الذين هلكوا لجهااتهم وطيشهم ، فتساقوا كأسهم بينهم ظلماً ، وتبكي معهم أوطانهم - أوطانها ، التي ضلت بعد إبانتهم رسماً مقفراً دائراً (١) .

ولقد ظهر في الشعر التعبير عن محاولة هجر الأرض [أرض الوطن] إلى مكان آخر من أجل البحث عن مصادر الرزق والحياة :

دعيني للغني أسعى^{مسعى} فأنني رأيتُ الناس شرهم الفقير (٢)

وملك هذا البيت الشعري بألفاظه قوة عجيبة حتى إن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب منع معلم ولده من أن يروي لهم القصيدة التي منها هذا البيت ، لأنها تدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم (٣) .

وكانت هذه الدعوة بارزة عند الشعراء الصعاليك قبل الإسلام ، رغم أن هؤلاء الشعراء قد قاسوا الويلات في حياتهم في الغربة . إن كل الذين عاشوا بعيدين عن وطنهم ، عن مساقط رؤوسهم حسبوا وقتها هالكين ، فقراء ، مخلوعين ، خارج نطاق قبائلهم ، هائمين في مختلف

١ - الأغاني ، ج . III ، ص ٨٩ - ١٠٨ (دار الكتب) .

٢ - الأغاني ، ج . III ، ص ٧٣ - ٨٨ (دار الكتب) . شعر عروة ابن الورد .

٣ - الأغاني ، ج . III ، ص ٧٣ - ٨٨ (دار الكتب) .

أصقاع الأرض . ولهذا يحس بتلك المرارة التي تفيض فيها مشاعرهم
وأشعارهم . وهم يهيمون على وجوههم في الفلوات ، أحراراً ، فيما يبدو ،
لكنهم في الواقع مشردون غرباء . لقد ترك هذا الخلع في نفوسهم أثراً
عظيماً سجلته أشعارهم المشحونة بأشجان الغربة ، ووطأة الوحدة النفسية ،
وقوة الحرمان من «السكن والأهل والديار» . حتى إن سلوكهم نفسه كان
يخفي وراءه الاستهانة بالحياة ، والانطلاق في الفضاء العريض ، والمغامرة
الفتاكة المثيرة ، لقد كان هذا سخرية مريرة من الحرية الفردية ، وشعوراً
عميقاً بالتمزق والضياع .

ولامية الشننري تعبق بهذه المشاعر ، مشاعر التمزق والضياع ،
حيث حاول التكيف مع وحش الصحراء بعد أن فقد الأهل ، وذاق
مراره الغربة عن الديار (١) .

أقيموا بني أمي صدور مطيكم	فإني إلى القوم سواكم لأميل
أديم مطال الجوع حتى أميته	وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف الأرض كي لا يرى له	علي من الطول امرؤ متطوّل

هذا الاحساس بالمرارة الطبيعي ، لأن التضامن في سبيل العيش قد
جعل العرب يقدسون الحياة القبلية ، والشعور بالوحدة القبلية شعور عميق
الجزور في نفوس العرب . فالخلفاء الذين فروا إلى الصحراء مشردين ،

لا بد إلا أن يقاسوا من الاحساس بالغرابة، والحزن العارم إلى حياة الجماعة،
مهما صقلت حياة الوحدة من شخصياتهم . فناقاة أبي الطمحسان مثلاً قد
حنت تذكر أرماءاً فذكرته بمشهره :

ألا حنت المرقال واثب ربثها تذكر أرماءاً وأذكر معشري (١)

والواقع إن هذا الاغتراب بهذه الصورة القاسية ، أو النفى ، كثيراً
ما كانا يدفعان المرء إلى اليأس حتى تمى الموت ، فقد وصل الشنفرى إلى
مرحلة اللامبالاة : « إذا ما أتنى منيتى لم أبالها » ، وفي المبالاة ؟ حتى
بوته إن يتفجع الاقرباء عليه ، كما أنهم لم يتفجعوا عليه في وحدته « ولم
تذر خلاتي الدموع وعمتي . » (٢)

على أن معنى الاغتراب يتطور أيضاً في الجاهلية ، فلا يتوقف عند
الشعور بالوحشة في الرحيل ، والبعد المكاني ، بل يتعدى ذلك إلى الشعور
بالغرابة في البعد عن مجد القبيلة السابق ، ذلك لأن أوقات عظمة ومالك
هؤلاء الناس قد غدت بعيدة . فالحياة القبلية كانت مقدسة ، ذلك لأن
الانسان الواقع خارج دائرة العلاقات بين الناس ، خارج المجتمع ، كان
معرضاً للهلاك ، وكان هذا الوضع ميباً في التألم والخوف ، والحزن إلى
الحياة السابقة النشيطة في مجتمع الاهل والاقرباء . واقد ظهرت كل هذه
المشاعر عند الشاعر الجاهلي ليس فقط بمشاعر الغربة والوحشة في الرحيل ،
أو الاحساس بالضياع في مضارب الوحش بعيداً عن الرابطة القبلية ،

١ - ابن قتيبة ، ص ٢٢٩ ؛ الأغانى ، ح . XIII ، ص ١٣
(دار الكتب) .

٢ - انظر ، لامية العرب .

أو غير ذلك ، بل تعدت ذلك إلى الشعور بالغربة .- عزبة الوحدة ،
والانعزال بعد الموت في القبر . وهذه أبعد صور الاغتراب إمعاناً في الرهبة
والجزع ، كما ظهر هذا في أشعار : أبيد ، والحارث بن حلزة، والذبياني .
لأن الانسان ، بنظارهم ، قد يستعين على اغترابه بالرحيل وينسى به أشجانته ،
وقد يأنس إلى وحش الصحراء كما أنس الصعاليك ، وقد يتخلص من
اغتراب العبودية واللون حين تمنحه الطبيعة قوة وذكاء يصارع بها حتى
يظفر بالخلاص كما فعل عنتره ، لكن غربة الموت لا أنيس فيها ، ولا
أمل في الخلاص منها على أية حال . إنها النهاية الحتمية الطبيعية لكل
انسان ، التي لا مفر منها : « كفى بالموت نأياً واغتراباً » (١) ، وبهذا
المعنى كتب الطاهر بن جابر :

ألا عللاني قبل نوح النوائح	وقبل ارتقاء النفس بين الجوائح
وبعد غدٍ ، يالهف نفسي على غدٍ	إذا راح أصحابي ولست بُرائح
إذا راح أصحابي تفيض دموعهم	وغودرت في لحدٍ علي صفائحي
يقولون هل أصلحتهم لأخيكهم	وما للحد في الأرض الفضاء بصالح

وهكذا ، فأكثر ما يخشاه الشاعر من الموت وحده ، إذ بعد
فراق الاهل والاصحاب يتركونه وحيداً في العراء .

والظروف الاجتماعية ، بل للوضع الحضاري الاثر الاكبر في نوعية

دوافع الاعتتاب ومبررات الحنين ، إذ نجد في بيئة ثانية دوافع أخرى
للغربة وصوراً للحنين مختلفة ، فالشعراء الذين عاشوا في العراق ، كابن
جعفر مثلاً ، نعوأ وحنوا إلى قصور (آل محرق) : الخورنق والسدير ،
لا إلى الاطلاع والرسوم :

ماذا أوئل بعد آل محرق تركوا منازلهم على ميعاد
أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد
جرت الرياح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد (١)

لقد أشرنا سابقاً إلى أن النزعة العربية (القومية) تظهر إلى جانب
النزعة القبلية - عندما يكون الصدام مع الاعاجم ، فمثلاً أعشى قيس
يفتخر بيوم ذي قار الذي كان لبكر على المعجم (على كسرى وجند
الفرس) مذكراً بأجداد بكر الماضية :

أمّا تميم فقد ذافت عداوتنا وقيس عيلان سألخزي والأسف
وجند كسرى غداة الجنو صبّحهم

متأ غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لو أن كل معد كان شاركنا في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف (٢)

١ - الأغاني ، ج . XIII ، ص ١٧ (دار الكتب) .

٢ - العقد الفريد ، ج . III ، ص ٨٢ ؛ ديوان الأعشى ، ص ٢١٠ .

وفي هذا المعنى يقول العدیل العجلی :

وما يَعْدُونَ من يوم سمعتُ به للناس أفضل من يوم بذى قار
ما أوقد الناس من نار لمكرمة إلا اصطلينا وكننا موقدي النار
جئنا بأسلابهم والخييل عابسة لما استلينا لكسرى كل إسوار (١)

لكن يتراجع فيما بعد الأساس القبلي العربي للجنين ليحل محله
أساس إسلامي عام ، ويتجمع الجند أول الأمر ، في معسكرات هناك ثم
لا يلبسون أن يستقروا بعد ذلك . وقد يصطحب الوالي معه بعض جماعات
من قومه ، الاعتماد عليهم ، أو بدافع القرابة بتشجيع بعض أقربائه للسفر
إليه ، إلى ولايته ، لالتباس أسباب الرزق والحياة ويختلط ويتمازج هؤلاء
القادمون بالسكان الأصليين ، وهكذا أخذت تتكون في البلاد المفتوحة
جاليات عربية ، بدأت تتلاءم مع ظروف الحياة الجديدة من الاختلاط
والتنوع والاستقرار ، محافظة في البدء على الكثير من عاداتها العربية
البدوية . إن الضرورة الملحة دوماً للدفاع أو الهجوم ، وللحفاظ على المناطق
المفتوحة ، لم تسمح للعرب أن يحيا في البداية حياة استقرار وهندوء ،
إذ إن العمليات الحربية قد أخذت منهم قوة ووقتاً كبيرين ، وهذا ما أثر
أيضاً على بلاد العرب غير المحاربة - الجزيرة العربية ومراكز انطلاق
الغزوات وجيوش الفتح ، ذلك لأنهم كانوا دائماً في قلق واضطراب وتتبع
لأخبار النصر والمعارك والفتوحات - أخبار جنودهم الذين ما هم إلا

أقرباؤهم وأهلهم . وما يوضح هذا الوضع الحقيقة التالية ، وهي أنه في هذه الظروف العصية والاحظاظ الحاسمة عند العرب ، فإن الشعراء - لكونهم « المواطنين » الحقيقيين لبلدتهم - ، لم يكتبوا قصائد طويلة . لكن شعرهم قد حمل صفة البطولة - الملمحمة ، والوطنية ، والقصيرة والمختصرة . وكثافتها ، فإن أشعار تلك المرحلة تألفت من عدد من الابيات ، تصف بطولة المحاربين ، أو تعبر عن الحنين إلى الوطن الأم ، قيلت هذه الاشعار في تخليد بطولة ، أو في ذكر الاشواق والمواجد إلى الارض الأم ، وكانت تعبيراً عن الآلام ، التي تلدغ كبـد المحارب ، وهو يشتاق إلى مرابعه الأولى ، ويحن إلى موطنه التي أقبل منها . في كل من هذه القصائد عبر عن شوق وحنين وألم المقاتل ، الـذهب للغزو والفتوحات ، والذي يقع في بعد عن موطنه وأهله ، وعبر عن أحلام المقاتل في أن يكون بقرب أهله . فالغربة والحنين هنا ليسا بسبب البعد عن القبيلة ومضاربها ، لكنهما بشكل أقوى ، بعد عن الجزيرة العربية كلها ، عن معالمها وعن الأهل هناك ، وعن نموذج الحياة فيها ، وعن طبيعتها . ونلاحظ في هـذا اللون الجديد من الحنين الضيق الشديد بالغربة ، وبلورة الشعور العاطفي تجاه مسقط الرأس ، فكل شيء في المسكان الجديد يذكر الشاعر بوطنه ، بشبه جزيرته : الجمال والنوق ، والحمام ونوحه ، وأسماء الأمكنة ، وأشجار النخيل . ولا يزال الشعر المقال في القادسية عن نخلي حلوان شعراً رطباً مثيراً تـقرؤه فتشعر ما لهؤلاء الواجدبن من عمق العواطف وقوتها :

أسعداني يا نخلي حلوان وابكيا لي من ريب هذا الزمان
واعلم أن ريبه لم يزل يه رق بين الألف والجيران

ولعمري لو ذقنا ألم الفرقة قد أبكا كما الذي أبكاني
أسعداني وأيقنا أن نحساً سوف يلقا كما فتفترقان (١)

إضافة إلى هذا لا بد من الإشارة إلى أن الناس ، الذين بقوا في شبه الجزيرة العربية ، كانوا قد عاشوا أيضاً مشاعر الحنين والشوق إلى أولادهم وأصدقائهم ، المسافرين مع الغزوات في عداد الجيوش الفاتحة . إن هذا الشعور يظهر بوضوح في أشعار ذي البريق الهذلي ، الذي تركه أولاده وهو شيخ هرم ، وبعد الفتوحات في مصر لم يعودوا إليه ، وهو غالباً ما كان يقف على طريق قوافل العائدين من مصر ، مسائلاً عن أبنائه . ومثل هذا النموذج نجده ، عند أبي صخر الهذلي أيضاً ، الذي تركه أبنائه وذهبوا في الحملات ، مما ولد عنده الشوق الزائد لهم والحنين إليهم . إن شعر الحنين والنواجد هذا ما كان إلا تسامياً لشعر الأطلال ، وبكاء الديار وندب الاحبة ، وتطويراً له . أما شعر البطولة والفتوح فلم يكن إلا تجديداً لشعر الفخر . لكن هذه الأشعار الوطنية البطولية إنما تمتاز عن أشعار الفخر التقليدية ، بالرنين الاجتماعي الذي كانت تطبعه ، وبالنزعة العربية الأوسع ، والمشاعر الأعم . هذا ما يبدو ، مثلاً ، في الأشعار المقالة بعد واقعة القادسية :

فحييت عنا عِكرَمُ بنتَ خالدٍ وماخير زاد بالقليل المصرد
وحيتك غني عصبة نخعية حسان الوجوه آمنوا بمحمد

أقاموا الكسرى يضربون جنوده بكل رقيق الشفرتين مهنّد
وقول آخر :

وجدنا الاكثرين بني تميم غداة الروع أصبرهم قتالا
بحور للأكسر من رجال كأسد الغاب تحسبهم جبالا
تركن لهم بقادس عزّ فخر وبالحتفين أيراماً طوالا (١)

إن ذلك الجيل الذي كان يرى نفسه غريباً ، طارئاً في تلك الديار المفتوحة المغزوة ، قد حل محله جيل ثانٍ ، كان يشعر بأن هذه البلاد التي كانت - مفتوحة - هي وطنه الذي تربط به حياته ورغباته وآماله . إذ كان عليهم كغيرهم الضرب في الحياة والعيش كأبناء البلاد الأصليين . لكن رغم هذا ففي أشعار شعراء البلاد لذلك الوقت لا تزال تتردد الالفاظ عن الجزيرة العربية ، ربما فقط للملاءمة ذوق البلاط في التمسك بالتقاليد العربية ، وبعداً عن التعبير الواقعي .

إن كل الضعوبات التي ظهرت نتيجة سوء العلاقة بين الحجاز والخلافة الإسلامية في سورية قد انعكست في الحياة الثقافية في الحجاز . الاضطهاد ، والتمييز في الدولة الإسلامية بالنسبة للعلاقة مع الحجازيين قادا إلى ظواهر جديدة من الاغتراب والحنين عندم . فمثلاً كان الاحوض منفياً إلى اليمن ،

١ - الطبري ، المجموعة ١ ، ج ٧ ، ص ٢٣٦٥ (طبعة
أوروبية) .

والعرجي سجيناً في مكة . وبعد سقوط دولة بني أمية هرب بعض الشعراء كعبد الرحمن الداخل إلى المغرب ، وبعضهم الآخر كان معتقلاً ، وفريق ثالث أجبر على الغربة والاعتراب . وعلى هذا الاساس سنتتبع التطور التالي لمشاعر الحنين والغربة ، حيث مجالاتها الاطر الثلاثة التالية :

- ١ - الشعراء المسجونون .
- ٢ - الشعراء المنفيون والمهاربون .
- ٣ - الشعراء المهاجرون .



رَفَعُ
جَبَلُ الرَّحْمَى الْجَبَّتِي
أَسْلَسَ الْبَيْتَ الْبَرْقِي

١ - السُّمَرَاءُ الْمَسْجُونُونَ

إن سجن الشعراء كان مستخدماً منذ القدم ، حتى في العصر
الجاهلي ، في الامارات العربية ، واستمر في عهد الدولة الاسلامية . واقد
شعر الشاعر وهو في السجن أنه وحيد ، معزول عن الحياة ، وعن أهله
وأقربائه . وهو في طلبه السباح والرحمة والعفو من سيده ، كان يمدحه ،
ويتوعده ، ويسب ويهجو الوشاة ، ويصف ليالي الارق التي يجيهاها ، وهو
مكبل بانيقود ، ويطلب أحياناً الخلاص عند الاصدقاء ، أو يدركه
الموت فيريحه .

ليت أني أخذتُ حفتي بكفي ولم ألق ميتة الأقتال

أحظه في الحياة من سيده سلسلة وقيد ؟ ! ورغم أن حبه قد
طال لم يعبأ به سيده ، وترك عياله في فاقه :

فبيتي مقفر إلا نساء أرامل قد هلكن من النحيب

ويناقش منطقياً : إن خطأ فقد نال عقابه ، مطالباً بالافراج عنه ،
وإن علم فقد عوقب . ما يرهبه ويحسه هو الموت الخيف ، فان وقع فالندم
يصيب السيد الساحن :

وإن أهلك تجدد فقدي وتُخَذَلْ إذا التقت العوالي في الحروب

ثم يئأس فيوكل أمره إلى ربه ، لقد أرق فم يقو على السلام ،
حتى كأن الصبح ليس بآتٍ ، موثق شديد الوثاق في الحديد ، وماله
إلا أن يستنجد بأخوته لانقاذه من هذه الغربة ، ومن خطر الموت المحدث
به (١) . وترتبط بهذا اللون اعتذاريات النابغة من النعمان بذاته ، الذي
توعده فغدا لا يقوى على النوم كأنه لديع أفعى رقطاع ، وهو تائه في
الصحاري يرهب سطوة النعمان :

فأنت كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع

ونجد الحنين وشعور الوحدة والغربة عند المسـجـونين الشعراء في
أشعار شعراء العصور المتلاحقة أيضاً ، فغربة السجن والحنين للعائلة والأهل
هي غربة الخطيئة الذي سجنه ابن الخطاب لهجائه الزبرقان :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لاماء ولاشجر
ألقيت كسبهم في قعر مظامة فاعفر عايك سلام الله يا عمر
أهلي فداؤك ! كم بيني وبينهم من عرض داوية تعمى بها الخبر (٢)

وتظهر وحشة الغربة بشكل أوضح في شعر ضابئ بن الحارث الأبرجي

١ - الأغاني ، ج I ، ص ٩٧ - ١٥٦ ، شعر عدي بن زيد ،

الذي سجنه النعمان بن المنذر في سجن منغل .

٢ - الأغاني ، ج II ، ص ١٨٦ (دار الكتب) . شعر الخطيئة .

[الداوية : الفلاة] .

الذي حبسه عثمان بن عفان في المدينة ، ولم يزل في حبسه حتى مات . إذ
إنه غريب في المدينة رغم كونه فيها :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فاني وقياراً ، بها لغريب
وما عجالات الطير تدني من الفتى رشاداً ، ولا عن ريئهن يخيب (١)

وهدة بن حشرم العذري وهو في سجن المدينة أيام معاوية يصور
قساوة العيش في السجن ، إذ المنية متوقعة ، ويشتاق لاهله ، متمنياً أن
تكون الرياح الوامضة بينه وبينهم :

ألا ليت الرياح مسخرات نحاجتنا تباكرُ أو تؤوب
فتخبرنا الشمال إذا أتتنا وتخبر أهلنا عنا الجنوب (٢)

ويحس بالالم الشديد في شعر العرجي الذي أمضى في سجن محمد
ابن هشام [خال هشام بن عبد الملك] ، تسع سنوات ، ومات فيه
بعد أن تعرض لأبشع أنواع التنكيل والقتل والتعذيب ، ويلمح في أشعاره
الضياع الكامل :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر
وصبر عند معترك المنايا وقد شرعت أسنتها بنحري

١ - ابن قتيبة ، ص ٢٠٣ (بريل) .

٢ - الخلفي ، أدباء السجون ، ص ٦ .

أَجْرَرُ فِي الْجَوَامِعِ كُلِّ يَوْمٍ فَيَا اللَّهَ مَظْلَمَتِي وَصَبْرِي
كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ وَسِيطًا وَلَمْ تَكْ نَسْبَتِي فِي آلِ عَمْرُو (١)

حتى إن عبد الله بن علي في حبس المنصور كان يتغنى بهذه
الآيات (٢). والحبس مصدر أرق الشاعر السجين ، الذي يبات يرعى النجوم: ﴿

أَقُولُ لِيَجِيئَ لَيْلَةَ الْحَبْسِ سَادِرًا وَنَوْمِي بِهِ نَوْمُ الْأَسِيرِ الْمُقَيَّدِ
أَعْنَتِي عَلَى رَعَى النُّجُومِ وَلِحْظِهَا أَعْنِكَ عَلَى تَحْبِيرِ شَعْرِ مَقْصَدِ (٣)

وتختلف طريقة مناجاة الشاعر السجين باختلاف معتقده ، فأبو
العتاهية الزاهد سجين الرشيد إنما يذكر الرشيد بمصيره ومصير الناس
أجمعين : يوم اقامة والحساب ، وبمصير الأمم الغابرة ، وبأن الحكم بينها
سيكون الدين يوم الحساب :

إِلَى دِيَّانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمُضِي وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُلُوصُومُ
تَرُومُ الْخُلْدَ فِي دَارِ الْمَنَايَا وَكُمُ قَدْ رَامَ غَيْرُكَ مَا تَرُومُ (٤)

١ - الأغاني ، ج ١ ، ص ٤١٣ (دار الكتب) . [الجوامع :
الاغلال ؛ عمرو بن عثمان بن عفان] .

٢ - هناك أيضاً : ص ٤١٣ - ٤١٦ .

٣ - الاغاني ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ . شعر الحكم بن عبدل عندما
حبس في الكوفة مع صاحبه الاعمى .

٤ - الاغاني ، ج ١٧ ، ص ٣١ ، ٦٩ (دار الكتب) .

وإن يوم الحبس الطويل عند بشار ما هو إلا يوم البعث والحساب،
الذي منه الخوف لا من محبس في طلول :

كيف يبكي لمحبس في طلول سيرة نضي ليوم حبس طويل
إن في البعث والحساب لشغلاً عن وقوف برسم دارجيل (١)

وإن حنين وشوق الشاعر المسجون إنما توفظه الحمامات ، التي
تنوح بقرب السجن :

ومما هاجني وازددت شوقاً بكاء حمامتين تجاوبان

ولقد قلبي شعراء المراحل اللاحقة أيضاً من مرارة السجن ، وهم
في السجن قد حنوا إلى الأهل والأقرباء :

هم في الحشا إن أعرقوا أو أشأموا أو يمنوا ، أو أنجدوا ، أو أتهموا
وهم مجال الفكر من قلبي وإن بعد المزار فصفو عيشي معهم
أحبابنا ما كان أعظم هجر كم عندي ، ولكن التفرق أعظم
وغدوت بعد فراقكم وكأنني هدف نمر بجانيه الأسهم (٢)

١ - ابن قتيبة ، ص ٤٧٦ (بريل) .

٢ - محمد ، ك . أدب مصر ، ص ٢٠ شعر القاضي ، الذي نفى إلى
اليمن وسجن فيها .

وحنوا أيضاً إلى (الوطن) وهذا ما ظهر في شعر الحنين إلى
إرييل عند أبي الفضل الاربيلي الذي سجن عام ٦٢٦ هـ :

قيد أكابده وسجن مغلق	يارب شاب الهموم المفرق
يا برق إن جئت الديار بآربل	وعلا عليك من الندامى رونق
بلغ تحية نازح حسراته	أبدأ بأذيال الصبا تعلق
قل يا حبيب لك الفداء - أسيركم	من كل مشتاق إليكم أشوق
والله ماسرت الصبا نجديّة	إلا وكدتُ بدمع عيني أغرق
كيف السبيل إلى اللقاء ودوننا	شياء شاهقة وباب مغلق (١)

إنه شوق للوطن ، ووصف دقيق للسجن الرتيب الذي أوصدت
أبوابه في وجه الشاعر المتحسر السجين .

وشعراء الأندلس ، الذين ألقوا في السجون ، لم يقصروا في
الافصاح عن حنينهم وشوقهم إلى وطنهم ومواطنيهم ، فالشاعر عبد الملك
الخلولاني مثلاً كتب في لياليه الأرقّة ، وقد شحط به المزار عن الأحبة
والوطن :

ألوى بعزم تجدي وتصبري نأي الأحبة واعتياد تذكري (٢)

١ - الحلفي ، ص ٢٣٢ .

٢ - الحلفي ، أدباء السجون ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

وبهذا المعنى كتب الشاعر أبو الحسن بن زرار - من أعيان وادي
آشن بالأندلس ، والمسجون في مرسية ، كتب شعراً يقطر شوقاً إلى بلاده،
طافحاً بالوعة والحسرة :

لقد بلغ الشوق فوق الذي حسبتُ فبيل للتلاقي سميل
فلو أني متُ من شوقكم غراماً لما كان إلاّ القليل
لقللني بالتداني المنى وينشدني الدهر صبر جميل (١)

وسرب القطا قد حرك أشجان المعتمد بن عباد وهو سجين في
أغصان فقال مناجياً :

هنيئاً لها أن لم يفرق جمعها - ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل (٢)

١ - هناك أيضاً ، ص ٢٤٦ .

٢ - هناك أيضاً ، ص ٢٤٦ .

٢ - الشعراء المنفيون والمهاجرون

إن غربة النفي والمهرب شديدة القسوة على الشاعر فلهذا في القلق الذي يعتري الشاعر فيمنع عنه النوم . وإذا كان النفي تطوراً لعنى الخلع الذي رأيناه في الجاهلية ، فإن المهرب صورة أخرى من صور ترك القبيلة ، والاتحاق بأخرى ، إنما هنا المهرب إجباري من سلطة أو سياسة ، ويكفي لتوضيح هذا مقارنه ترك امرئ القيس قبيلته ، وهرب عبدالرحمن الداخل من السلطة العباسية . الخليع والتارك للقبيلة يرتبان حياتهما على هذا الأساس ، لأن القبيلة تنكرت الأول فلا سبيل له للعودة إليها ، أو لأن الثاني تركها طوعاً واختياراً . واليأس من العودة إلى القبيلة عندهما شبه استقرار على أية حال ، لكن النفي والمهرب السياسي شيء آخر ، فالشاعر المنفي أو المهرب سياسياً يبقى على الدوام محافظاً على أمل العودة إلى وطنه حين تبدل الظروف السياسية ، لكنه لا يدري متى تبدل هذه الظروف ، وهل يمتد به العمر حتى يشهد هذا التبدل ؟ أم يخترمه الموت قبل أن يرى وطنه مرة أخرى ؟ ، ومن هنا كان الاحساس العميق بالقلق الذي نلمحه مثلاً في شعر أبي قطيفة وهو في الشام منفياً عن المدينة من قبل ابن الزبير بعد وقعة الحرة :

أقرمني السلام إن جئت قومي وقليل لهم لدي السلام
أقطع الدهر كله باكتئاب وزفير فما أكاد أنام

نحزقومي إذ فرقت بيننا الدار ر وحادث عن قصدها الأحلام

ثم يأخذ بتعداد مواضع وطنه وقصورهم ، حيث يشاق إليها كثيراً
ويجن . إن هذه الحسرة ، وهذا التأثير يحس بهافي قصيدة ثانية أخرى له :
ألا ليت شعري هل تغير بعد ناقبَاء وهل زال العقيق وحاضره؟
وهل برحت بطحاء قبر محمد أراهطُ غرُ من قریش تبأكره؟
لهم منتهى حبي وصفو مودتي ومحض الهوى مني وللناس سائره (١).

وهذه أبيات لمجـول يأتي بها صاحب الأغاني [ج ، ١ / ٣٠]
شبهة بما أورده لأبي قطيفة ، فيها اللاوعة والحنين والشوق :

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا حيوب المصلي أم كمهدي القرائن؟
وهل أدور حول البلاط عوامر من الحي ، أم هل بالمدينة ساكن؟
إذا برقت نحو الخجاز سحابة دعا الشوق مني برقها المتيامن

ورغم أن أبا قطيفة في بكائه (أحمداً) عندما أجلى بنو أمية
عنه ، يواسي نفسه بالتطلع إلى الشام ، أهل عشيرته :

بكي أحمداً لما تحمّل أهله فسلع ، فدار المال أمست تصدّع
وبالشام إخواني وجلّ عشيرتي فقد جعلت نفسي إليهم تطلّع

١ - الأغاني ، ج ١ ، ص ٢٦ - ٣١ (دار الكتب) .

إلا أنه يصرح في مكان آخر ، حيث هو في الشام ، بأنه لم يذهب إليها برغبته ، ويحن إلى الحجاز وإلى أهله القاطنين هناك :

وما أخرجتنا رغبة عن بلادنا ولكنه ما قدر الله كائن
أحينّ إلى تلك الوجوه صبابه كأنني أسير في السلاسل راهن (١)

ونعثر في أشعار عمر بن أبي ربيعة (٢) والأحوص (٣) (المنفيين إلى
إلى اليمن من المدينة) على عبارات الحنين والشوق ، والرغبة في العودة إلى
الوطن . إذ يكتب ابن ربيعة شعراً على لسان حبيته ، متوجهاً لأثرياً قائلاً:

بالله قولي له في غير معتبة ماذا أردت بطول المكث في اليمن ؟
إن كنت حاولت دنياً أو ظفرت بها فيما أخذت بترك الحج من تمن

ويلاحظ عند هؤلاء الشعراء بأن الغربة هي الحياة في بعد عن
الوطن ، وعن الأهل والاختوة والأصدقاء والرفاق . هذا الحنين إلى
الأصدقاء والرفاق ، من شبه المؤكد ، أنه ظاهرة تجدد قد حلت مكان
الحنين إلى القبيلة . لكن ، هذا كله لم يعق ظهور العواطف والمشاعر
الدينية عند الشاعر ، والتعلق الطائفي بآل البيت ، وهذا ما يظهر في شعر
أبي عدي العبلي الذي كان إلى جانب العلويين .

١ - هناك أيضاً ، ص ٢٩ ، ٣١ .

٢ - هناك أيضاً : ص ١١١ .

٣ - الأغاني ، ج ١ ، ص ٢٢٤ - ٢٦٨ .

ولذا أخذ ينسكل به بنو العباس . لقد ذهب إلى الطائف حيث
ولها محمد بن عبد الله بن الحسن ، لكنه لم يكذب يبغي إليها حتى أحس
بهزيمة العلويين فيها ، فخرج هائماً على وجهه إلى اليمن حيث يقول :

هيهات تلك معالم من ذاهب أمسى بحوضي أو بحقل قباب
شطت نواهد عن الأليف وساقه لقرى يمانية حمام كتاب

والملاحظ ان الاغتراب هنا عن الاخوان ، والأصحاب، والألاف قبل
كل شيء . وأكبر الظن أن تلك هي الرابطة الجديدة التي بدأت تحمل محل
الروابط القبلية ، وإن كانت الجديدة لم تقو على منع الشاعر من عصبية
مذهبية ، دينية لآل البيت . وهكذا فقد ساق التطور الحضاري إلى هذه
الرابطة كما ساق المجتمع البدوي القديم شاعرنا الجاهلي إلى الحديث عن
رابطة الدم . هذه الروابط لا بد وأن تجد صداها ، لأن مجتمع المدينة
يختلف عن مجتمع البادية ، حيث تقلص في المدينة القيم البدوية لتظهر
مكانها القيم الحضرية . ولكن يجب ان لا ننسى ان عاصمة الخلافة بغداد
خاصة ، والعراق عامة من أكثر المناطق معاناة للصراع بين البدو
والحضارة . فملى الرغم من قدم التراث الحضاري في العراق فان القيم
البدوية الآتية اليه من الصحراء المجاورة ، لها تأثيرها الدائم . على أي حال،
منذ أيام الاستقرار، بدأت القبائل تذوب في مجتمع المدينة ، وتقوم العلاقات
الجديدة على أساس روابط الصداقة . ومن هنا يكبر الحديث عنها في كتب
ابن المقفع ، وفي شعر بشار ، وعند أبي فراس الحمداني ، وأبي حيان
التوحيدي . فالحكماء قالت قديماً : « رب أخ لك لم تلده أمك » ، ويرى
أبو تمام :

فإذا القاربة لا تقرب قاطباً وإذا المودة أقرب الأنساب (١)
وبهذا المعنى قال المبرد :

ما القرب إلا لمن صحّت مودته، ولم يخنك، وليس القرب للنسب
كم من قريب دويّ الصدر مضطغن ،
ومن بعيد سليم غير مقترب (٢)

وهذا ما يلاحظ في وقت متأخر من استعمال الحنين ، في
المراسلات النثرية ، الاخوان والاصحاب ، كما عند أبي العلاء، والهمداني (٣).

ولم يخرج (العبدلي) وحده هائماً على وجهه عقب انتصار
العباسيين ، بل هناك غيره كثيرون ، إنما أبرزهم عبد الرحمن الداخل ،
الامير الشاعر ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك .
كان له من العمر عشرون عاماً عندما اوقع السفاح ببقايا الامويين ، لكنه
فر مع بعض الجند عبر نهر الفرات مسباحة . في حياته المخاطرات ،
والمغامرات ، إذ سار متنقلاً من الشام ، إلى مصر ، إلى شمال افريقيا ،
حتى وصل المغرب ، واحتل بقبيلة « نفرة » ، التي يت لها بصلة الخوالة ،

-
- ١ - العقد الفريد ، ج ١ . I ، ص ٢٢٨ (القاهرة ، ١٢٩٣ هـ) .
 - ٢ - العقد الفريد ، ج ١ . I ، ص ٢٢٩ (القاهرة ، ١٢٩٣ هـ) .
 - ٣ - متز ، ادم . الحضارة الاسلامية ، الترجمة العربية ، ص ٣٥٠ ،
الترجمة الروسية ، ٢٠٧ .

واستغل الخلاف بين اليمينيين والمصريين في إسبانيا ، فانتهت بذلك قصة
عبد الرحمن الشريد ، وبدأت قصة عبد الرحمن الملك الأموي في أقصى
المغرب . وكان بنفس عن آلامه من حين إلى آخر بمقطوعات شعرية .
رأى ذات يوم نخلة بقصر الرصافة في ضواحي قرطبة ، وتصور المشابهة
بينها ، كلاهما مجلوب الى المغرب ، وبعيد عن بلده فقال :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تنامت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت : شبيهي في المغرب والنوى

وطول التنائي عن بني وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبة

فمثلك في الاقصاء ، والمتأى مثلي

سقتك غواصي المزن من صوبها الذي

يسح ويستجري السما كين بالوبل (١)

وله قطعة أخرى رقيقة يصور فيها البعد عن الوطن :

إن جسمي كما تراه بأرض وفؤادي ، وما يكن بأرض

١ - راجع صورة أخرى لاغترابه ، واغتراب النخلة في (الشعر

الأندلي) لجارسيا جومس ، ص ٢٧ .

فهو يعيش في بلاد الغربة بجسمه ، أما عواطفه فهناك في الوطن .
والملاحظ أن الشاعر يستخدم ضمير الجمع [نا] معبراً عن نفسه . ونجد
هذا أكثر وضوحاً عند المتنبي ، حيث نجد الاحساس بالذات قد تضخم .
ولا شك في أن حياة المتنبي الشخصية ، كانت عاملاً من عوامل بروز
(الأنا) .

نوع آخر من السجن هو الاسر ، وفيه يظهر الحزن - بين ، وتبرز
اللوعة بشكل أوضح ، وأكبر ، وبخاصة إذا كان الاسر في بلاد الاعاجم .
وناذجنا عن شعراء الاسر ثلاثة : ابو الطمحان [جاهلي - اسلامي] ،
وأعشى همدان [اموي] ، وابو فراس الحمداني [عباسي] .

ففي حرب الفساد بين جديلة والغوث الطائيتين وقع ابو الطمحان
اسيراً ، فقال في أسره ، واصفاً ارقه وهوميه :

أرقتُ ، وآبتي الهموم الطوارق ولم يلق مالاقيت قبلي عاشق (١)

أما أعشى همدان فقد وقع في أسر الديلم مدة عندما أغزاه الحجاج ،
وله في أسره قصيدة فيها شوق للجزيرة ، وللظمائن تسير في « وادي ذي
خشب » بالمدينة ، ولحلولتها التي من نخل يثرب بطاعها ذي الرائحة الذكية ،
ولحبوبته . وبعد كل هذا يدعو للتصبر ، والتجمل لما ألم به من أسر في
يد الاعداء ، بعد أن كان مقاتلهم الصنديد :

١ - الاغاني ، ج . XIII ، ص ، ١٠ (دار الكتب) .

وإذا تصبّك من الحوادث نكبةٌ فاصبر، فكل مصيبة ستكشفُ
 وائن بكيت من الفراق صبايةٌ إن الكبير إذا بكى ليغنّفُ
 عجباً من الأيام كيف تصرّفت والدار تدنو مرّةً وتقذّفُ
 أصبحتُ رهناً للعدة مكبلاً أمسي، وأصبح في الأدام أرسفُ
 ولقد أراني قبل ذلك ناعماً جَذْلان آبي أن أضام وآنفُ
 واستنكرت ساقى الوثاق وساعدي

وأنا امرؤٌ بادي الأشاجع أعجفُ (١)

أما أبو فراس الشاعر العربي والفارس ، ابن عم سيف الدولة ،
 [توفي - ٣٥٧ هـ] ، وواليه على منبج فقد وقع أسيراً بيد الروم ،
 وقضى في أسره ثلاث سنوات في حصن خرشنة ، وسنة في القسطنطينية ،
 يكاد يقتله الحزن ، والشوق ، والشكوى الخائبة . لقد أفرد الروم له
 قصراً يطل على البحر ، لكن في سمع أبي فراس كانت تكرر أمواج
 البحر ، فتزكي إحساسه بالوحشه ، والغربة ، فيزفر زفرات تقطع القلب .
 ولعل صورة أسره ما تزال ، بصدقها ، وحرارتها ، وعفويتها ، أثرًا خالداً ،
 من أخلد صور الأسر في الادب العربي . فقليل أن ننزف الجراح في
 صدر التجارب الانسانية الحزينة بمثل الحرارة التي نزفت بها جراح أبي

١ - الاغانى ، > . VI ، ص ٣٦ - (دار الكتب) . [أعجف :

قليل الاحم] .

فراس في روميائه . وروميائه تشبه أن تكون مذكراته ، ورسائله في
الأسر ، فقد كان يبكي في بعضها ماضيه الرائع ، ويناجي نفسه ، ويسبح
جراحه ، ويحاور في بعضها عظماء الروم ، ويرد عليهم مطاعنهم في العرب،
ويراسل سيف الدولة ، فيذكره بالماضي الجميل ، ويلائه في بناء الامارة ،
وبروابط الدم التي تجمعهم ، ويعتب عليه فتوره في المعى خلاصه ، ويراسل
أمه الوحيدة المقيمة في منبج فيوصيها بالصبر ، ويراسل أصدقاءه ، فيصف
أسره ، ويغني وده القديم . وأثم ما يستوقفنا عنده : شكوى الغربة ،
والشوق ، والحنين . فاسمعه يقول مناجياً سيف الدولة :

وقد كنتُ أخشى الهجر ، والشمل جامع

وفي كل يوم لقيّة وخطاب

فكيف وفيما بيننا ملك قيصر والبحر حولي زخرة وعباب؟

إذ يشعر هنا بالبعد الرهيب ، لا عن سيف الدولة فقط ، بل عن
وطنه ، وأهله ، وعزه الغابر :

بلى أنا مشتاق ، وعندي لوعة ، ولكن مثلي لا يذاع له سرّ

إنها ألفاظ الشوق ، والحنين ، لكنها كبرياء الفارس التي تندحر
أمام عظمة الشوق . وشكوى الاصدقاء ، وخياناتهم :

كثر الغدر والخيانة في النا س فما أن ترى صديقاً صدوقاً

قلّ أهل الوفاء ، واتّبع النا س ، من الغدر ، والجفاء طريقاً .

إنها غربة الأسر ، وغربة الأصدقاء ، حتى وألم البعد عن الأم
الوحيدة ، الحزينة ، القابعة بعيدة عنه تسأل الركبان عن حاله :

يا حسرة ما أكاد أحملها آخرها مزعج ، وأولها
عليلة بالشأم ، مفردة بات بأيدي العدا معلها
تسأل عنّا الركبان جاهدة بأدمع ما تكاد تمها
يا أيها الركبان! هلاّ لكما في حمل نجوى ، يخف محملها
قولاً لها إن وعت كلامكما - وإن ذكرى لها ليذهلها -
يا أمّتا! هذي منازلنا تركها تارة ونزلها (١)
تمر الساعات بأبي فراس وكأنها اعوام :

تطول بي الساعات وهي قصيرة وفي كل شيء لا يسرك طول
وتهب عليه نسائم [منبج] العليّة ، فيستقبلها ، وقد فتح صدره ،
وأخذته نشوة الماضي الذي ازهر في ربوعها ، حاناً لها :

قف في ربوع المستجبا ب ، وحيّ أكناف المصلّى
تلك المنازل والملا عب ، لا أراها الله محلا

١ - ديوان أبي فراس ، > II ، ص ٢٢ - ٢٣ ، ٢٠٩ ؛ > .

III ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

أوطنتها زمن الصبا وجعلت منبج لي محلاً
حيث التفت رأيت ما ء سائحاً ، وسكنت ظلاً (١)

وتشتد به الآلام ، فيخاطب الحمام شاكياً له القيد ، والغربة عن
الوطن ، والوحشة ، والاسر ، فمحا العجمة الكائنة بينها بنغم انساني
صاف عميق وسيع ؛ ألصق كبده بكبد الحمامة الحزينة فاستشعر حزنها ،
واستشعرت حزنه ، فأنس بها :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تشعرين بحالي
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعني في الحوادث غالي (٢)

إن في روميته الغربة الحقيقية ، والصدق العاطفي ، والشوق
للوطن ، ولجده به ، والشوق لامارته ومدينته ، فكانت روميته ملونة
بهذه المرارة الخصبية ، والشوق الزائد .

١ - المستجاب والمصلى - قصرا أبي فراس في منبج .

٢ - الحلفي ، أدباء السجون ، ص ٢١١ ؛ ديوان أبي فراس ، ج ٢ .

III ، ص ٣٢٥ .

٣- الشعراء المهاجرون (الشعراء في المهجر)

لقد أشقنا فيما سبق إلى أن بعض الحارثيين المسلمين ، وهم يشعرون
بثقل الفارقة مع الوطن ، قد عبروا عن حنينهم وشوقهم شعراً ، يفيض
حنيناً إلى الحجاز . إن شعور الحنين هذا والشوق ، شوق الشعراء في
الغربة ، قد تضاعف بصورة خاصة عندما شعروا بقرب الموت في بعد عن
الوطن . وهذا ما يظهر بوضوح في شعر مالك بن الرب وهو بخراسان
في جند سعيد بن عثمان بن عفان بعيداً عن مكة والجزيرة :

ألا ليت شعري هل أيتن ليلة

بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه

وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

غداة غدٍ يالهنف نفسي على غد

تذكرت من يبكي علي فلم أجد

وبالرمل مني نسوة لو شهدني

بكين وفدّين الطيب المداويا (١)

وها هو عوف بن محلم الخزاعي يخرج من الجزيرة ، ويتنقل مع طاهر بن الحسين ثلاثين عاماً ، ثم مع ولده عبد الله بن طاهر من بعده يشهد معها الحروب في الري ، وخراسان ، ويقعـ حيث يقـمـون في ولايتهم ، ويشتد به الحنين إلى وطنه ، ويرغب في العودة ، لكنه لا يجاب إلى طلبه ، فيتشوق ، في قصائد حزينة ، إلى وطنه ، وإلى أبنائه ، ويزداد إحساسه بالغربة بعد أن دهمته الشيخوخة ، فيتلهف إلى الاستراحة من رحلته الطويلة بالعودة :

أما للنوى من ونيةٍ فتريح ؟	أفي كل عام غربة ونزوح
فنحتُ ، وذو اللبّ الحزين ينوح	وأرقتني بالري نوح حمامة
ونحت وأسراب الدموع سفوح	على أنها ناحت فلم ترَ عبـرة
ومن دون أفرأخي مهامه فيح	وناحت وفرخاها بحيث تراها
وغصنك ميّادُ فعيم تنوح؟ (١)	ألا ياحمام الأيك فرخك حاضر

ويهدف في مكان آخر : [وهمت بالاطمان وجداً بها] (٢) .

إن مفهوم الوطن يتطور عند الصمة القشيري ، فيصبح كائنًا يعوج بالحياة ، لا مجرد أرض ، أو اسماء أماكن ، أو ذكريات شباب (٣) . فكأنه يعيش بجسمه في أرض الغربة ، أما فؤاده فهناك ، في الحمى :

١ - طبقات ابن المعتز ، ص ٨٧ .

٢ - هناك أيضاً ، ص ١٨٨ .

٣ - انظر الاغاني ، ص ٧١ ، ص ٣ - ٩ [دار الكتب] .

إِذَا مَا اتَّانَا الرِّيحُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ أَتْنَا بَرِيًّا كَمْ فَطَابَ هُبُوبُهَا
أَتْنَا بِرِيحِ الْمَسْكِ خَالِطَ عَنَبْرًا وَرِيحِ الْخَزَامِي بَا كَرْتَهَا جَنُوبُهَا

وهل يسأل عنه الحمى كما يفعل هو ؟ :

وَأَسْأَلُ مَنْ لَا قَيْتُ : هَلْ مُطِيرِ الْحُمَى ؟
فَهَلْ يَسْأَلُنْ عَنِّي الْحُمَى : كَيْفَ حَالِيَا ؟

وابن مياده ، وهو عند الوليد بن يزيد بالشام ، يمدحه ، وينال
اعطيائه ، يحن إلى أهله ، ووطنه بنجد . لقد قال للوليد ، وها بأبا بين
[موضع كان ينزله الوليد في الربيع] :

لعمرك إني نازل بأبا بين
لصوءٍ رَمِشْتَاق . وَإِنْ كُنْتَ مَكْرَمًا
أَيْتُ كَأَنِّي أَرْقُدُ الدَّهْرَ سَاهِرُ
إِذَا بَاتَ أَصْحَابِي مِنَ اللَّيْلِ نَوَّامًا

فقال له الوليد : يا ابن ميادة ! كأنك ضجرت من قربنا ، فأجابه :
ما مثلك يا امير المؤمنين يضجر منه ، ولكن :

أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أُيْتِنَا لَيْلَةً بِحَرَّةِ لَيْلِي حَيْثُ رَبَّنِي أَهْلِي

وهل أسمع من الدهر أصوات هجمة تطالع من هجل خصيب إلى هجل؟
بلاد بها نيطت عليّ تنائي وقطعتني عنني حين أدر كني عقلي
فان كنتَ عن تلك المواطن حاسي
فأيسرُ علي الرزق ، وأجمع إذن شملي (١)

ولا نترك الحديث عن الجزيرة ، والشوق لها دون ان نشير إلى
شاعر تشرد في البوادي أكثر عمره ، وهو قيس بن الملوح - مجنون
ليلي وقصة حياته معروفة : فهو غريب في ارض بني عامر ، غريب
في تشرده ، غريب في وحدته وتجوّاله . ذكر له صاحب الاغانى (٥) اربع
مقطوعات يشكو فيها اغترابه ، وينشوق إلى الحمى ، فقد [أفرد أفراد
الطريد] ، وهو صاحب الامل الضائع : [فليست عشيات الحمى برواجع
ويردد :

أدنيائي إمالي في انقطاعي وغربتي

إليك ثواب : منك دين ، ولا تقد

١ - ابن قتيبة ، ص ٤٨٤ - ٤٨٥ [بريل ١٩٠٤] ؛ الاغانى ،
II ، ص ٣٠٩ - ٣١١ . انظر هنا الرواية الثانية عن معارضة
ابن ميادة لقصيدة عبد السلام بن القتال .
[صوهر : اسم مكان ؛ حرة ليلي : مكان قرب المدينة المنورة ؛
الهجمة من الابل : فوق الاربعين ؛ الهجل : المطمئن من
الارض] .

٢ - الاغانى ، II ، ص ٢٧ - ٦١ .

عديني - بنفسي أنت - وعداً فربما

جلا كربة المكروب عن قلبه الوعد

رى بلاداً ينكرها ، وقوماً لا يعرفهم ، فيسألهم عن جبل التوباد ،
وارض بني عامر ، فيقولون : « اين انت من ارض بني عامر ؟ ! عليك
بنجم كذا » ، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوباد ، فاذا رآه قال :

وأجهشتُ للتوباد حين رأيته وكبر للرحمن حين رأيته
وأذريتُ دمع العين لما عرفته ونادى بأعلى صوته فدعاني
فقلتُ له : قد كان حولك جيرة وعهدي بذاك الصرم منذ زمانني
فقال : مضوا ، واستودعوني بلادهم

ومن ذا الذي يبقى على الحدثان (١)

فالغربة عنده ، وإن كانت غربه رحيل ، لكنها تحمل دلالات
نفسية ، فقد يكون بين اهله ، ولكنه يحس بالغربة ، وليس جبل التوباد
أكثر رمز يوحى بمعنى الامومة ، والطمانينة ، ونفي الاغتراب .

إضافة الى هذا ، ففي المصر الاموي ايضاً يظهر الارتباط بالارض
والوطن مقروناً بالعيشة الحسنة . يفهم هذا من سؤال عبد الملك بن
مروان للحارث بن خالد الخزومي - واليه على مكة : « اي البلاد احب

١ - الاغاني ، > II ، ص ٢٧ - ٦١ .

إليك ؟ فقال : ما حسنت فيه حالي ، وعرض وجهي ، ثم قال :

لا كوفة أمي ، ولا بصرة أبي

ولست كمن يشنيه عن وجهه الكسل^(١)

وعندما اجتمع الاخفاق في الحياة ، وطول المقام في العراق عند
ابن المولى [مخضرم الدولتين] ، هتف بصراحة ان الاقامة في العراق
ضلال ، وهو بتركه المدينة إنما كالذي ترك البحار ، ويم الاوشال ،
واشتاق ، وحن إلى المدينة :

ذهب الرجال فلا أحس رجالا وأرى الاءقامة بالعراق ضلالا
وطربت إذ ذكر المدينة ذاكر يوم الخميس فهاج لي بئبالا
طرباً إلى أهل الحجاز ، وتلارة أبكي بدمع مسبل إسبالا
إن الغريب إذا تذكر أوشكت منه المدافع أن تفيض علالا (٢)

لقد حدث تطور في مفهوم الوطن ، وخاصة بعد تمازج الثقافات
ايام بني العباس ، فلم يعد الوطن هو الجزيرة العربية وحدها ، ولم يعد

١ - الأغاني ، ح . III ، ص ٣٣٤ (دار الكتب) .

٢ - الأغاني ، ح . III ، ص ٢٩١ - ٢٩٣ [دار الكتب] ؛
[الأوشال : الماء القليل ؛ البلبال : الهم ؛ علال : مرة
بعد مرة] .

الحنين الى الوطن هو الحنين الى هذه الجزيرة فقط ، إنما غدا الوطن تلك البقعة من الارض التي يعيش عليها الشاعر ، وترتبط بها حياته . بل ظل أولاً - هو المدينة .. الخ ... ولقد جمع ياقوت الحموي فصلاً خاصاً في المدن : من فارقتها من الشعراء ، ومن حن إليها . ولهذا حل الحنين إلى مدينة الشاعر محل الحنين إلى الجزيرة العربية في أكثر الاحيان ، حيث غدا هذا الحنين وجهاً آخر - قد يكون بعيداً نوعاً ما - من وجوه العصبية الاقليمية التي ظهرت أيام بني أمية ، وحلت محل الحنين الى الحجاز ونجد [فشعر ينتصر للعراق ، وآخر للشام ، وكان هذا أساساً للوطنية فيما بعد]^(١) ، فللشاعر محمد بن وهب قصائد كثيرة في الحنين الى البصرة . ويذكر شاعر آخر (الكرخ) وهو - و في مصر ، في رحاب الحبيب ، فتلدغه الغربة ، وتتحرك فيه لواعج الحنين إلى بغداد [ذكر الكرخ نازح الاوطان] . ومطيع بن إلياس يشوق إلى الري ، ومن بها وهو بحلوان ، [قرب بغداد] ، ويحس بوحشة الغربة في قصيدته المشهورة ، [أسعداني يا نخلتي حلوان ..] . ويحن أبو تمام الى ايامه بحلوان مصر ، واخوانه بالفسطاط ، ويعجب لتصاريف الدهر التي تبعد المرء عن وطنه ، فيضرب في الارض حتى اذا ما اتخذ وطناً ثانياً ، واستعاض عن الاهل بالاخوان عادت الايام تعث به ، وتفرق بينه وبين إخوانه ، وتطرحه مطارح الغربة:

بالشام أهلي ، وبغداد الهوى ، وأنا بالرقتين ، وبالفسطاط إخواني

ولابن الرومي قطعة شعرية في الحنين الى الوطن [أئسرتنا إليها

سابقاً] ، تتركز قيمتها المعنوية في تعليلها الاغتراب لا برحيل الانسان عن الارض ، بل بالنفس التي فارقت جسدها فهلكت . ويحن القاضي عبيد الوهاب بن نصر الى بغداد بعد أن رحل عنها إلى مصر ، لا عن قلق لها ، بل ضاقت عليه بأسرها ، ولم تكن الارزاق فيها تسعف المرء على الحياة :

سلام على بغداد في كل موطن وحق لها مني السلام المضاعف (١)

أما في منتصف القرن الخامس الهجري ، وبعد النكبة التي حلت بالعرب في شمال افريقيا ، فقد هاجر قسم من شعرائهم إلى الاندلس ، وصقلية ، وقالوا الكثير في ذكر الاوطان ، والحنين اليها ، وأثر الشوق إلى الاوكر ، وإلى مدن معينة بذاتها . فهذا محمد بن شرف ، اللاجي إلى الاندلس يحن إلى القيروان ، ويتمنى لو كان طائراً ليراها :

ياقيروان وددتُ أني طائر
فأراك رؤية باحث متوَمِّل
أبدت مفاتيح الخطوب عجائباً كانت كوا من تحت عتب مقفل
ياأربعي في القطب منها كيف لي بمعاذ يوم فيك لي ، من أين لي؟..

ويصور المهاجر هائماً على وجهه لا يلقاه أينما حل إلا المذلة

١ - حسين . م . أثر الرحلة ، > I ، ص ٣١٧ - ٣٣٠ (محاضرات
المجمع العلمي العربي بدمشق ، عام ١٩٥٤) .

والهوان ، تنبو به الارض فينقل ساكباً الدموع ممزقاً (١) . وهذا تأوه
شاعر قيرواني آخر في ارض الغربه وهو عبد الكريم بن الحلواني ممن أم
الاندلس أيضاً :

لله منزلة بالقيروان محاً أيامها البين لا الأيام والقدم

ويقول مصوراً حال الغرباء ، وكأنهم قد لاقوا عتاً كثيراً :

يانفس ويحك في التغرب ذائته فتجرعي كأسى أذى وهوان
وإذا نزلت بدار قوم دارهم فإيهام عليك تعزّز الأوطان (٢)

إنه لمن الضروري أن نشير إلى أن عدداً من الكتاب المؤلفين قد
خصصوا فصولاً خاصة مستقلة من كتبهم في محاسن ومساوىء حب الوطن ،
فمثلاً ، ابن الفقيه (أواخر القرن IX/III) ، الذي أورد الحديث عن
حب الوطن (٣) وابن حوقل (٤) ، والجاحظ (٥) ، وإبراهيم الحصري
القيرواني (٦) . ورغم ظلم وقسوة الحمدانيين ، الذين فر وهاجر السكان من

١ - الخريدة ، قسم شعراء المغرب ، ص ٤٣٥ .

٢ - هناك أيضاً .

٣ - انظر . ابن الفقيه ، كتاب البلدان .

٤ - انظر . ابن حوقل .

٥ - الجاحظ ، الحنين إلى الأوطان .

٦ - إبراهيم القيرواني ، زهر الآداب .

قسوتهم هذه ، فان كثيراً من السكان الآخرين قد قرروا، وفضلوا البقاء في مواطنهم ، متحملين الظلم بسبب حبهم للوطن ، الذي أمضوا فيه فتوتهم ، رغم انه عليهم أن يعطوا الحاكم نصف المحصول. والحاكم هو الذي يقدر كمية الضرائب - حسب رغبته - بالذهب أو الفضة (١) .

كما أن المعركتين في ذي قار والقادسية اللتين حصلتا بين العرب وغير العرب كانتا سبباً في نظم الكثير من الشعر ، الذي عبر عن كثير من جوانب الصراع بين المقاتلين ، وربما كانت في هذا الشعر بعض الملامح القومية . كذلك فان وقعة عمورية ، ونصر العرب فيها على البيزنطيين في خلافة المعتصم قد أوحى للشعراء العرب بالشعر الكثير، والشعر الخاص بهذه المناسبة كان قد قاله أبو تمام ، في ملحمة البطولايصة التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

في هذه الملحمة، وأيضاً في شعر المتنبي، عامة، الذي قيل ضد الشعوية، تظهر بذور القومية (٢) .

ومنذ نهاية القرن الخامس / XI يبدأ النضال - نضال العرب ضد الصليبيين والبيزنطيين في الشرق ، ومع النورماندين في صقلية في الغرب.

١ - متر ، آ . ، الترجمة العربية ، ح . I ص ١٨١ ؛ الترجمة الروسية ، ص ١١١ .

في دراستنا وتحليلنا لأشعار أسامة ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ،
يعثر على مفاهيم : عرب ، عجم (غير عرب) ، مسلمين ، نصارى ،
الخ ... لكن ، في نفس ذلك الوقت ، عندما يحن أسامة إلى وطنه ، فانه
لا يحن إلى الارض العربية أو الاسلامية كلها ، بل إلى شيزر الصغيرة ،
إلى مسقط رأسه ، وأحياناً إلى سورية بشكل عام ، ولقد أشرنا إلى هذا
أكثر من مرة فيما سبق . ونظير أسامة في هذا معاصره علي بن يقطان
السبتي ، الذي كتب يحن إلى مصر من الوصل :

أحنّ إلى مصر حنين مقيمٍ بها مستهام القلب محترق الكبد
أراهم بالخط الشوق في كل بلدة كأنهم بالقرب مني أو عندي
ولو أن طعم الصاب جرّعت فيهم لفضلته للحب فيهم على الشهد (١)

وتكثيفاً ، لدراستنا ، فقد وصلنا إلى النتيجة التالية : وهي أن
الشعراء الجاهليين والاسلاميين وهم يستعملون في أشعارهم ألفاظ : شعب
وقبيلة وبطن وفخذ .. الخ .. ، لم يقصدوا بهذه الألفاظ المعاني المحددة
الدقيقة التي يراها فيها العلماء ، وكانت العصبية قد لعبت دوراً بارزاً واضحاً
في العلاقات الاجتماعية عند العرب ؛ هذه العلاقات القبلية التي تذكرنا
بالظواهر القومية المتعصبة في النظام السياسي الحديث المعاصر .

إن الهزة العنيفة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية عند العرب قد
سببها ظهور الاسلام ، وفتح المسلمين لمناطق وأقطار جديدة . فاستقرار

الفاثين العرب في هذه المناطق الجديدة قاد ، بالدرجة الاولى ، إلى اختلاط وتمازج القبائل ، حيث ظهر نتيجة لهذا التمازج جيل جديد . وظهرت الاحزاب السياسية ، والفرق الدينية ، التي لعبت دوراً ملحوظاً في ظهور علاقات اجتماعية جديدة ، وإلى ظهور مفهوم جديد متطور للوطن .

أما في أوقات الفتوح ، فإن حنين الحارثين إلى الأماكن في الوطن (وأحياناً إلى الجزيرة العربية بكاملها) وحزن الذين بقوا على أرض الوطن - كل هذا قد وجد انعكاساً خاصاً في الشعر العربي . والحنين إلى الوطن وأماكنه هنا ما هو إلا تسام وتطور للمطالع الغزلية . وإن الاشعار البطولية أيضاً عن الذاهبين في الحملات والغزوات ، وعن أعمالهم ونضالهم ، ما هي إلا نموذج جديد ومتطور لشعر الفخر التقليدي ، لكنها تختلف عنه بأنها تعبر عن الشعور العام الاسلامي .

إن مفهوم « الوطن » يتطور من أماكن النزول والاستقرار ، وأماكن تنقل القبيلة ، إلى مفهوم المدينة الجديدة ، والمكان الجديد ، حيث نزل ، واستقر العربي ، وأصبح انساناً مستقراً لا رحلة متنقلاً . وفي كل مراحل التطور ، كان مفهوم « الوطن » - « مكان الاستقرار الدائم » - مرتبطاً بحفظ كرامة الانسان ، وتأمين الحياة المريحة اللائقة . وأظهر تطور المجتمع تأثيراً كبيراً على علاقة الفرد بالقبيلة وبالاقرباء . ومن هنا ، في الشعر وفي الرسائل النثرية ، يجد الحنين إلى الاصدقاء والرفاق انعكاساً وتعبيراً واضحاً .

إن اغتراب الشعراء - لأسباب عدة مختلفة - وبعدمهم عن أماكن السكن الأصلية (الأسر ، النفي) ، كانا مصدراً للتعبير الشعري عن الشوق والحنين إلى الوطن .

لكن ، لا بد من أن نشير إلى أنه يعثر على خط واحد ، وعلى ظل واحد عند معظم الشعراء ، على امتداد العصور والمراحل ، في الأشعار المقالة في الغربية ، والمعبرة عن الحنين إلى الوطن - ان هذا استسلام وتنازل بدون نضال ، انه الشعور التراجيدي للشاعر .

مجموعات الشعراء « السجناء ، والأسرى ، والمنفيين ، والمهاجرين » الذين ذاقوا مرارة البعد عن الوطن ، وعاشوا بظروف عمقت التعلق بأوطانهم ، التي أبعدوا عنها ، أو تباعدوا ، ان هذه المجموعات ، في أشعارها ، قد عبرت عن أسمى معاني الحب ، والشوق الى الوطن ، وعن أعلى درجات التعلق والتمسك به ، رغم أن هذا التعلق لم يتعد ، عند بعضهم ، مجال الأمنيات فقط ، لكن بعضهم الآخر قد عاف كل شيء : الحياة المترفة والتقدير والمكانة الاجتماعية ، وحاول جاهداً العودة الى الوطن . إن شعر هذه المجموعات أصدق صورة عن أسمى مشاعر الانسان ، وأطيب صفاته الانسانية ، صورة عن تعلق الانسان بوطنه . أما أسامة فينبض شعره بالحياة والحب والألم والأمانى ، ويعبر عن تعلق العربي بوطنه ، رغم أن ظروف الحياة وقتها ، قد ساعدته على التنقل بحرية في مختلف أصقاع الوطن العربي تقريباً .

ومفهوم الوطن في القرن الثاني عشر XII ، قرن أسامة [ونخص بالذكر مرحلة حياته الاولى] لم يكن أكثر من مسقط الرأس [مكان الولادة] ، مدينة ، أو مقاطعة صغيرة ، حيث عاش الشاعر ، أو مكان ملكه وإمارته . مثل هذا المفهوم « للوطن » يظهر كنموذج عقد حكام المقاطعات الصغيرة ، مع الأخذ بعين الاعتبار جميع خلافاتهم ، وحروبهم

الاهلية ، وهذا ما كان من أهم الصفات المميزة لعصر الانقسام والتشتت،
الاقطاعي في سورية وفلسطين في حياة أسامة . وعندما ركزت الجهود
على السمو بهذا المفهوم ، كان اللقاء التاريخي بين الاقطار العربية - وقتها - ،
وكان اندحار الصليبيين . وهذا ما يؤكد الحقيقة الثابتة : أن في وحدة
العرب كل الخير لهم ، وكل التقدم والتطور .



الخاتمة

إن تحليل ودراسة « كتاب المنازل والديار » قد مكنتنا من توضيح ورصد تطور مفهوم المشاعر الوطنية في الشعر العربي ، ومن دراسة شخصية المؤلف بذاته - أمامة - كممثل ساطع للطبقة الاقطاعية ، المسيطرة في القرن الثاني عشر (IIX) في سورية وفلسطين ، وتبيان انعكاس ذلك المستوى من تطور مفهوم الوطن في مؤلفاته الشعرية ، ذلك المستوى الذي وصل اليه المفهوم حتى القرن الثاني عشر . لقد توصلنا الى النتائج التالية لدراستنا :

في الوسط البدوي ، حيث ظهر الشعر العربي ، على ما يبدو ، لم يوجد مفهوم محدد للوطن . فحياة البدوي كانت مرتبطة بالتنقل والترحال : يولد المرء في مكان ما ، في أغلب الحالات لم يعد اليه ثانية . و « عاش » عند البدوي إنما عنيت « تنقل » ، « ارتحل » . ان الارتباط الدائم بمكان معين محدد عند البدوي كان مدعاة للاحتقار ، ظهر وكأنه بشكل أو بآخر تحديد للحرية - حرية الإنسان ، وإلحاق من قيمته . لكن الشاعر البدوي بكل لطف ورقة توجه إلى إماكن النزول المؤقت لقيلته ، وقبيلة محبوبته . وإعادة زيارة أماكن السكن القديمة أو تذكرها أيقظ عند الشاعر أقوى العواطف وأرقها . وفي الشعر العربي البدوي القديم كانت قد توضحت وثبتت نماذج تصوير المغاني والربوع ، بعناصرها ومكوناتها ، ببقاياها وآثارها ، تلك التي حملت صفات متكررة .

إن بذور مفهوم « الوطن » عند العرب مرتبطة بانتقالهم من حياة البداية والتنقل والترحال ، إلى حياة الاستقرار . فهذا الانتقال الشهير ، مع كل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي ظهرت على أساميه . قد قاد إلى ارتباط حياة العربي - المستقر باماكن سكن محددة ، تلك الأماكن التي أمنت له إمكانية الوجود والحياة ، ولفظة « عاش » في قاموس المتحضر المستقر أصبحت تعني - « استقر » ، « ثبت » (في مكان واحد معين) . ولهذا فإن المفهوم العام لمكان السكن والعيش عند العربي ، بعد الانتقال إلى حياة الاستقرار ، بشكل تدريجي بدأ يعني « الوطن » ، بأبسط معانيه .

وكل المصطلحات التي تعني أماكن السكن المحددة ، في ذات الوقت حملت في طياتها معنى « الوطن » أيضاً . وبسبب هذا ، بصورة خاصة ، فإن المطالع الغزلية الطلمية للقصائد ، المتضمنة موضوع الوطن ، والتي فيها تتردد أصداء فقدان الأهل والاقرباء والمواطنين ، والحنين للأماكن المهجورة ، بدأت تمتلك معانياً جديدة ، متولدة تحت تأثير الشروط الجديدة للحياة - استقرار العرب في أماكن منفصلة متميزة عن الصحاري .

وبغض النظر عن أن هذه المطالع الغزلية قد عبرت عن أشياء تقليدية ؛ فإننا نعثّر فيها على عناصر تجديد كثيرة ، تعود بنشأتها إلى مراحل زمنية متأخرة .

إن مفهوم الوطن في القرن XII ، بدون شك ، ما كان إلا نتيجة للتطور الاقتصادي والاجتماعي المستمر . إن الحوادث العاصفة لهذا القرن : اصطدام ثلاث قوى عالمية : العرب المسلمين والبيزنطيين والصليبيين ، هذا

الاصطدام الذي جرى على تلك القطعة من الارض الصغيرة نسبياً ، في سورية ، هذا الصدام قد ساعد على أن يتحسس العرب بدقة متناهية وجودهم المعاكس المتميز ، كأناس ينتمون إلى تجمع واحد ، بالنسبة للأجانب والغرباء ، بالنسبة للشعوب الأخرى ؛ ووضع هذا الصدام بداية ولادة المشاعر القومية التي توطدت وتدعمت بواسطة النضال العام ضد الغزاة .

من أجل تحليل تطور مفهوم الوطن بالاعتماد على مواد « كتاب المنازل والديار » كان لا بد لنا من أن نصدر عن شخصية مؤلفه أسامة ، الذي ، يمكن القول فيه ، أنه كان أول من عبر عن الشعور بالوطن ، ذلك لأنه عمم، على مادة كبيرة عظيمة، علاقة من سبقه بالموضوع الوطني .

إن الكشف عن شخصية أسامة قد ساعدنا على تحديد مستوى مفهوم الوطن الذي انتهى إليه التطور في القرن XII ، ذلك المفهوم الذي شاع عند الطبقة الاقطاعية ، وعبر عن مفاهيم ومعتقدات وآراء مفكري ذلك العصر بالنسبة لهذا المفهوم .

مفهوم الوطن كان محددًا بذلك المكان الذي ولد فيه الانسان ، أو بتلك الممتلكات التي ظهرت فيها سيادته . إن مثل هذا المفهوم كان قد ظهر في الأمثال الشعبية ، مثلاً ، (محل ما بترزق الزق) ، (كل ديك على مزبلته صياح) .. الخ . .

والعرب باحساس زائد قد تعلقوا بالأمثلة المطروحة والمشاكل المعروضة عندما كان الأمر يمس استقلالهم وشخصيتهم . فالبوريون في دمشق كانوا مستعدين لعمل كل شيء في سبيل الحفاظ على ممتلكاتهم ، حتى إنهم عقدوا حلفاً مع مملكة القدس الصليبية ضد الزنكي ، وبالنسبة فإن أسامة

ذاته كان قد شارك في عقد مثل هذا الحلف .

إن الحقيقة التالية تعتبر من أهم الدلائل على فهم مستوى مفهوم الوطن : أسامة الذي يمتلك إقطاعاً ، بعيداً عن دمشق ، كان قد اعتبر غريباً من قبل أمراء الاقطاعات المنقسمة المتناحرة في دمشق ؛ نعم ، وهو بالفعل قد غدا غريباً وذلك عندما عملت كل الظروف على إجباره على هجر سورية ، والتفتيش عن ملجأ له في مصر ، حيث قد تدخل في مختلف المؤامرات السياسية ، وأجبر نتيجة لذلك أن يترك مصر ويعود ثانية إلى سورية ، التي كانت في هذه المرحلة قد توحدت تحت السلطة القوية الأتابك نور الدين الزنكي .

إن الحب العام للوطن ، المتشكل نتيجة للتربية منذ الطفولة، وبعدها الفقدان التراجيدي الحزن لذلك الوطن ، (لشير) ، والخبرة الحياتية لأسامة - كل هذا كان مصدر إلهام وإلهام شعريين عند أسامة ، وأساساً عليه كان قد نما وترعرع ، الموضوع الوطني في مؤلفاته وآثاره .

وأسامة بكلمته الادبية ، أراد أن يرفع روح الناس ، أراد تربيتهم على مثال أبطال العرب القدماء . إن هذه الأصداء والعناصر الوطنية يعثر عليها بشكل أو بآخر ، بنسبة أو بأخرى، عند المؤلفين الآخرين المعاصرين له ، لكن أسامة في هذا المجال يفوقهم جميعهم .

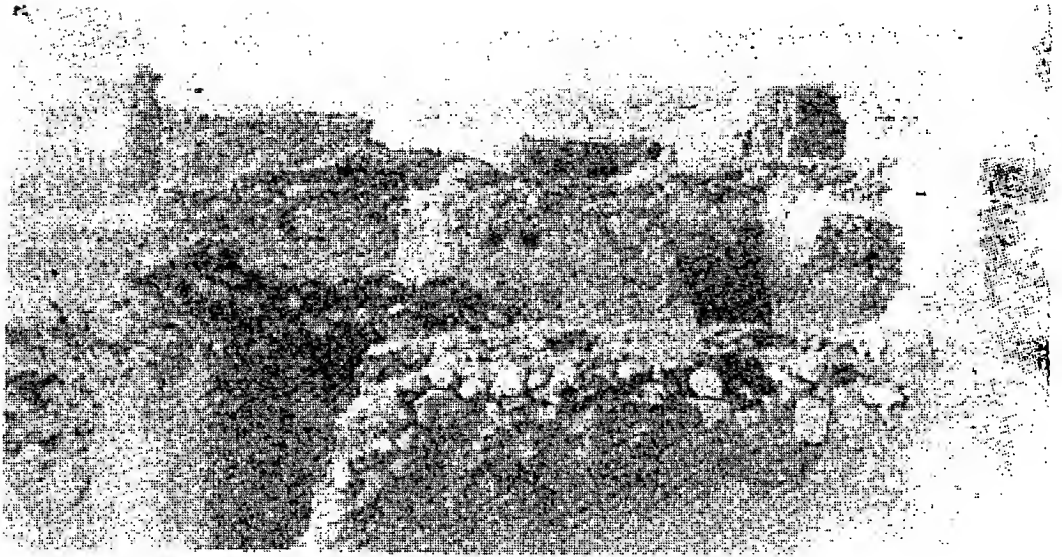
في « كتاب المنازل والديار » كان أسامة قد جمع بصورة خاصة تلك المطامع الشعرية ، التي تنعكس فيها أصداء فقدان الوطن والمواطنين ، وكأنه قد وضع نصب عينيه هدف تركيز اهتمام وانتباه الناس في عصره على ولادة

شعور الحب للأهل والمواطنين ، لأماكن السكن والوطن ، في الإنسان منذ القدم .

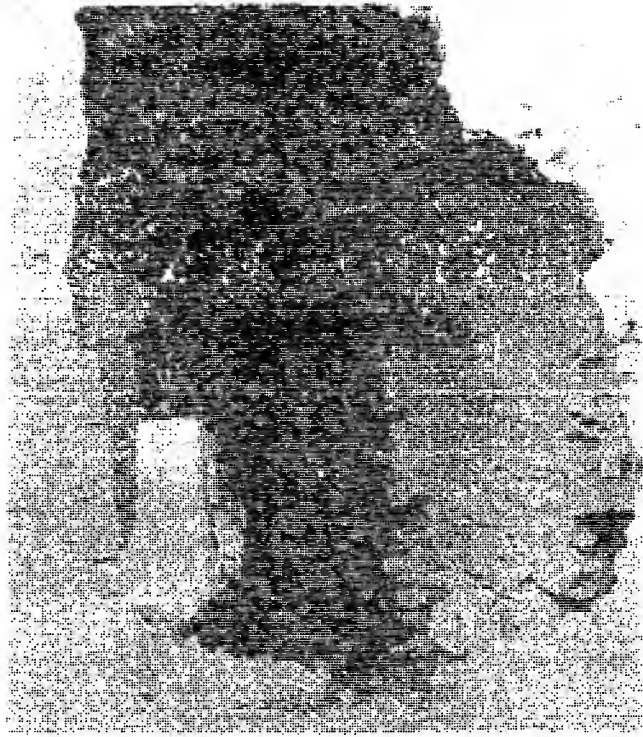
إن دراسة وتحليل « كتاب المنازل والديار » ، وانعكاس شخصية حياة أسامة فيه ، يعتبر - كما نأمل - أساساً وقاعدة علمية متينة للدراسة تطور الوجوه العديدة لموضوع الوطن في الشعر العربي منذ القرن XII وحتى أيامنا هذه ، وهذا ما نحن عازمون على تحقيقه . إذ إننا نعمل الآن على تحليل ودراسة تطور الشاعر الوطنية في الأدب العربي من القرن الثاني عشر الميلادي إلى مطلع القرن العشرين .



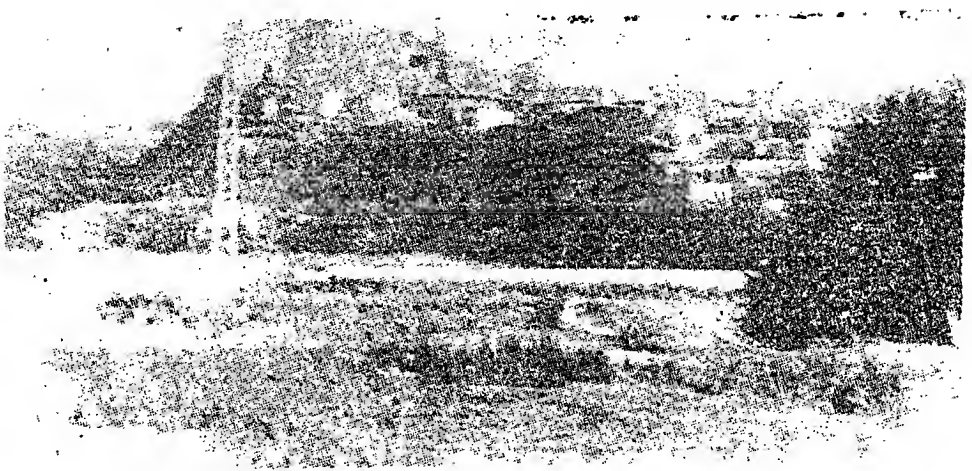
رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
السكنة الفروسي



قلعة شيزر عام ١٩٧١ م



المدخل الرئيسي للقلعة



منظر قلعة شيزر مع القرية المجاورة عام ١٩٧١

فهرس المراجع والمصادر

أولاً - مراجع باللغة العربية

١ - ابن الأثير :

Ibn-el-Athiri Chronicon quod perfectissimum inscribitur,
ed. G. J. Tornberg, Vol. I-XIV, Upsalise et Lugduni
Batavorum, 1851-1876.

٢ - ابن إياس . تاريخ مصر :

ابن إياس . تاريخ مصر المشهور [بدائع الزهور في وقائع
الدهور] ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق المحمية ، ١٣١١ /
١٨٩٣ - ٩٤ .

٣ - ابن تفردي بردى . النجوم :

ابن تفردي بردي . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،
/ القاهرة / ، طبع دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ .

٤ - ابن جبير . الرحلة :

The Travels of Ibn Jubair ed. from a MS in the Univer-
sity Library of Leydon by W. Wright, 2d ed. revised by
M. J. Goeje, Leyden-London, 1907 (GMS, ٧).

٥ - ابن الجوزي . صيد الخاطر :

صيد الخاطر ، ٣ أجزاء ، راجعه وحققه علي الطنطاوي ،
دمشق ، دار الفكر ، ١٩٦٠ .

- ٦ - ابن الجوزي . مرآة الزمان :
ابن الجوزي . مرآة الزمان ، طبع حيدر آباد ، ١٩٥١ .
- ٧ - ابن حزم . جمهرة :
ابن حزم الاندلسي ، علي بن سعيد . جمهرة أنساب العرب ،
تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
- ٨ - ابن حوقل :
*Viae et regna. Descriptio dittonis moslemicae autore Abul-
Kasim Ibn Haukal. Ed. M. J. de Goeje, Lugduni Batavo-
rum, 1873 (BGA, II).*
- ٩ - ابن خلدون . المقدمة :
عبد الرحمن بن خلدون المتوفي ٨٠٨ هـ . الجزء الاول من كتاب
العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن
عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، بيروت ، المطبعة
الادبية ، ١٨٧٩ .
- ١٠ - ابن خلكان . وفيات :
ابن خلكان . وفيات الاعيان ، القاهرة ، دار الطباعة الميرية
المصرية ، ١٢٧٥ / ١٨٥٨ - ٥٩ .
- ١١ - ابن دحية . النبراس :
ابن دحية / عمر ذو النسيين / أبو الخطاب المتوفي سنة ٦٣٣ هـ .
النبراس في تاريخ بني العباس ، نشره عباس الزاوي الهامي ،
بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٦ .

- ١٢ - ابن رشيق . العمدة :
- ابن رشيق القيرواني ، أبو علي . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، جزآن ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٣٤ .
- ١٣ - ابن الساعي . الجامع :
- ابن الساعي . الجامع المختصر لعنوان التواريخ وعيون السير ، بغداد ، المطبعة السريانية الكاثوليكية ، ١٩٣٤ .
- ١٤ - ابن السبكي . طبقات الشافعية :
- طبقات الشافعية الكبرى ، لعبد الوهاب بن علي بن السبكي المتوفي سنة ٥٧٧١ هـ ، المطبعة الحسينية ، ١٣٢٤ / ١٩٠٦ - ٧ .
- ١٥ - ابن شاكر . فوات :
- ابن شاكر ، فوات الوفيات ، القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٨٨١ .
- ١٦ - ابن شداد . النوادر :
- ابن شداد . النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، طبع مطبعة صبيح بالقاهرة ، ١٣٤٢ / ١٩٢٧ - ٢٨ .
- ١٧ - ابن الصابوني . تكملة :
- ابن الصابوني . تكملة الاكل في الانساب والاسماء والالقب ، حققة وعلق عليه الدكتور مصطفى جواد ، [بغداد] ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٧ .
- ١٨ - ابن عبد ربه . العقد الفريد :
- ابن عبد ربه العقد الفريد ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٢٩٣ / ١٨٧٦ .
- القاهرة ، لجنة التأليف ، ١٩٤٠ .

١٩ - ابن الفقيه . كتاب البلدان :

Compendium Libri Kitab al Boldan auctore Ibn-al-Fa-
kih al-Hamadhani, quod edidit, indicibus et glossario irs-
truxit M. J. de Goeji, Lugduni-Batavorum, 1885 (BGA,V)

٢٠ - ابن قتيبة . الشعر :

Ibn Qotaiba, Liber poësis et poëtarum. ed. M. J. de
Goeje, Brill, 1904.

٢١ - ابن القلانسي . ذيل :

حمزة بن القلانسي المتوفي سنة ٥٥٥ هـ . ذيل تاريخ دمشق ،

بيروت ، ١٩٠٨ .

٢٢ - ابن المعز . طبقات :

طبقات الشعراء المحدثين ، لابن المعز ، بتحقيق الاستاذ عبدالستار

فراج ، [ذخائر العرب ، طبعة دار المعارف] ، ١٩٥٦ .

٢٣ - ابن منظور . لسان العرب :

ابن منظور أو ابن مكرم . لسان العرب ، عشرون جزءاً ،

المطبعة الكبرى الميرية ببولاق مصر المحمية ، ١٣٠٠ - ١٣٠٨ /

١٨٨٢ - ١٨٩١ .

٢٤ - ابن ميسر . أخبار مصر :

ابن ميسر . أخبار مصر ، نشره هنري ماسيه ، مطبعة المعهد

العلمي الفرنسي ، ١٩١٩ .

٢٥ - ابن واصل . مفرج :

ابن واصل . مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، جزءان ،

تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٣-١٩٥٧ .

٢٦ - أبو شامة . الروضتان :

أبو شامة . كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، تأليف الشيخ
شهاب الدين أبي محمد عبدالرحمن بن اسمعيل بن ابراهيم المقدسي ،
الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة وادي النيل بمصر ، ١٢٨٧

١٨٧٠ - ١٨٧١ / .

٢٧ - أبو العلاء . الازوميات :

الازوميات لأبي العلاء أحمد بن سليمان المعري ، جزءان ، طبعة
بيروت ، (بدون تاريخ) .

- الازوميات ، أو لزوم مالا يلزم لأبي العلاء المعري ، ٤
أجزاء ، تحقيق وشرح ابراهيم الأعراي ، بيروت ، (بدون
تاريخ) .

٢٨ - أسامة . الاعتبار ، إصدار حتي :

Usamah's memoirs entitled Kitab al I'tibar, by Usama ibn
Munqidh, Arabic text, princeton, 1930.

٢٩ - أسامة . الاعتبار ، إصدار درنبرغ :

Ousama ibn Mounkidh, 2-eme partie, texte arabe de l'au-
tobiographie d'Ousama, Paris, 1886.

٣٠ - أسامة . البديع :

أسامة بن منقذ . البديع في نقد الشعر ، حققه الدكتور أحمد
أحمد بدوي ، والدكتور حامد عبدالحجيد ، القاهرة ، نشرة
وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦٠ .

٣١ - أسامة - الديوان :

ديوان أسامة بن منقذ ، تحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوي ،
وحامد عبدالحجيد ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٣ .

- ٣٢ - أسامة . لباب الآداب :
- أسامة بن منقذ . لباب الآداب ، تحقيق أحمد محمد شاكر ،
طبعة المطبعة الرحمانية بالقاهرة ، ١٩٥٣ .
- ٣٣ - أسامة . المنازل [محققة] :
أسامة بن منقذ . كتاب المنازل والديار ، تحقيق الأستاذ مصطفى
حجازي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ٣٤ - أسامة . المنازل [مخطوطة] :
كتاب المنازل والديار لأسامة بن منقذ ، مخطوطة ، معهد الدراسات
الشرقية ببلينينغراد ، رقم [C35] .
- ٣٥ - أسامة . المنازل [مصورة] :
كتاب المنازل والديار ، مخطوطة مصورة ، مع مقدمة وفهارس .
أ . ب . خالدوف ، موسكو ، ١٩٦١ .
- ٣٦ - الاصفهاني . الاغاني . (بولاق) :
كتاب الاغاني للإمام أبي الفرج الاصفهاني ١٢ - ٢٠ جزءاً ،
طبعة بولاق ، ١٢٨٥ (١٨٦٨ - ٦٩) .

- ٣٧ . الاصفهاني . الاغاني [التقدّم] :
كتاب الاغاني للإمام أبي الفرج الاصفهاني [علي بن الحسين بن
محمد الاصفهاني] ، ١ - ٢١ جزءاً ، التزم طبعه الحاج محمد
أفندي ساسي المغربي ، قوبل على نسخة قديمة بالكتبخانه
الخديوية بتصحیح أحمد الشنقيطي ، مطبعة التقدّم بمصر ،
١٣٢٣ / ١٩٠٥ - ١٩٠٦ / .

٣٨ - الأصفهاني . الاغانى (دار الكتب) :
كتاب الاغانى الامام أبى الفرج الاصفهاني ، ١ - ١٦ جزءاً ،
القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٢٧ - ١٩٥٤ .

٣٩ - البلاذري :

Liber Expugnationis Regionum, Auctore Imamo Ahmed ibn Jahja ibn Djabir al-Beladsori, quem e codice Leidensi et codice Musei Brittannici edidit M. J. de Goeje, Lugduni Batavorum, E. J. Brill 1866.

٤٠ - البيهقي المحاسن :

Ibrahim ibn Mohammed al-Beihaqi, Kitab al - Mahasin va-l-masavi--Giessen, 1902 Schwally. F.

٤١ - التبريزي . التنوير بشرح سقط الزند :

التنوير بشرح سقط الزند للتبريزي ، طبعة السعادة بمصر ،
الطبعة الاولى (بدون تاريخ) .

٤٢ - الجاحظ . البيان :

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) . البيان والتبيين ، ٤
أجزاء الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مكتبة الخاني ، مكتبة الهلال
في بيروت ، المكتب العربي بالكويت ، ١٩٦٨ .

٤٣ - الجاحظ . الحنين :

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . الحنين إلى الاوطان ،
تصحيح الشيخ طاهر الجزائري ، مصر ، مطبعة
المنار ، ١٣٣٣ (١٩١٤ - ١٩١٥) .

٤٤ - الجرجاني . الوساطة :

الوساطة بين المتنبي وخصومه ، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني . (توفي ٣٦٦ هـ) ، تحقيق علي محمد وأبي الفضل إبراهيم ، القاهرة ، (مكتبة عيسى البابي الحلبي) ، ١٩٤٥ .

٤٥ - جرير والاخلط . نقائض :

Naqa'id de Garir et de Ahtal, texte arabe, annoté par A. Salhani, Beyrouth, Impr. Catholique, 1922.

٤٦ - حاجي خليفة . كشف الظنون :

Haji Khalifae, Lexicon Bibliographicum et encyclopaedicum Instruxit G. Fluegel, Leipzig, 1835.

٤٧ - الحصري . زهر الآداب :

الحصري ، أبو اسحق إبراهيم بن علي المعروف بالحصري القيرواني المالكي ، زهر الآداب وثمر الآلباب ، على هامش العقد الفريد لابن عبد ربه ، طبعة ١٢٩٣ / ١٨٧٦ .

٤٨ - الدمشقي . نخبة :

Cosmographi de Chems ed-Din Abou Abdallah Mohammed ed-Dimishqui, texte arabe, publ. A. F. Mehran, st.-F. 1866.

٤٩ - ابن أبي ربيعة [بيروت] :

ديوان عمر بن أبي ربيعة ، جمع وتصحيح بشير عوت ، بيروت ، طبعة الاهلية ، ١٩٣٤ .

٥٠ - ديوان ابن أبي ربيعة [ليبيج] :

Der Diwan des Umar ibn Abi Rafe, hrsg. von P. Schwarz, Leipzig, 1901.

٥١ - ديوان ابن الجهم :

ديوان علي بن الجهم ، عني بتحقيقه ونشره وجمع تكملة خليل
مردم ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٩ .

٥٢ - ديوان ابن الخطيم . [بغداد] :

ديوان قيس بن الخطيم . حققه الدكتور ابراهيم السامرائي ،
بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٦٢ .

٥٣ - ديوان ابن الخطيم . [القاهرة] :

ديوان قيس بن الخطيم . تحقيق ناصر الدين الأسد ، [القاهرة] ،
طبعة دار العروبة بمصر ، ١٩٦٢ .

٥٤ - ديوان ابن ذريح :

ديوان قيس بن ذريح [قيس ولبي] ، شعر ودراسة ،
جمع وتحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة ، مكتبة مصر ،
دار مصر للطباعة ، ١٩٦٠ .

٥٥ - ديوان ابن الرومي :

ابن الرومي . الديوان ، تصنيف كامل كيلاني ، طبعة التوفيق
الادبية ، [بدون تاريخ] .

٥٦ - ديوان ابن قيس الرقيات :

ديوان عبد الله بن قيس الرقيات ، تحقيق الدكتور محمد يوسف
نجم ، بيروت ، دار صياد ، ١٩٥٨ .

٥٧ - ديوان ابن المعتز :

ديوان أمير المؤمنين ابن المعتز العباسي ، جزءان ، القاهرة ،

١٨٩١ . - طبعة إقبال بيروت ، ١٣٣٢/١٩١٣ - ١٩١٤ / .

Der Diwan des Abdallah ibn al Mutazz, hrsg. von B. Lewin, teil III, Istanbul, 1950, teil IV, Istanbul, 1945 (Bibliotheca Islamica, Bd. 17 c. d).

٥٨ - ديوان ابن هانئ :

ديوان ابن هانئ الأندلسي ، طبعة الأميرية بولاق ، ١٢٧٤

١٨٥٧ - ٥٨ / .

٥٩ - ديوان أبي تمام :

ديوان أبي تمام ، جزءان ، شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق

محمد عبده عزام ، طبعة ذخائر العرب ، دار المعارف ،

١٩٥١ - ١٩٦٤ .

٦٠ - ديوان أبي العتاهية :

الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية ، جمع لويس شيخو ،

المطبعة الكاثوليكية بيروت ، ١٩١٤ .

٦١ - ديوان أبي فراس الحمداني :

Semi Dahan. Le Diwan d'Adu Firas al-Hamdani, t. I - III, Beyrouth, (Institut Français de Damas).

٦٢ - ديوان أبي نواس :

ديوان أبي نواس . حققه وطبعه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالي

[القاهرة] ، طبعة مطبعة مصر ، ١٩٥٣ - ١٩٥٤ .

٦٣ - ديوان الأخطل :

Disman al-Ahtal, texte arabe, publié et annoté par Sallhani,
Vol. I-IV, Beyrouth, Impr. Catholique, 1891-1892.

٦٤ - ديوان الأعشى :

Gedichte von Abu Basir Maimum ibn Qaisal-'A'sa. Nebst
Sammlungen Von Stucken anderer Dichter des gleichen
Beinamens. Und Von al-Mussayyab ibn'Alsa, arabisch hrsg
Von Gayer R., London, 1928.

٦٥ - ديوان امرئ القيس :

ديوان امرئ القيس . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، [ذخائر
العرب] ، دار المعارف ، ١٩٥٨ .

٦٦ - ديوان البحتري :

ديوان البحتري ، طبعة بيروت ، بتصحيح رشيد عطية ، ١٩١٠ .
- طبعة هندية ، بتصحيح البرقوقي ، ١٩١١ .
- طبعة دار المعارف ، بتحقيق حسن كامل الصيرفي ،
١٩٦٥ - ١٩٦٧ .

٦٧ - ديوان بشر :

ديوان بشر بن خازم الأسدي ، غني بتحقيقه الدكتور عزت
حسن ، (دمشق) ، طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي في
الاقليم السوري ، مديرية إحياء التراث القديم ، ١٩٦٠ .

٦٨ - ديوان جرير :

ديوان جرير بن عطية . تحقيق محمد اسماعيل الصاوي ،
(القاهرة) ، طبعة مصر ، ١٩٣٥ .

٦٩ - ديوان جميل :

ديوان جميل بثينة / شعر الحب العذري / ، جمع وتحقيق
وشرح الدكتور حسين نصار ، طبع مكتبة مصر ، دار مصر
للطباعة ، سنة أولى ، (بدون تاريخ) .

٧٠ - ديوان الحادرة :

Al-Hadirac Diwanus Cum al-Yesidel Schoilis e codicems.
Arabice edidit; Varsiene Latin et annotetioneil,

٧١ - ديوان حاتم الطائي :

Diwan Hatim at-Ta'i, London, 1872.

- ديوان حاتم الطائي ، برواية الكاكي ، طبعة الوهية بالقاهرة ،

١٢٩٣ / ١٨٧٦ .

٧٢ - ديوان حسان بن ثابت (لندن) :

The Diwan of Hassan b. Thabit, ed. by H. Hirschfeld, ph.
I. Leiden 1910 (GMS, XIII),

٧٣ - ديوان حسان بن ثابت (البرفوقي) :

ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق وشرح عبد الرحمن البرفوقي ،

جزء واحد ، القاهرة ، ١٩٢٩ .

٧٤ - ديوان الخطيئة :

ديوان الخطيئة بشرح السكري وتصحيح الشنقيطي ، طبعة

التقدم بمصر ، / بدون تاريخ / .

٧٥ - ديوان الخنساء :

ديوان الخنساء / أنيس الجلساء / ، نشر لويس شيخو ، بيروت ،

١٨٩٦ .

٧٦ - ديوان ديك الجن :

ديوان ديك الجن الحمصي ، جمع وشرح عبد المعين الملوحي ،
وزميله ، حمصي ، طبعة الفجر ، ١٩٦٠ .

٧٧ - ديوان ذي الرمة :

The Diwan of Ghailan ibn Uqbah Known as Dhu'r-Rum-
mah, ed. Machartney, Cambridge, 1919.

٧٨ - ديوان زهير :

شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة الامام أبي العباس أحمد
ابن يحيى زيد الشيباني / ثعلب / ، القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٤٤ .

٧٩ - ديوان الشريف الرضي :

ديوان الشريف الرضي ، بتحقيق الاستاذين حسن كامل الصيرفي ،
وابراهيم الاياري ، نشر وزارة الثقافة ، طبعة الحلبي ، ١٩٦٢ .

٨٠ - ديوان طرفة :

Diwan Tarafa ibn al-'Abd al -Bakri, accompagné du co-
mmentaire de Yousouf al-A'lam de Santa-Maria publié,
Truduit et annoté par M. Selibsehn, Paris, Libraire E.
Bouillon, 1961.

٨١ - ديوان الفرزدق :

Divan de Farazdak, Recita de Mohamed ben Habib d'ep-
res ibn-el-arab, publié par R. Boucher, Paris, 1870.

٨٢ - ديوان كبير :

Kotayyir-azea, Diwan, accompagné d'un commentaire arabe
ed. par H. peres, Alger-Paris, 1930.

٨٣ - ديوان ليلى :

ديوان ليلى ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الكويت ، ١٩٦٢.

٨٤ - ديوان المجنون :

ديوان قيس بن الملوح العامري / مجنون ليلى / ، جمع وتحقيق
الاستاذ عبد الستار فراج ، الطبعة الاولى ، مكتبة مصر ،
/ بدون تاريخ / .

٨٥ - ديوان المتنبي :

ديوان المتنبي بشرح البرقوقى ، طبعة الرحمانية ، بمصر ، ١٩٣٠.

٨٦ - ديوان المرتضى :

ديوان الشريف المرتضى ، ٣ أجزاء ، حققه ورتب قوافيه
ونشر الفاظه رستيد الصفار ، راجعه وترجم أعيانه الدكتور
مصطفى جواد ، قدم له الاستاذ محمد رضا السنبلي ، طبع دار
إحياء الكتب العربية ، وطبعة الحلبي ، ١٩٥٨ - ١٩٥٩ .

٨٧ - ديوان مزاحم :

The Poetical Remains of Myzahim al-'Uqaili, id.and transl.
by F. Krenkow, Brill, Leyden, 1920.

٨٨ - ديوان ميار :

ديوان ميار الديلمي ، ٤ أجزاء ، (القاهرة) ، دارالكتب ،

١٩٢٥ - ١٩٢٦ .

٨٩ - ديوان النابغة الجعدي (شعر الجعدي) ، جمع مارينا نيلينز ،

طبعة المكتب الاسلامي بدمش ، ١٩٦٤ .

- ٩٠ - ديوان : النابغة الذبياني:
ديوان النابغة الذبياني ، (التوضيح والبيان من شعر نابغة بني
ذييان) ، بيروت ، ١٩٥٣ .
- ٩١ - ديوان النقائض :

The Naka'id of Jarir and al-Farazdak, ed, by Boran, Vol.
I-III, Late E. J. Brill publishers and printers, Leyden
1905-1913.

- ٩٢ - ديوان الهذليين :
ديوان الهذليين ، طبعة دار الكتب ، (القاهرة) ،
١٩٤٨ - ١٩٥٠ .
- ٩٣ - الذهبي . سير . مصورة .
الذهبي . سير أعلام النبلاء . مصورة مخطوطة موجودة في المجمع
العلمي العربي ، دمشق ، رقم ٢٠٩ .
- ٩٤ - الذهبي . سير . مطبوعة :
الذهبي . سير أعلام النبلاء . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ .
- ٩٥ - الزبيدي . تاج العروس :
محمد مرتضى الزبيدي . تاج العروس ، عشرة أجزاء ، مصر ،
المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر ، ١٣٠٦ / ١٨٨٨ - ٨٩ .
- ٩٦ - الزوزني . شرح المعلقات :
شرح المعلقات السبع الامام الاديب القاضي الحقوقي أبي عبدالله
ابن أحمد بن الحسين الزوزني ، المتوفي ٤٨٦ هـ . ضبطه وكتب
مقدمته وتراجمه وتعليقاته محمد علي حمد الله ، نشر وتوزيع
المكتبة الاموية بدمشق ، ١٩٦٣ .

٩٧ - السبكي . معيد النعم :

السبكي . معيد النعم ومبيد النقم ، القاهرة ، دار الكتاب
العربي ، ١٩٤٨ .

٩٨ - السكري . شرح أشعار الهذليين :

شرح أشعار الهذليين ، للسكري ، بتحقيق الأستاذ عبدالستار
فراج ، طبعة دار العروبة بمصر ، ١٩٦٣ - ١٩٦٥ .

٩٩ - الطباخ . أعلام النبلاء :

الطباخ ، محمد راغب . أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء .
حلب ، المطبعة العالمية ، ١٣٤٢ - ١٣٤٥ / ١٩٢٣ - ١٩٢٧ .

١٠٠ - الطبري :

Annales quos scripsit Abu Dja'far Mohammed ibn Djarir
at-Tabari. Ed. M. J. de Geoeje, series I-III, Lugduni-Ba-
tavorum, 1879-1901.

١٠١ - العاملي . أعيان الشيعة :

العاملي . أعيان الشيعة ، بيروت ، مطبعة الانصاف ، ١٩٥٨ .

١٠٢ - المهدي الاصفهاني . إصدار درنورغ :

Des Publications de l'Ecole des Langues Orientales vivants
par H. Derenbourg, vol XIV Paris 1886.

١٠٣ - المهدي الاصفهاني . بداية قسم شعراء الشام :

المهدي الاصفهاني الكاتب . خريدة القصر وجريدة العصر ،
بداية قسم شعراء الشام ، شعراء دمشق ، والشعراء الامراء من
بني أيوب ، عني بتحقيقه الدكتور شكري فيصل ، (دمشق) ،
المطبعة الهاشمية ، ١٩٦٨ .

١٠٤ - العهد الاصفهاني . قسم شعراء المغرب :

العهد الاصفهاني الكتاب . خريدة القصر وجريدة العصر ،
قسم شعراء المغرب ، جزء أول ، تحقيق محمد المرزوقي ، محمد
العروسي المطوي ، الجيلاني^{٣٣} بن الحاج يحيى ، (تونس) ،
الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٦ .

١٠٥ - الفيروز آبادي . المحيط :

الفيروز آبادي ، مجد الدين . القاموس المحيط ، ٤ أجزاء ، القاهرة ،
طبعة البابي ، ١٩٥٢ .

١٠٦ - القلقشندي . نهاية الأرب :

القلقشندي ، شهاب الدين . نهاية الأرب في معرفة أنساب
العرب . جزءان ، تحقيق الأبياري ، ١٩٥٩ .

١٠٧ - الكميت . الهاشميات :

الهاشميات ، للكاميت بن زيد الأسدي ، طبعة ليدن ، ١٩٠٤ .

١٠٨ - اللاميتان :

اللاميتان ، لامية العرب للشنفري ، ولامية العجم للطفراني من شروح
الزنجشري الصفدي ، أعدهما وعلق عليهما عبدالمعين الملوحي ، دمشق ،
وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦٦ ، (إحياء التراث
القديم ، ٣١) .

١٠٩ - المبرد . الكامل :

The Kamil of el Mubarrad, ed by W. Wright Leipzig, 1864.

١١٠ المسمودي . التنبيه :

Kitab at-Tanbih wa-l-ischraf auctore al-Masudi, Lugduni
Batevorum, 1893-1894, (BGA, VIII).

١١١ - المملقات :

المملقات السبع مع ذكر رواياتها ، وأنساب قائلها ، ويلها
لامية العرب ، تصحيح محمد محمود الشنقيطي ، طبعة ثانية ،
(القاهرة) ، مطبعة السعادة ، (بدون تاريخ) .

١١٢ - المقرزي :

المقرزي . إغاثة الامة بكشف النعمة . تحقيق الاستاذين محمد
مصطفى زيادة ، وجمال الدين محمد الشيال ، القاهرة ، مطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٩ / ١٩٤٠ .

١١٣ - نشوان . منتخبات :

نشوان ، ابن سعيد الجيري . منتخبات في أخبار اليمن .
تحقيق عظيم الدين أحمد ، لندن ، ١٩١٦ .

١١٤ - النميمي . الدارس :

النميمي . الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسني ،
دمشق ، ١٩٤٨ .

١١٥ - النمرى . الانباه :

النمرى ، ابن عبد البر ، بسف . الانباه على قبائل الرواة .
في مجلد واحد مع كتاب القصة والامم ، القاهرة ، ١٣٥٠ /
١٩٣١ - ٣٢ .

١١٦ - النوري . نهاية الأرب :

النوري . نهاية الأرب في فنون الأدب . عشرة أجزاء، القاهرة،

مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣ .

١١٧ - الهمداني . صفة :

Müller Dt H., al Hamadani's geographie der arabischen Halbinsel, Leyden, 1884.

١١٨ - ياقوت . معجم الادباء :

The Irshad al' arib ila marifat al - adib or Dictionary of Learned men of Yakut. ed. Margoliouth, Leyden, London 1909 (GMS VI).

١١٩ - ياقوت . معجم البلدان :

Yacut's geographisches wör terbuch, hreg. von F. Wüstenfeld, Bd. X-VX, Leipzig, 1866 - 1873.

ثانياً : مصادر مترجمة

آ - إلى اللغة العربية

- ١٢٠ - بروكلمان . تاريخ الادب :
بروكلان ، كارل . تاريخ الادب العربي . ٣ أجزاء . نقله إلى
العربية الدكتور عبدالحليم النجار ، القاهرة ، دار المعارف
بمصر ، ١٩٥٩ - ١٩٦٢ .
- ١٢١ - خالدوف (مقالة عن كتاب المنازل) :
خالدوف ، آ . ب . مقاله ، مقدمة لكتاب المنازل والديار
لأسامة بن منقذ ، تحقيق الاستاذ مصطفى حجازي ، القاهرة ،
١٩٦٨ .
- ١٢٢ - خسرو طوى . سفرنامه :
خسرو طوى ، ناصر . سفر نامه . نقله إلى العربية ، وقدم له ،
وعاق عليه الدكتور يحيى الخشاب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر ، ١٩٤٥ .
- ١٢٣ - زامباور . معجم الانساب :
زامباور . معجم الانساب والسلالات الحاكمة . ترجمة الدكتور
زكي حسن ، طبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥١ .
- ١٢٤ - كراتشوفسكي . مع المخطوطات :
كراتشوفسكي . إ . ي . مع المخطوطات العربية . موسكو ،
طبعة دار التقدم ، ١٩٦٣ .

١٢٥ - مبرز . الحضارة الاسلامية :

مبرز ، آدم . الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري .
نقله إلى العربية محمد عبدالمهدي أبو ريبة ، الطبعة الثانية ،
منقحة ومهذبة ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر ، ١٩٤٧ .

ب. إلى اللغة الروسية

126. Босворт К Э. Мусульманские
Династии, справочник по
хронологии и Генеалогии. Пер.
С англ. и примеч. Грязневича П.А.
М., "Наука", 1971.
127. Гиббх.А.Р. Арабская литература
(Классический период) Пер . с
англ. А.Б. халидова и П. А.
Грязневича. М., изд. Вост лит.
196 .
128. Мец, А. Мусульманский ренессанс
перс. с нем., предисл., библиогр
и указатель Д.Е. Бертельсо М.,
изд "Наука", 1966, 2-е изд 1973
129. Ёсама, сѣл-и тибар, Русс. Пер

Усама Ибн Мункиза, Книга
 назидаания Пер. с араб. М. А
 Салье, М., изд Вост лит 1922, 2-е
 изд. 1958

ج - إلى اللغات الأوروبية

- 130 - Ad-Dimishki, Mohammad, Manuel de cosmographie du moyen âge
 Trad. de l'arabe. Ed. A.F. Mahran, St.-P., 1866.
 Trad. de l'arabe, par A.F. Mehran, Copenhagen, 1874.
- 131 - Derenbourg H. "Souvenirs historiques et récits de chasse
 par un émir syrien du douzième siècle. Autobiographie
 d'Ousama Ibn Mounkidh. Traduction française", 1895.
- 132 - Hitti, Ph.K., An Arab-Syrian gentleman and warrior in the
 period of the Crusades. Memoire of Usameh Ibn Munqidh (Ki-
 tab al - i'tibar). Transl, New York, 1929.
- 133 - Pottar G.R., Autobiography of Ousama Ibn Mounkidh. London,
 1929.
- 134 - Schuman G., Usama Ibn Mounkidh. Memoiren eines syrischen Emirs
 aus der Zeit der Kreuzzüge, aus dem Arabischen übersetzt.
 Innsbruck, 1905.

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

ثالثاً - دراسات

آ - باللغة العربية

- ١٣٥ - أمين ، أ . فجر الاسلام :
أمين ، أحمد . فجر الاسلام . القاهرة ، ١٩٥٠ .
- ١٣٦ - أمين ، أ . فارس كنانة :
أمين ، أحمد . فارس كنانة . فيض الخاطر ، الجزء الرابع ،
(القاهرة) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، (بدون تاريخ) .
- ١٣٧ - الاشتراكية ، ع . نصوص :
الاشتر ، عبدالكريم . نصوص مختارة من الادب العربي ،
دمشق ، المكتبة الحديثة ، ١٩٦٥ .
- ١٣٨ - باشا ، ع . م . ابن نباته :
باشا ، ع . م . ابن نباته المصري ، أمير شعراء المشرق ،
القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٣ .
- ١٣٩ - باشا ، ع . م . أدب الدول :
باشا ، ع . م . أدب الدول المتتابعة ، لبنان ، (بيروت) ،
دار الفكر الحديث ، ١٩٦٧ .
- ١٤٠ - بدوي ، أ . الحياة الادبية :
بدوي ، أحمد . الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية
بمصر والشام ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٤ .

- ١٤١ - بدوي ، أ . الحياة العقلية :
بدوي ، أحمد . الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر
والشام ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٥ .
- ١٤٢ - البستاني ، ب . أدباء العرب :
البستاني ، بطرس . أدباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام
والاعصر العباسية ، جزآن ، بيروت ، مطبعة دار صادر ،
الطبعة الثانية ، ١٩٦٢ .
- أدباء العرب ، ح ١ ، ٢ ، ٣ ، بيروت ، دار المكشوف
والثقافة ، طبعة جديدة ومنقحة ، ١٩٦٨ .
- ١٤٣ - البستاني ، ب . الشعراء الفرسان :
البستاني ، بطرس . الشعراء الفرسان ، بيروت ، ١٩٤٤ .
- ١٤٤ - بول كولار ، وآخرون . سورية :
سورية ، قضايا حفظ المواقع الأثرية والاستفادة منها ، تقرير
لجنة اليونيسكو المرسلة إلى سورية سنة ١٩٥٣ ، والمؤلفة من
السيد بول كولار رئيساً ، وسليم عبدالحق ، وأرماندو ويلمون
عضوين ، اليونيسكو ، مديرية الآثار العامة في سورية .
- ١٤٥ - بيلى ، أ . حياة صلاح الدين :
بيلى ، أحمد . حياة صلاح الدين . القاهرة ، المطبعة الرحمانية ،
١٣٤٥ / ١٩٢٦ - ٢٧ .
- ١٤٦ - حبش ، ح . الحرب الصليبية :
حبش ، حسن . الحرب الصليبية الأولى . الطبعة الثانية ،
القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٨ .

- ١٤٧ - حتي . ف . وآخرون ، تاريخ :
- حتي ، فليبي ، جرجي ادوار ، جبور جبرائيل . تاريخ
الأدب العربي ، مطول ، ٣ أجزاء ، بيروت ، ١٩٤٩ .
- ١٤٨ - حجازي . م . مقدمة :
- حجازي ، مصطفى . مقدمة لكتاب المنازل والديار لأسامة بن
منقذ ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ١٤٩ - حسن ، إ . ح . تاريخ :
- حسن ، إبراهيم حسن . تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب
ومصر وبلاد العرب ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، طبعة
ثانية ، ١٩٥٨ .
- ١٥٠ - حسين ، م . أ . أسامة :
- حسين ، محمد أحمد . أسامة بن منقذ ، مصر ، [القاهرة] ،
١٩٤٦ .
- ١٥١ - حسين ، م . خ . أثر الرحلة :
- حسين ، محمد الخضر ، أثر الرحلة في الحياة الأدبية ، مقاله
في محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء الثالث ،
عام ١٩٥٤ ، صفحة ٢١٧ - ٢٣٠ .
- ١٥٢ - حسين ، م . ك . في أدب مصر الفاطمية :
- حسين ، محمد كامل . في أدب مصر الفاطمية . طبع دار
الفكر العربي . [بدون تاريخ] .

- ١٥٣ - الحلفي ، ع . أدباء السجنون :
الحلفي ، عبدالعزيز . أدباء السجنون . دار الكاتب العربي .
[فقط] .
- ١٥٤ - حمدي ، ح . الشرق :
حمدي ، حافظ ، الشرق الاسلامي قبل الغزو المغولي ، مصر ،
(القاهرة) ، مطبعة الاعتماد ، ١٩٥٠ .
- ١٥٥ - الخوري ، خ . خرابات سورية :
الخوري ، خليل . خرابات سورية . (خطاب تلاه على محفل
العمدة الادبية في بيروت ، ١٥ آذار ١٨٥٩) ، بيروت ،
١٩٦٠ .
- ١٥٦ - رستم ، أ . :
رستم ، أسعد . باب انتقريظ والانتقاد ، (ترجمة كتاب
الاعتبار) ، مقالة في مجلة الكاتب ، السنة الثانية ، المجلد
الثالث ، الجزء الثالث ، القاهرة ، يناير ، ١٩٤٧ .
- ١٥٧ - زكي ، أ . أسامة :
زكي ، أحمد كامل . أسامة بن منقذ . سلسلة أعلام العرب ،
مصر ، (القاهرة) ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ،
١٩٦٨ .
- ١٥٨ - زكي ، أ . صلاح الدين :
زكي ، أحمد كامل . صلاح الدين بين شمراء عصره ، القاهرة ،
١٩٦٠ .

- ١٥٩ - زيدان ، ج . تاريخ آداب اللغة :
 زيدان ، جرجي . تاريخ آداب اللغة العربية . ٤ أجزاء ،
 القاهرة ، دار الهلال ، طبعة جديدة ومنقحة ، راجعها وعلق
 عليها الدكتور شوقي ضيف ، ١٩١٣ .
- ١٦٠ - سلام ، م . ز . الأدب :
 سلام ، محمد زغلول . الأدب في العصر الأيوبي . مصر ،
 (القاهرة) ، دار المعارف ، ١٩٦٨ .
- ١٦١ - السيد ، ع :
 السيد ، عبدالمالك . رسائل القراء . مقالة في مجلة الكلية ،
 مجلة الجامعة الأميركية ، بيروت ، الجزء الأول ، المجلد السادس .
 عشر ، ١٩٢٩ .
- ١٦٢ - الشايب ، أ . تاريخ الشعر السياسي :
 الشايب ، أحمد . تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن
 الثاني ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مطبعة السمادة ، ١٩٦٢ .
- ١٦٣ - الدهان ، س . الناصر :
 الدهان ، محمد سامي : الناصر صلاح الدين ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠ .
- ١٦٤ - ضيف ، ش . الترجمة الشخصية :
 ضيف ، شوقي . الترجمة الشخصية . بيروت ، دار المعارف ،
 ١٩٥٦ .
- ١٦٥ - ضيف ، ش . التطور :
 ضيف ، شوقي . التطور والتجديد في الشعر الأموي . مطبعة
 لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٢ .
 - مصر ، مطبعة دار المعارف ، ١٩٥٩ .

- ١٦٦ - الطاهر ، ع ، ج . الشعر :
 الطاهر ، علي جواد . الشعر العربي في الدراق وبلاد المعجم
 في العصر السلجوقي ، جزآن ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٥٨ .
- ١٦٧ - عاشور ، س . أضواء على الحروب الصليبية :
 عاشور ، سعيد عبدالفتاح . أضواء على الحروب الصليبية .
 (القاهرة) ، ١٩٦٤ .
- ١٦٨ - العلوجي ، ع . :
 العلوجي ، عبدالحميد . مؤلفات ابن الجوزي . بغداد ، شركة
 دار الجمهورية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ .
- ١٦٩ - فهرس التيمورية :
 فهرس الخزانة التيمورية ، ١ - ٤ ، (القاهرة) ، مطبعة دار
 الكتب المصرية ، ١٩٤٨ - ١٩٥٠ .
- ١٧٠ - فهمي ، م . ح . الحنين :
 فهمي ، ماهر حسن . الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث .
 القاهرة ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٧٠ .
- ١٧١ - فيصل ، ش . المجتمعات :
 فيصل ، شكري . المجتمعات الإسلامية في القرن الأول .
 بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٦ .
- ١٧٢ - كحالة ، ع ، ر . معجم المؤلفين :
 كحالة ، عمر رضا . معجم المؤلفين . خمسة عشر جزءاً ،
 دمشق ، مطبعة الترقى ، ١٩٥٧ .

- ١٧٣ - الكفراوي ، م . ع . الشعر بين الجمود والتطور :
الكفراوي ، محمد عبدالعزيز . الشعر العربي بين الجمود والتطور .
طبعة ثانية ، مكتبة نهضة مصر بالفيحالة ، ١٩٥٨ .
- ١٧٤ - مجلة المجمع :
مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٣٠ ، الجزء الخامس
والسادس من المجلد العاشر .
- الجزء الثالث ، صفحة ٣١٧ - ٣٣٠ ، عام ١٩٥٤ .
- ١٧٥ - المرصفي ، ح . الكلام التام :
المرصفي ، حسين . الكلام التام في الامة والوطن والحكومة
والعدل والظلم والحرية والتربية ، القاهرة ، ١٨٨٠ .
- ١٧٦ - المنجد ، ص . فهرس المخطوطات العربية :
فهرس المخطوطات العربية في الامبروزيانا ، الجزء الثاني ، القسم
الاول ، من رقم ٢٢٠ - ٤٤٠ ، وضعه الدكتور صلاح المنجد ،
القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ١٧٧ - الميهمي ، أ . وآخرون ، فهرس الكتب العربية :
فهرس الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية
المصرية . جمعه ورتبه أحمد الميهمي ومحمد البيلوي ، طبعة أولى ،
المطبعة العثمانية بمصر ، ١٣٠٧ / ١٨٨٩ - ٩٠ .
- ١٧٨ - النعساني ، ط . أسامة :
النعساني ، طاهر . أسامة بن منقذ ، أو شيزر وآل منقذ .
هي المحاضرة التي القاها في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق
في ١٨ تشرين ثاني ١٩٢٩ ، حماد ، طببع المكتبة الوطنية .

١٧٩ - النص ، إ . العصبية :

النص ، إحسان . العصبية القلبية وأثرها في الشعر الأموي .

دار البقعة ، لبنان ، (بيروت) ، ١٩٦٣ .

١٨٠ - النقاش ، ز . العلاقات :

النقاش ، زكي . العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية

بين العرب والفرنجة خلال الحروب الصليبية ، بيروت ،

١٩٥٨ .

★ ★ ★

ب. باللغة الروسية

181. К. Маркс и Ф. Энгельс.
Избранные произведения
Т. II, М., Гостолит-издат, 1955.
182. В. И. Ленин Полное собрание
сочинений. Изд. 5-е, т. III, М.,
Госполитиздат, 1958.
183. Абрамович Г. Л., Введение в
литературоведение. Изд. 5-е, М.,
изд. "Просвещение", 1970.
184. Большаков О. Г. и др., Средневеко-
вый город Средней Азии, Л.,
"Наука", 1973.
185. Богданов А. Н., Методика литера-
туроведческого анализа. М., изд
"Просвещение", 1969.

186. Боров Ю. Б., Эльсберг Я. Е. —
Основные проблемы в исто-
рическом освещении — в Кн.:
"Теория Литературы", т. I, М.,
АН СССР, 1962.
187. Виноградов В. В., Сюжет и
стиль. М., изд. АН СССР, 1963.
188. Всемирная история в 10-ти т.
М., Гостполитиздат, 1955.
189. Заборов М. А., Крестовые походы,
М., изд. АН СССР, 1956.
190. Заборов М. А., Введение в
историографию крестовых
походов. М., 1966.
191. Заборов М. А., историография
крестовых походов (литература)

- XI-XIX вв.), М., "Наука", 1971.
192. Каган М.С., Лекции по марксистско-ленинской эстетике.
Л., ЛГУ, 1971
193. Крачковский И. Ю., избранные сочинения, т. I-VI, М., - Л., АН, 1955-57.
194. Крачковский И. Ю., неизвестное сочинение - автограф Сирийского эмира Усамы, ЗКВ, т. I, Л., 1925, с. 1-18
195. Островский А. П. - Собрание сочинений. Т. XIII, М., Госполитиздат. 1952
196. Розен В. Р. - Рец. на: *Qisat al-mulk al-sayyid. Un emir syrien au*

premier siecle des croisades (1095 - 1188), par H Derenbourg, Deuxieme partie, Paris, 1886 - ЗВОРАД, Т. П., СПб., 1887, С. 175-178.

197. Теория литературы, Т.-III, М., АН. 1962-1965.

198. Фильштинский И. М., Арабская классическая литература, М., "Наука", 1965.

199. Фильштинский И. М., Шидфарб Я., Очерк арабо-мусульманской культуры (VII - XII вв) М., изд-во Вост. лит., 1971.

200. Френ Х. Д. Письма древних руссов. СПб., 1936 (Библиока для чтения, XIII)

ج - باللغات الأوروبية

- 201 - Ameer Ali , A Short History of the Saracens, London , 1900
- 202 - Breasted J.H. Ancient Records of Egypt, vol. II, Chikago . 1906 .
- 203 - Browne E. , A Literary History of Persia , /vol.I-2/, London 1902-1906.
- 204 - Brockelman C. , Geschichte der arabischen Literatur, I-III Leyden , Brill, 1937-1942.
- 205 - Barker E. The Crusades , London , Oxford Univ. Press, 1936.
- 206 - Cahen C. , Indigènes et croisés , - Syria , XV, 1934.
- 207 - Cahen C. , La Syrie du nord à l'époque de croisades et la principauté franque d'Antioche , Paris , 1940 .
- 208 - / K. Leyden /. Catalogues codicum arabicorum bibliothecae academicae Lugduno-Batavae, auctoribus M.X. de Goeje et M.Th. Houtsma, I, Lugdini Batavorum, 1888.
- 209 - Derenbourg H. , " Ousama poète. Notice inédite tirée de la Kharidat al-Kaer, par Imad ad-Din al-Katib" ("Nouveaux mélanges orientaux"), Paris , 1886.
- 210 - Derenbourg H. , la vie d'Ousama , un emir syrien au premier siècle des Croisades, (1095-1188), Paris , 1889.
- 211 - Dorn D. , Das Asiatische Museum der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften zu St. Petersburg , St. Petersburg , 1846.
- 212 - Elisséeff N. , Nur ad-Din un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades (511-569)/1118-1174), vol. I-III, Damas , 1967.
- 213 - El-The Encyclopaedia of Islam . T.I.-IV, Leyden - London , 1913-1934 .

- 214 - Frähn Ch.D., Vorläufiger Bericht über eine neue bedeutende Bereicherung des orientalischen Manuscripten-Apparats der Kaiserl. Akademie der Wissenschaften - B KH. Dorn F. Das Asiatische Museum, c. 279-294.
- 215 - Frähn Ch.D. Vorläufiger Bericht über eine bedeutende Bereicherung an arabischen, persischen und türkischen Handschriften, die das Asiatische Museum der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften zu St. Petersburg in diesem Jahre erhalten hat, nebst einigen Schätzen desselben. B KH. Dorn B. Das Asiatische Museum, c. 201-216.
- 216 - Hitti Ph.K., History of the Arabs, third edition, revised, London, 1946.
- 217 - Lane-poole S., History of Egypt in Middle Ages. London, 1913.
- 218 - Lane-poole S., Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, London, 1893.
- 219 - Michaud J.F., Histoire des Croisades, 5 vol., Paris, 1812-1822.
- 220 - Ousema ibn Munkidh, "Le livre de Baton". Derenbourg H., Paris, 1889.
- 221 - Ringgren H., Studies in Arabian fatalism, Uppsala, 1955.
- 222 - Schen L., Usama ibn Munqidh's memoirs: Some further light on Muslim Middle Arabic (pt. I), "Journal of Semitic Studies". Vol. XVII, N 2. Halfyearly. Manchester univ. press, 1972.
- 223 - Robertson Smith, Kinship and marriage in Early Arabia, I. London, 1903.
- 224 - /Verz. Ahlwardt/. Verzeichnis der arabischen Handschriften der Königlichen Bibliothek zu Berlin. Von W. Ahlwardt, Bd. VI, Berlin, 1894.
- 225 - /ZDMG/ - Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft. Bd. 69-73.

تصويب

ص	س	الصواب	ص	س	الصواب
٣	١٣	لتقديمها	٧١	١٥	١١٣٧/٥٣١
١٤	١١	بين	٧٣	١٠	يهباء
١٥	٦	فرقت	٧٤	٥	نازح
٢٠	١٧	شيزر	٧٤	١٠	في
٢١	٢٠	سيرة	٧٦	٥	بمساعدة
٢٣	٦	الاماسي	٧٧	١١	انتصارات
٢٣	١٢	الخريفة	٧٩	١٦	بوري
٢٤	١٠	ابنه	٨٣	٥	تعبثني
٢٤	١٢	عادات	٨٣	١٥	عندما
٢٥	١٤	الجاهليين	٨٤	٥	وصعبت
٢٦	١	الرقبات	٨٧	٧	إلى
٢٧	١٣	نسوة	٨٨	٨	ومال
٣٧	٥	كأن	٨٨	١١	اتجاهها
٤٠	١١	يازيد	٩٢	٣	بجميع
٤٢	٧	البزنطيين	٩٢	٥	نور الدين
٤٥	١٢	صبور	٩٢	١٥	وخال صلاح
٥٩	١٨	انتقاله	٩٤	٧	بتحريضه
٦٣	١٥	١٤ آب	٩٧	٣	يؤيد رأي
٦٤	١٤	ابن أخت	١٠٠	٢	ابنه
٦٦	١٢	فهذا	١٠٠	٨	بين
٦٩	٦	للأساد	١٠٢	٢	كانت
٧١	١٤	أبو	١٠٢	٤	تخذف [ولود].

ض	س	الصواب	ص	س	الصواب
١٠٤	٧	بأخذ له	١٥٤	١٢	إلى تعفيها
١٠٧	١	أخطرها	١٥٦	١٥	الكتاب محرّفاً
١٠٧	١٢	الزوال	١٥٩	١٩	(F) بدلاً من (C)
١٠٩	١٠	لم يسؤه	١٦٢	٦	٥٧٩ بدلاً من ٩٧٤
١١٥	١١	ارتاع	١٦٧	٢٠	أول سيرة
١١٦	٢	لم يعاجله	١٦٩	٨	كما يرى
١١٦	١٠	بشاره	١٧٠	٧	على المقابلة
١١٨	٨	جديده، شديده،	١٧٣	٩	لكن حتي
١٣١	٨	أغرقهم	١٧٤	١٠	مؤكداً
١٣١	٩	«كنت	١٧٧		بعد السطر العاشر سقط
١٣٤	٧	عصره			سهماً مايلي :
١٣٥	٧	مجرأها			(١٧). مختصر مناقب أمير
١٣٨	٣	والظعن			المؤمنين عمر بن الخطاب:
١٣٨	٦	الأمواه	١٧٩	٨	الوزراء
١٣٩	١٢	أوطالية	١٨١	١٣	بأشعاره
١٤٢	٢	أ. بدوي	١٨٤	١٣	هذه الاتساعات
١٤٢	١٦	مضمنه	١٩٣	٢	لأجبالهم
١٤٤	٢	في (ليدن)	١٩٥	٥	آخر السطر يوضع رقم (١)
١٤٤	١٦	GAL,	١٩٧	٩	فانه
١٤٥	٦	بيلايف	١٩٨	١	لقد... المطالع
١٤٧	٤	فيه	١٩٩	٨	الخيمة .
١٤٨	٢	إلزامي	١٩٩	١٨	أبي دؤاد
١٤٨	٥	كراتشكوفسكي	٢٠٠	٢	ضعيف
١٥٤	٥	لنوب	٢٠١	١٢	حجزاتهم

ص	س	الصواب	ص	س	الصواب
٢٠٢	١٠	فالسري الرقاء	٢٢٩	٢	نلهو ونجذل
٢٠٢	١٥	[١٥٠٠٠٠ دينار]	٢٢٩	٨	وشبهه شوقهم
٢٠٢	١٨	ابن القاشي	٢٣٦	٨	عيش موفق
٢٠٣	١	صبحاً... لا يغور	٢٣٧	١١	أن يسلي
٢٠٣	٦	حاشا لاطلالك	٢٣٧	١٤	في نفسه
٢٠٥	٧	ضمّ رحلك	٢٤٣	٥	أن تلك الدمن
٢٠٦	١	فان أعمى	٢٤٦	١٠	ناظره
٢٠٦	٣	من مدر كانه	٢٥١	١٥	أصابها القدر
٢٠٦	٤	شتوت فمن	٢٦٠	١٢	وفاء لمن
٢٠٦	٨	حتى إنه	٢٦٥	٨	أمر بر بيع
٢٠٦	١٠	رغم ضعفها-	٢٦٧	٦	حتى أتى
٢٠٧	٦	يبقي ستور	٢٧٠	١	في القلوات
٢٠٨	١٠	١- الزوزني	٢٧١	١٥	فمقتها
٢٠٨	١٧	ديوان امرىء القيس	٢٧٣	٦	على الامنتين
٢٠٩	٧	للامتناع	٢٧٣	١٠	دمن تكاثرت
٢١٦	٧	إثم؟	٢٨٣	٥	فتحملت
٢١٧	٧	شعراء العصر	٢٨٣	١٥	وقيل للمتخير
٢١٩	١	الدار ..	٢٨٤	٧	من مكان إلى
٢١٩	٥	أبت ألا	٢٨٤	١١	تناسب... نيا به المقام
٢٢١	١	ولم أر	٢٨٥	١٠	وإن عاش
٢٢٣	١٣	ديوان الخطيئة	٢٨٥	١٠	بآرب
٢٢٤	٦	في البكاء	٢٨٨	٣	فلا
٢٢٥	٦	إذا ما أدبرت	٢٨٨	١٢	إلا وطن كالقديم
٢٢٨	١١	قد ابتعدوا	٢٩٠	٧	أو يعيش

ص	س	الصفـواب	ص	س	الصفـواب
٢٩٠	١٢	وعن الزيارة	٣١٢	٣	أو تقديم
٢٩٢	٣	فكأنها	٣١٢	٤	ذهبوا
٢٩٣	٦	إذا ألح	٣١٢	٦	علاوة على
٢٩٤	١٢	قد امتلاك	٣١٢	١٠	الاعمى
٢٩٨	٤	أن الارض	٣١٢	١٣	الخوارج
٣٠٠	٦	وفي ظعن	٣١٣	١٢	دحمان
٣٠٠	١١	قلب	٣١٤	٧	ونذب... القزاز
٣٠١	١	رؤوسهم	٣١٤	١٤	التيمي
٣٠١	٩	تراحت... لا حسداً	٣١٤	١٥	عُباب
٣٠٤	٦	التي تعني المعنى	٣١٥	٧	ويتجول الناس
٣٠٤	١٩	الحالات	٣١٥	١١	فلم يستطلع
٣٠٥	١٤	الشعر العربي م ٢٠	٣١٥	١٤	(لفت) بدلاً من (تركيز)
٣٠٧	٩	وتأهل	٣١٦	٦	داري... ويسار
٣٠٧	١٤	أو أحدهما	٣١٦	١٠	حيلة
٣٠٧	١٦	في الاصدقاء	٣١٧	٢	بضرورة الحياة
٣٠٨	٤	«والاخوة»	٣١٧	١٢	شكاإلي
٣٠٩	٥	كمعهده بها	٣١٨	١	لنصبي
٣٠٩	١٦	(ربعه الاقرب	٣١٨	١٢	أن أزورها
٣١١	١١	أصرم	٣١٨	١٣	بادرت... علي
٣١١	١٣	وتوبة	٣١٩	١١	على الموتى
٣١١	١٥	بيكيان	٣٢٣	١٠	P-46
٣١١	١٦	الشمر دل، ونهار بن توسعة	٣٢٨	١	المصادر التي
٣١١	١٧	قصائد	٣٢٨	١٠	بالروح الفاتحة
٣١٢	٢	المعنى العام	٣٣٠	١٤	عن دين أهلهم

الصواب	س	ض	الصواب	س	ض
بيننا الدا	١	٣٥٤	قبلي بسخر	٤	٣٣٢
نحو الحجاز	١١	٣٥٤	فالقطيبيات	١٣	٣٣٢
تمزف	١٥	٣٦٠	وتقطعت	١	٣٣٣
الغضا	١٠	٣٦٤	مولع	١	٣٢٣
فقيم تنوح	١٢	٣٦٥	فاغترابه نفسي	٦	٣٣٥
أرض بني	٤	٣٦٨	إنه عبد	٧	٣٣٥
أكثر من رمز	١٣	٣٦٨	واختلافه إلى	١٣	٣٣٥
Rabia	٢٣	٣٩٢	(الشنفرى) أينما وجدت	٩	٣٣٧
Abu	١٨	٣٩٤	هذا الزمان	٢٠	٣٤٢
Diwan	٢	٣٩٥	وإن ظلم	١٤	٣٤٦
			الساجن	١٥	٣٤٦
للكميت	١٣	٤٠١	توقظه	٥	٣٥٠
يوسف	١٩	٤٠٢	بلّغ	٥	٣٥١
كراتشكوفسكي	١٨	٤٠٤	تعالني بالتداني	٧	٣٥٢

رَفَعُ
عبد الرحمن النخعي
أسكن الله الفردوس

المحتوى

الصفحة

٣	إهداء
٨ - ٤	تقديم
١٨ - ٩	المدخل : سورية وفلسطين منذ نهاية القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن الثاني عشر [XI - XII] . « مميزات العصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافة » .

الجزء الاول

١٨١ - ١٩	حياة أسامة وآثاره الأدبية
----------	---------------------------

١١٨٨-١٠٩٤/٥٨٤-٤٨٨

الفصل الأول

١٣٢ - ١٩	حياة أسامة بن منقذ .
٢٤ - ٢٣	- أسامة ونسبه .
٣١ - ٢٥	- شيزر وبنو منقذ .
٤٦ - ٣٢	- امتلاك آل منقذ لشيزر .
٦١ - ٤٧	- أسامة بن منقذ : أيام طفولته وصباه .
٧٧ - ٦٢	- حياة أسامة في شـيزر .
	. (١١٣٨-١٩٠٥/٥٣٣-٤٨٨)

- أسامة في دمشق (٥٣٣-٥٣٩/١١٣٨-١١٤٤) . ٧٨-٨٥
- أسامة في مصر (٥٣٩-٥٤٩/١١٤٤-١١٥٤) . ٨٦-١٠٢
- إقامة أسامة الثانية في دمشق (أسامة ونور الدين) . ١٠٣-١١٨
- . (٥٤٩-٥٥٩/١١٥٤-١١٦٤) .
- أسامة في حصن كيفا (٥٥٩-٥٧٠/١١٦٤-١١٧٤) . ١١٩-١٢٤
- إقامة أسامة الثالثة بدمشق (أسامة وصلاح الدين) . ١٢٥-١٣٢
- . (٥٧٠-٥٨٤/١١٧٤-١١٨٨) .

الفصل الثاني

- الآثار الأدبية لأسامة ١٣٣-١٨١
- أولاً - المؤلفات ذات الطابع الأدبي ١٣٤-١٦٤
- (ديوان أسامة) ، كتاب الدمع ، كتاب الغريبين ،
كتاب المنازل والديار ، كتاب العصا ، لباب الآداب
التأسي والتسلي ، ذيل بتيمة الدهر ، الشيب والشباب .
- ثانياً - مؤلفات تحمل طابع السيرة ، والطابع التاريخي . ١٦٤-١٧٦
- (الاعتبار) ، كتاب أخبار أهله ، كتاب تاريخ
أيامه ، تاريخ القلاع والحصون ، أخبار النساء ،
أخبار البلدان في مدة عمره .
- ثالثاً - المؤلفات ذات الطابع التاريخي - البيوغرافي ١٧٦-١٧٩
- (التعريف بالأعلام) . (التاريخ البدري ،
مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، مختصر
مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فضائل
الخلفاء الراشدين) .

رابعاً - المؤلفات ذات الطابع الوعظي الارشادي ، وبعض ١٧٩-١٨١
المؤلفات الأخرى . (نصيحة الرعاة ، النوم
والأحلام ، أزهار الانهار ، التجار المرحبة
والمساعي المنجحة) .

الجزء الثاني

موضوع الوطن في الشعر العربي .
١٨٢-٣٧٧
الفصل الأول

الوطن في الشعر العربي .
١٨٥-٣٠٥

١ - أماكن السكن . [الخيمة ، القصور ، الوقوف
على الاطلال ، وصف الحالة الراهنة للمنازل : (تحديد
أماكن السكن ، جهل الديار وعدم معرفتها ، المنازل
معقاة ، الديار بلا سكان فقراء خالية ، مكان عيش
الحيوانات ، المنازل صماء بكساء ، تشبيه آثار الديار ،
عوامل تهديم المنازل ، وصف الماضي ، شعور الشاعر
وسلوكه) ، أماكن السكن عند العذريين ،
عناصر جديدة في التوجه إلى موضوع المنازل
والديار ، ومعاملتها ، العناصر الفلسفية والوعظية ،
أماكن السكن في شعر القرن الثاني عشر ، وبخاصة
في شعر أسامة وأهله .

٢ - المعنى الاوسع لمكان السكن (المغاني والربوع) .
[المغاني ، الربوع ، العناصر التقليدية ، عناصر
التجديد] .

٣ - بقايا أماكن السكن : [المعاني اللغوية ، بقايا آثار

أماكن السكن عند أسامة] .

٤ - معنى الوطن الواسع .

الفصل الثاني

٣١٩-٣٠٦

الاهل والاخوان (المواطنون) .

الفصل الثالث

٣٧٧-٣٢٠

الحنين إلى الوطن والمواطنين .

(الشعراء المسجونون ، الشعراء المنفيون والهاربون ،

الشعراء المهاجرون) .

٣٨٤-٢٧٨

الخاتمة :

٤٢١-٣٨٥

فهرس المراجع والمصادر :

٤٢٦-٤٢٢

تصويب :

٤٣٠-٤٢٧

المحتوى :

رَفَعُ

عبد الرحمن البخاري
السلطنة الله الفردوس